عرب أمريكا

رواية

كلاديس مطر

عرب أمريكا

رواية

اســـم الكتـــاب: عرب أمريكا.

اســـم المـؤلـــفة: كلاديس مطر.

الترقيـم الـــدولي: ISBN:978-9933-567-23-1

النـاشـــــــــر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.

سنـــة الطباعـــة: 2018.

جميع الحقوق محفوظة لدار عقل

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سوريا - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963115618956

هاتف: 00963115637060

فاكس: 00963115632860

aklpublishing@gmail.com

الرحيل عن القيمرية

الرابعة صباحاً في مطار بيروت الدولي. رجال ونساء يلوح على محياهم التعب والانتظار، يدفعون عرباتهم في صمت البهو الطويل المؤدي إلى القاعات الباردة. الظلام في الخارج والمطر الخفيف الذي مَنّ به خريف بيروت، يدفع على الإحساس بالوحدة والترقب، بينما بدت المقدمات الضخمة للطائرات المتأهبة للإقلاعٍ من خلال الواجهات الزجاجية العريضة التي تلف المطار، وقد أخذت الأضواء فيها تقوى وتخفت بطريقة تزيد من "طينة الانتظار بِلّة".

جلست الدكتورة (أميرة زين الدين) وحيدةً إلى جانبِ حقيبتها الصغيرة، بينما وضعت كلتا يديها في جيبي معطفها الزيتي البسيط، وأخذت تفكر وهي تتطلع إلى انعكاس خيال الطائرات المنتظرة على الزجاج أمامها. لقد دخلت في أكبر مغامرة في حياتها الشخصية والمهنية عندما وافقت على مغادرة البلد، والعمل في مركز للدراسات العربية في مدينة لوس أنجلس الأمريكية. لم يكن القرار مزحة، فالصواريخ ما زالت تتساقط على دمشق مثل زخ المطر بعد أربع سنوات من الجنون الفالت من عقاله، في وطن قالت عنه يوماً:

"إنه المكان المثالي لي كامرأة وباحثة". كل الوجوه حولها تتطلع إلى بعضها بعضاً عارفة بما يدور. كل واحد ينتظر طائرته إما مكرهاً أو راغباً، ولكن الجميع في قلبه قبضة من قلق قد لا تزول. الكل يحمل مفاتيح بيته في جيبه، بيوت إما نهبت، أو قصفت، أو هدها عن بكرة أبيها الإرهاب الأصفر، أو بيوت بقيت سالمة آمنة، تُركت في عهدة الأقرباء. أما بيتها في دمشق، فكان يقطن فيه والدها الشاعر ابن الخامسة والسبعين عاماً الذي "قضت عليه حروب الأهل والجيران وليس الشعر"، كما يقول في كل مناسبة. والحرب الأخيرة على سوريا، أقعدته على كرسي متحرك بسبب شلل لم يقوَ أطباء المدينة المنهكة على علاجهِ. قال لها: اذهبي، اذهبي، واعملي، ولا تتطلعي إلى الوراء. سأكون بخير إن كنتِ أنت بخير. ماذا تنتظرين.. اذهبي! اقبلي بفرصة العمل هذه. اقبلي بها ولا تترددي. أليس هذا ما كنت تنتظرينه منذ وقت طويل؟

- ولكن... البلد يا والدي.. وأنت!

عض (إنعام) على شفتيهِ حالما سمع كلمة "البلد".. أية حسرة! أي حب هذا الذي لم يتوقف يوماً في قلبهِ، كأغنية لم يمل من سماعِها. لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

- سافري... أنا هنا... سأنتظركِ، وأنتظر البلد.

قدمت (أميرة) طلباً للعمل في هذا المركز قبل اِنْدِلاعِ الحرب على سوريا. لقد رأت فيه فرصة للسفر واكتساب خبرات جديدة، وكذلك الخروج من حياة روتينية قضتها في تدريسِ العلوم السياسية بين جامعة دمشق والبيت، حيثُ والدها الشاعر الليبرالي (إنعام زين

الدين) الذي كان يهز المنابر هزاً فيما مضى، وذلك قبل أن تلقي مخابرات الجمهورية المتحدة في منتصفِ الخمسينيات القبض عليه لأنهُ وقف ضدها بكلِ ما لديه من قوةٍ، معتبراً إياها ارتجالاً عاطفياً لا طائلَ منهُ. لقد كان يؤكد أن الوحدة بين مصر وسوريا قد قضت على الحياةِ الحزبية في بلدهِ، وحولت السياسة السورية إلى دكتاتورية مبكرة. لم يكن الرجل انفصالياً، وإنما كان يرى في الأمة السورية أمة تامة.

كان يقول إن العرب لا يتحالفون، وإن فعلوا، فلغاية مؤقتة في نفس يعقوب. خرجَ (إنعام) من السجنِ بعدَ انهيارِ الوحدة. ربما كان من السوريين القلة الذين لم يعموا من وهجها في ذلك الحين. ففي الوقت الذي كان به الكل منبهراً بالزعامةِ الناصرية، كان يرى أن كل هذا سوف يحول سوريا إلى دولةِ مخابرات، وسوف ترحل "نتفة" الديمقراطية التي كانت ترفرف في البلد بجناحين وليدين. اليوم، على كرسيه المتحرك ويديه المرتجفتين، وعيونه المتعبة شبه الدامعة، كثيراً ما يهز رأسه وهو يستمع إلى نشرات الأخبار هنا وهناك، والتحليلات التي تتدفق من دونِ رقيب أو حسيب، قائلاً لمرافقيه: ألم أقل لكم... كنتُ أعرف أن كل هذا سيحدث!

- سافري يا (أميرة). أعرف أنكِ في الخامسة والأربعين اليوم، ولكن ها هي ذي فرصة ذهبية لطالما حلمت بها، تتوقف عند قدميكِ.. لا تقلقي على سوريا.. ربما أمكن لك مساعدتها وأنت في موقعك الجديد...! لا شيء يبقى على حالهِ... سافري.

كانت (أميرة) ابنة أبيها. امرأة خرجت من رحم العلمانية، رباها

رجل عجنته الحياة وخبزته بعد أن رحلت والدتها وهي في الخامسة من عمرها. لم يكن الأمر سهلاً على (إنعام)، لكن الأهل والجيران كانوا يتناوبون على الصغيرة، ويغدقون عليها من العاطفة الكثير، إلى أن اشتد عودها الوجداني وانطلقت في الحياة.

يقولون في سوريا لا يموت أحد من الجوع، ولا يفتقر طفل إلى لمسة حنان. أكان هذا الكلام دقيقاً، أم لم يكن، هناك الكثير من الصواب فيه. الناس "لبعضها" وضد بعضها بعضاً في الوقت نفسه، بذات القوة والحمية. سوريا جنة في عقولنا.

كان شعر (أميرة) الطويل الكثيف آخر أثر لها رآه والدها في عتمة صباح ذلك اليوم، وهي تركب سيارة الأجرة الصفراء التي احتلت الزقاق الضيق كله في حي "القيمرية" الدمشقي العتيق، حيث الأبواب تقابل الأبواب حتى تكاد أن تتلامس، بينما فُرشت البيوت بفسحات داخلية كبيرة تحلقت حولها الغرف الكثيرة، واحتلت في منتصفها البرك المنوفرة التي يطفو فوق سطحها الياسمين وزهر الليمون. لقد رآها ترحل في هدوء تاركة وراءها ربما أقدم الأحياء على وجه البسيطة، حي ربما تعود جغرافيته إلى الألف السادسة قبل الميلاد. كان فيه معبد لحدد الآرامي الذي تحول إلى معبد لجوبيتر، ثم إلى كنيسة سميت باسم يوحنا المعمداني أو "النبي يحيى"، ثم إلى صرح إسلامي يعرف اليوم بالجامع الأموي الكبير.

كل حجر في هذا الحي القديم يقف شاهداً على عصر ما مضى، كل عَمود ترتاح فوقه حقبة خلت برجالها وأحداثها، كل حركة هندسية في بنائهِ تقرب البيوت من بعضها بعضاً، لتشي

بذلك العشق البسيط الذي يربط بين سكانِ هذا الحي عبر التاريخ. حضارات عبرت تاركة شغفها معلقاً على الشبابيكِ والجدران، وكذلك على طرقات هذا الحي الحجرية العتيقة. القيمرية التي تعج بالمدارس والخانات والحمامات والمساجد والكنائس والمطابع، تحولت بعض بيوتها اليوم إلى مطاعم ومقاهٍ وبارات ومحال تغص بالسياح الذي أصبح وجودهم مألوفاً وهم يتجولون في أزقتها، وقد ركزوا عدساتهم على بيوتها القديمة والنوافذ المعلقة ودخلاتها الأثرية، وكذلك على صروحها الكبرى مثل قصر العظم وخان أسعد باشا وجامع فتحي والمدرسة القيمرية وحمام النوفرة ونور الدين وسويقة جيرون. لقد عاشت (أميرة) ها هنا كل سنوات حياتها، عُجنت بكل زاوية من زوايا القيمرية؛ خزاناً من الخزف الإنساني الذي لا مثيل له.

(ها إن الطائرة تتحرك باتجاه محطتها الأوروبية الأولى قبل أن تأخذني إلى لوس أنجلس. إذاً، كل هذا حقيقة الآن... الشام بعيدة.. إنها هناك وحيدة تحارب طواحين الهواء. أشعر أن قلبي انفطر من مكانه حزناً بسبب الحرب عليها. الله وحده يعرف متى أعود، وكيف ستكون حياتي في تلك البلد وبمن سألتقي! أعرف أن الحرب ستخفت يوماً بعد آخر، وأنا هنا تفصلني عنها مليون آه ودموع غزيرة. سوف أكون مع غرباء نتفرج على الفرق المسلحة المنهكة من الاقتتال تجر أسلحتها وأثمالها وترحل! من يعرف كيف سينقلون الخبر هذه المرة.. إن نقلوه!... سأغمض عيني وأصلي قليلاً لراحة نفس البلد، وراحة نفس أولئك الذين ساروا طريق الجلجلة فيها صامتين وواثقين. أين أنا

مقارنة بهم؟ لو كانت لدي القدرة على تقبيل أقدامهم فرداً فرداً لما ترددت... أنا معلقة في الهواء وكذلك بلدي).

(يا الله.. يا الله... من أين لي بقوة دهرية تعينني على التحمل؟).

تدفقت الدموع المالحة من عيني (أميرة) ببطء وهي غائرة في مقعدها قرب النافذة، بينما أخذت الطائرة ترتفع على مهل مخترقة الغيوم وضباب الخريف الذي أتى مبكراً. يقولون إن هذا الشتاء سيكون قاسياً ببرده كما كان الصيف قاسياً بشمسه، وسوف يتحضر العالم لنهايته الفعلية، فهاهم البشر يتذابحون، والأمراض التي لم نسمع عنها من قبل قد ملأت الدنيا، وقضت على الملايين كما لم تفعل حرب من قبل، وفوق هذا وذاك، هذه الأفكار الغريبة المتطرفة التي ملأت الفضاء من دون سيطرة، وانتشر جنونها الخفي مثل وباء. لقد تنبَّأ بهذا كل العرافين الجدد الذين احتلوا شاشات التلفزة، والذين تحولوا إلى شبه أنبياء، الرجال منهم والنساء، لهم أتباعم ممن يؤمنون بهم الإيمان المطلق. كم حقبة مثل هذه مرت على البشرية خلال دورات حياتها؟ كم "نهاية العالم" تحدثنا عنها فيما مضى، وأعلنت عن نفسها في كل مرة من خلال حرب كبرى طاحنة تقضي على الأخضر واليابس، لتمهد لمرحلة جديدة وتحول نوعي تدخله البشرية لفترة قصيرة، لتعود الأمور بعدها بالتكثف والتعقد والدخول في نفق حرب كبرى أخرى طاحنة، وهكذا دواليك. هكذا عشنا، وهكذا سنبقى حتى يزهر الصوان. لم يعرف الإنسان يوماً كيف يخرج من هذه الدائرة اللولبية

الهابطة باتجاه حتفه كل مرة. إنه قادر على أن يجعلك تنتشي ككاهن في معبد بوذي أمام إبداعه الجمالي، ولكنه في نفس الوقت يمكنه أن يذبحك بأبشع الطرق الهمجية، التي لايمكن أن تخطر على بال. ما هو الحل؟

(الأخلاق هي الحل. الأخلاق هي التي تجعل الصوان يزهر)، هكذا كانت تقول (أميرة) لطلابها في نهاية كل محاضرة بنبرة صوت واثقة، رافعة يدها لكي تزيد من وقع الجملة عليهم. (وراء كل انهيار قلة أخلاق، وإلى أن يستطيع الإنسان أن يسلك هذا الطريق، فإننا لن نخرج من هذه الحلقة الهابطة المميتة)، كانت تزيد (أميرة) منفعلة. لقد كان هذا في دمشق، في إحدى قاعات جامعتها العريقة، حيث كان يتقاطر طلاب صفها وطلاب آخرون ليستمعوا إلى إحدى أكثر الأساتذة صدامية وفهماً، تتدفق في حديثها بحماس قلق، بينما يحلو لها في كل مرة أن تخرج عن المادة المقررة، لتتحدث في أمور تحدث كل يوم تعتقد أنها أجدى وأهم.

تغمض (أميرة) عينيها محاولة ضبط إحساسها الطاغي بالحزن. من ينام في الطائرة؟ أين ستذهب بنهر الأفكار المتدفق الذي يأتي من كل مكان، أفكار لا صلة فيما بينها تنهمر فوق رأسها من هنا وهناك. صوت والدها في باحة البيت حول النوفرة يأمرها بعدم الإسْرَاع على دراجتها وهي صغيرة. زواريب حي القيمرية، حيث كانت تتمشى فيها بعد المدرسة ببذة "الفتوة" العسكرية لتشتري من دكان الحي تواصي المنزل. القبلة السريعة مع أول حب أمام باب البيت في عتمة الزقاق، والصعود مهرولة إلى

غرفتها قبل أن يصحو والدها. الساعات الكثيرة التي قضتها في مكتبة الحي، حيث الكتب الكثيرة القديمة التي يباع بعضها بالكيلو، والتي غيرت مجرى حياتها لاحقاً، ثم المحاضرات اليومية، واللقاء مع طلابها، وهذا السير على أقدامها في شوارع دمشق الجميلة والتي ستفتقدها حتماً. وأخيراً (علي)، الكاتب العراقي الذي تعرفت إليه في أحد المؤتمرات التي دعيت إليها. كان (علي) قد ترك العراق بعد أن انتهت الحرب العراقية الإيرانية الطاحنة متجهاً إلى سوريا. كان شاعراً مبتدئاً، وجندياً أنهكته الحرب الطويلة التي قضاها على ظهر دبابته التي كانت تعبر الحر الشديد وكثبان الرمل اللانهائية على حدود البلدين. لقد ترك وطنه مع كثيرين بعد أن جننتهم الحروب التي لاطائل منها، واستنفذت منهم القوى والتفكير. سوريا كانت هناك بانتظاره وبانتظار مليون عراقي دفع بهم الغزو الأمريكي لاحقاً إلى خارج الحدود بعد أن قُتل منهم مليون آخر. استقرَّ (علي) في أحد مدن ريف دمشق، وتزوج من فتاة سورية تشبهه في التفكير والعقيدة، وعاش أكثر من عشر سنوات قبل أن يلمع اسمه كشاعر كبير. كان متوسط القامة ذا شعر طويل يعقصه إلى خلف، أما بشرته التي تميل إلى السمرة، وآثار الجدري على وجهه، وحدة نظراته، وتوقد مشاعره، فقد خلقت حوله هالة لا لبس بها من الكاريزما الطبيعية الجاذبة.

تتذكره (أميرة)، وهي مستلقية في مقعدها مغمضة العينين، بوضوح أكثر من المعتاد! لم تستطع أن تصدق كيف بدأت هذه العلاقة وكيف انتهت. وقف (علي) على منبر المؤتمر الذي

جمعهما في إحدى الدول العربية، أمام الحشد الذي يملأ المدرج مقابله، وأخذ يتحدث بهدوء وثقة عن العراق من دون لف أو دوران. (لقد تحدث لأكثر من خمس عشرة دقيقة قبل أن يلقي قصيدته الطويلة التي كانت كافية لتجعله بنظري أكثر الرجال جاذبية في العالم. إنني أحب أهداف الرجل، أهميتها وقيمتها الإنسانية أكثر ربما من حبي له كشخص، أو بدقة أكبر، تختلط الأهداف بمواصفاته الشخصية في عقلي وتخلق هذا المغناطيس الغريب الآسر).

لقد تحدثا مطولاً بعد العشاء في زاوية وثيرة من فندق المؤتمر، حول القصيدة والعراق وسوريا فقط، مبتعدين بجهد واضح عن الحديث عن نفسيهما. في آخر أيام المؤتمر، تجرأ ولمس طرف شعرها المنسدل على ظهرها الصغير وهما على العشاء، من دون أن تعترض، وهكذا بدا كل شيء كالألعاب النارية في سماء مدينة نائمة. بعد أن اشتد الحب بينهما وطاف إلى ما فوق قدرتهما على الإِخْتِبَاء منه، بادرت (أميرة) أخيراً في سؤالهِ عن وضعه العائلي، وذلك بعد أسبوعين من عودتهما إلى دمشق. أطرق (علي) متفكراً بعد أن مرت غيمة حزن سميكة فوق رأسه.

- أنا متزوج منذ سنوات وليس لدي أولاد... أنا.. أنا لم أشأ أن أُفسد هذه العاطفة الحقيقية بأي كلام مهما كان... ربما أكون مخطئاً.. ولكني لم أقصد أن أخفي شيئاً.. حصل كل هذا رغماً عني.. أنا...

- أنت ماذا؟؟ من قال لك إني أريد علاقة مع رجل متزوج.. مهما كانت عاطفتي تجاهك؟

- أرجوكِ اهدئي... أنا لا أستطيع أن أتخلى عنكِ... دعينا نتزوج الآن.

- أجزم أنكَ جننت...

- لا ... نتزوج وحالاً... زواج متعة... هو زواج كامل ولكن...

قبل أن ينهي (علي) كلمته الأخيرة، كانت (أميرة) قد خرجت من المقهى الذي اجتمعا فيه وأغلقت الباب بألم كبير وراءها على قصة ولدت بعنف وشغف، وانتهت بندم وغضب كبيرين. (قد نتعاطف مع المخطئ، وقد نسامح أموراً كان من شبه المستحيل تقبلها ونحن على الأرض. لا يقربنا تسامحنا هذا من الله - ونحن معلقين فوق - بقدر اقترابنا من الموت).

حين أطفئت أنوار الطائرة، أغمضت (أميرة) عينيها وشدت الغطاء الرقيق إلى ما فوق صدرها، ثم مالت برأسها إلى جهة النافذة البيضاوية الصغيرة، وهكذا عادت الصور من جديد تتوالى وتتحرك في ظلام أفق رؤيتها وهي تغالب نعاساً يرفض أن يتحول إلى نوم عميق.

"- (أميرة).. عودي إلى هنا، لا تخرجي على الدراجة من المنزل.. ابقي حول النوفرة ولا تسرعي...".

(أميرة) الصغيرة لا ترد، وإنما تسرع أكثر مطلقة بحرية ساقيها اللتين باعدتهما عن دعسات الدراجة، وهي تضحك أمام والدها الذي كان يكتب وراء طاولته الصغيرة في زاوية من باحة البيت.

"- بحبك (أميرة)... خلينا نتزوج.. هلأ.. هلأ..".

"- روح من هون بسرعة قبل ما يجي بابا ويعملك مشكلة.. روح .. روح... اقلع بدلة الفتوة[1] الأول...".

تضحك (أميرة) بدلال وهي تغلق باب البيت في وجه حبيبها الصغير ابن السادسة عشر عاماً...

"- أهلاً بك في الجامعة... سأرشدك بنفسي إلى صفك وسأقدمك للطلاب..."، قال لها عميد القسم في أول يوم لها في التدريس.

"- بابا.. بابا.. تعال شوف بدأت أول مظاهرة في سوريا... معقول؟؟ هون في سوريا؟ ليش؟؟؟" قالت هذا لوالدها الذي عاجل مذهولاً بفتح التلفاز ليرى ما يحدث من إحدى المحطات العربية.

"- بابا.. بابا وينك.... بابا... هلأ نزل صاروخ على الحارة اللي جنبنا.. قالوا فيه ولد وأمو ميتين. راجعة!".

أفكار لا نهائية تتدفق لم تتمكن من السيطرة عليها. تمنت لو تنام للحظة. تمنت لو تستطيع أن توقف هذا التداعي العقلي المجنون!

(ها أنا أطير باتجاه أمريكا التي طالما انتقدتها.. أية مفارقة؟ أي قدر؟).

(1) بدلة الفتوة هي لباس مدرسي لونه أخضر غامق (لون عسكري) كان يرتديه الطلاب والطالبات في سوريا في المرحلتين الإعدادية والثانوية. لكن في عام 2003، ألغيت مادة التربية العسكرية في المرحلتين الإعدادية والثانوية، وتم استبدال الزي المدرسي العسكري بزي آخر، أزرق ورمادي للذكور، وزهري ورمادي للإناث.

تغطي (أميرة) رأسها بالغطاء الصوفي الرقيق، وتستسلم لجلبة المسافرين حولها، بينما كانت الطائرة تهتز اهتزازاً خفيفاً وهي تخترق غيوم البحر المتوسط باتجاه أوروبا.

مدينة الملائكة

("لوس أنجلس" ليست مزحة. إنها ليست بمدينة الملائكة كما يعني اسمها، لكنني أحببتها منذ أول نظرة ألقيتها عليها من عل، بينما الطائرة تهبط بي وحيدة لا أعرف أحداً فيها. ارتعدت حينما لمست قدماي أرض المطار، ثم ما لبثت أن رأيت نفسي أسير مدفوعة مع بقية الركاب لمسافة طويلة في مماشٍ وممرات كثيرة دون أن أعرف إلى أين تفضي تماماً. كان المطار صامتاً ممتلئاً بالإعلانات الضوئية وأجهزة التلفاز. كنت بحاجة لكي أحرك قدمي بعد ساعات الجلوس الطويلة. شعرت أن الأرضية المطاطية قد سهلت حركتي، فكنت أحس بشيء من الخفة في مشيتي، واللاواقعية في روحي، وكأني أتفرج على حياتي من زاوية ما عن قرب).

حين قدمت (أميرة) جواز سفرها إلى الضابط المسؤول، نظر إليها ثم إلى صورتها على الجواز من دون أن يتفوه بكلمه. وضعه في ملف برتقالي ثم طلب منها أن تلحق به. مشت وراءه إلى أن وصلا إلى قاعة جانبية في المطار. هناك طلب منها الانتظار حتى تتم المناداة عليها. (تطلعت حولي فوجدت بعض المسافرين ربما أتوا من شرق آسيا، وبعضهم ربما من إيران، يجلسون بشيء من عدم

الرضى وقلة الصبر المكبوتين. إنهم حتماً مواطنون من تلك الدول التي قررت أمريكا أنها مصدر للشر. هذا الفرز الوقح والمهين للناس في دولة تدعي أنها رب حقوق الإنسان لا يبرره الإرهاب!).

بعد ساعة كاملة من الانتظار، نادى أحد ضباط الجوازات اسم (أميرة زين الدين) بلكنة أمريكية مضحكة.

(كان قلبي يدق أكثر من المعتاد. لم أكن خائفة ولكنه الغضب الذي جعل كل شيء جميل في داخلي يهر مثل ورق الخريف. لقد سقط الفهم، والحب، والوطن، والشوق، والانتماء في بركة الفوضى الروحية التي اشتعلت فيَّ للتو، وأنا أجتاز الأمتار القليلة التي تفصل مقعدي عن مكتب ضابط الجوازات. حين تطلعت عن قرب في لامبالاته ونزق تعابير سحنته، عرفت أنني وجهاً لوجه أمام نظام لطالما قرأت عنه وميزت بصماته فوق جسد هذا العالم. كانت نبرته حين ابتدأ أسئلته تشبه نبرة المحققين وكأنني متهمة بجرم ما! غريب كيف تُعكس الأدوار بهذا الشكل الهزلي فيحقق معي من قام بقتلي! لقد ناجيت قوة السماء كي تمنحني طول الأناة والصبر إلى أن يمر فيلم اللامعقول هذا. وكرّت سبحة الأسئلة إلى أن وصلنا إلى مكان أراد فيه الرجل أن يعرف موقفي مما يحدث في سوريا. لم يختر ألفاظه ولم يلف ويدر وإنما قال: جيد أنك هنا، لا أحد يحب العيش في ظل الديكتاتورية، أم لك رأي آخر؟

لا أعرف كيف وجدت الجرأة الكافية لكي أتطلع في بؤبؤ عينيه بقوة وتحدٍّ جعلته يرتبك. قلت له: الديكتاتورية هي أن تجبر أحداً ما على أن يجيبك بالطريقة التي تريدها أنت فتجعل منه كاذباً ومنافقاً.

جيد أنني أتعرف على هذا الشعور للمرة الأولى هنا. تطلع الرجل إلي مدهوشاً مقطباً، ثم وقع على ورقة أمامه، وختم أخرى بشيء من الغضب وناولني جواز السفر).

ما إن دلفت (أميرة) وحقيبتها من الباب المؤدي إلى خارج المطار، حتى عثرت على اسمها مكتوباً على ورقة كانت تحملها سيدة ياقوتية الشعر، بدينة وبيضاء البشرة، أرسلها المركز لكي تقود (أميرة) إلى المكان المخصص لإقامتها. علت شبه ابتسامة على وجهها الشاحب ثم توجهت إليها جارّة حقيبتها وراءها.

مدت المرأة يدها إلى (أميرة) مرحبةً بلكنة أمريكية محلية:

- اسمي (كاثي).. أنا من مركز الدراسات. أهلاً بك في لوس أنجلس.

(في طريقنا من المطار إلى الشقة المخصصة لي، شعرت أنني ضئيلة الحجم وأنا أتطلع بعين متعبة إلى هذا الاستعراض الأمني والعمراني الذي خلقته أمريكا الحديثة لكي تزيد من أثرها على الدنيا حولها. لقد كان وجع سوريا كله مخبّأً بين أضلعي، بينما بدت هذه المدينة التي كنا نشق طريقنا عبرها، مُقلِقة بحجمها وامتدادها، مشعة بأضوائها وصخبها المدروس والمسيطر عليه بوضوح. هالني استرخاء هذه المرأة وحجم ابتسامتها، وكأنها قادمة من دنيا أخرى. إذاً، الناس ما زالت تعرف كيف تبتسم هنا! يا الله.. ماذا حل بنا!

كنت أتفرج على ناطحات السحاب تتحرك أمام عيني من وراء زجاج السيارة، بينما كانت (كاثي) تتحدث إلي، وتشرح، وتجامل من دون توقف. لم أعرف تماماً ماذا كانت تقول، كأن كلامها كان يخرج

من فمها ليتبعثر خارج النافذة. كانت ساعات السفر الطويلة قد أنهكتني، وفرق الوقت جعلني لا أقوى على فتح عيني بشكل كامل. مع ذلك، كدت أخمن بأي شارع تالٍ سوف نعبر، وكأني عشت هنا في حياةٍ سابقة. تُرى ماذا تسمى هذه الظاهرة؟ كيف لي أن أشعر بأني أعرف هذه المدينة كباطن كفي منذ أول لحظة وقعت عيني عليها؟ هل بدأت "بالفرجة" على فيلم حياتي للتو؟ بدا العالم، مع ذلك، أجنبياً ومنفصلاً عني، كأني أمشي أو أطير في أحد أحلامي. منذ ساعات كنت في القيمرية، أودع أبي أمام باب الزقاق، والآن أنا في كوكب آخر، أعرفه، ولكن قطعاً لا أشعر بألفة تجاهه، وكيف أفعل! أي تناقضات مرّة هذه التي أجد نفسي أسبح فيها مثل طفل يتعلم العوم بجهد وخوف!

ليس كل أصدقائي مقتنعين بما أفكر به وأدرسه لطلابي، فأغلبهم يعتقد خطأً أنني ذهبت في تأييدي للدولة إلى حد غير مقبول، مرددين بأنني غير منتبهة إلى الفساد المستشري، فقاطعوني بعد صداقة نمت إلى أكثر من ربع قرن. لقد كانوا يعتقدون بكل جدية أن الشعب ثار فجأة مطالباً بحريته، مطلقاً شعارات انتشرت مثل النار في الهشيم، شعارات رُددت بالفصحى وكأنها مترجمة عن لغة أخرى. لقد كان من الصعب علي أن أصدق أن الشعوب التي لم تعرف الحرية يوماً، ولم تصدفها في كتبها المنزلة يمكن لها أن تطالب بها. لا أحد يطالب بشيء لم يره، ولم يعرفه يوماً. لقد خرج البعض إلى الشوارع وكأن يداً خفية سحبتهم من بيوتهم ودفعت بهم إلى دروب الهلاك التي ما زالوا تائهين فيها! لقد كانوا يطالبون

بالحرية.. هكذا من دون أن يقولوا ما هو موضوع حريتهم. أما بعض "مفكرينا" الذين لجؤوا إلى دول مجاورة فكانوا يستعيرون منابرها لكي يلهثوا بكلمات أيضاً لم يكن تراثنا يحتوي عليها وكذلك كتبنا المقدسة؛ الديمقراطية، الكلمة الأكثر عبثاً وغموضاً بين كلمات اللغة. لقد كانوا بخبرتهم القليلة يعتقدون أنها موجودة في بقية دول العالم بينما هي غائبة في سوريا. إذا كان الأمر كذلك، إذاً دعوني أبحث عنها وعن الحرية ها هنا في أمريكا عبر القادم من قصتي. سوف أبحث عنهما بِلا هوادة، وسوف أستمتع بهما بعد طول حرمان، كاسكندنافي يتوق للاستلقاء تحت شمس ربيعية حارة. سوف أحضنهما، أقبل قدميهما، وأتعبد لهما ليل نهار. سوف أتوسل إليهما أن يرحلا معي إلى سوريا، فالحياة هناك أهنأ، والضرائب أقل، والمدارس تفتح ذراعيها للجميع بليرات قليلة. أما إذا وقعتا صرعى المرض لا سمح الله، فطبابتهما مكفولة بالمجان. نعم، سوف أخبرهما بكل هذا، وسوف أهربهما سراً تحت معطفي إلى سوريا. وهناك، سوف أسلمهما باليد لأصدقائي القدامى لكي يعتنوا بهما. سوف أفعل كل هذا وأكثر لعلي أوفر على هؤلاء الغاضبين عناء المطالبة العمياء اليومية بهما. لكني أيضاً سوف أجلب معهما كل تبعاتهما الغريبة، وأقدمها كجوائز ترضية لزوم الفخاخ التي تنصبانها. لم يبق لي في سوريا إلا والدي وأحجار القيمرية ووطن بحجم بؤبؤ العين وغلاه).

حين ودعت (أميرة) السيدة حمراء الشعر، وأغلقت باب شقتها الصغيرة وراءها، عرفت أنها وصلت. الأثاث البسيط الفاتح اللون والحقائب المرصوصة في البهو الضيق وتعب الأيام السابقة جعلها

تشعر أنها مفككة. تركت كل شيء في مكانه كما هو، واستلقت على الأريكة العريضة، أريكة أمريكا ذات الكاروهات الحمراء والخضراء الداكنة، وغفت في ثوانٍ حتى فاضت لوس أنجلس بالظلام.

استفاقت (أميرة) في الثالثة صباحاً على صوت هدير بعيد للسيارات المهرولة على الطريق السريع. كانت شقتها تقع في مبنى في مدينة (باسادينا) الجميلة، واحدة من مدن لوس أنجلس الكبرى، مدينة عرفت بأمانها وهدوئها وغلاء بيوتها. كل باب منزل في المبنى عليه رقم، (مع ذلك لم أشعر أنها كانت توحي باللهو الخفيف، والوعد بالراحة كما هو الحال في الفنادق، وإنما بالعمل والرهبة). وأخذت تتمشى في البيت الصغير، وتتعرف على المكان، وتقلب في الأشياء، وتفتح خزائن المطبخ وغرفة النوم. بعد ذلك، بدأت بإخراج الملابس من حقائبها ووضعها في مكانها.

(لقد شعرت أنها فقط البداية، البداية الناعمة المترقبة حيث ما زال في الإمكان التلصص على الدنيا بحذر ولا مسؤولية. لكن التفكير لا يهدأ، والحسابات الكثيرة أخذت تطفو على السطح، وكآبة سوريا كنت أحس بها تلفني كهالة القديس، تتحرك أينما تحركت. لقد كان ضغط قدمي العاريتين على السجاد الذي فرشت به الشقة، وبرودة وهدوء المكان يشعرانني بثقل حركتي كأنني مجبرة على الركض بمثانة ممتلئة، أو اللف والدوران مثل درويش حول نفسي في فضاء من دون جاذبية. تُرى ماذا يفعل والدي الآن؟ وأين القيمرية، أين سوريا...؟ كم صاروخ سقط على دمشق، وكم سيارة مفخخة تم تفجيرها، وكم لاجئ عبر الحدود اليوم...؟؟؟ كل هذا الهدوء الذي

لديهم سرقوه منا، كل هذا الأمان، كل راحة البال هذه؟ كل هذه الأضواء المشتعلة في ناطحات السحاب لا تنطفئ لحظة، كل هذه السيارات المهرولة التي تنطلق كل منها بسائق واحد إلى مكان هواه، كل كلب صغير يتمشى بهدوء مع صاحبه، كل شجرة على ضفة بحيرة صغيرة، كل طفل يركض أمام والديه في الحديقة العامة، كل امرأة تتسوق بدعة في أسواقهم المغلقة، وكل شاب يعمل على حاسوبه في مقهى صغير، كل هذا يجعلني أموت مئة مرة على ما ضاع من سوريا. يا ضعفي الكبير، يا عجزي المهول، يا أيتها الدنيا التي تسربت من بين يدي. سوف أتماسك، سوف أهيل تراب الثقة فوق وجعي. أنا هنا. هذا أمر منته. إذاً، لأبحر اليم الذي طالما حلمت به، والذي أتى بتوقيت مجنون).

وأخذت (أميرة) تقتحم هذا الفضاء الزئبقي حولها، وهي مستلقية تتطلع في سقف الغرفة، بنفس عمود نير الجواميس الثخين الذي ظن الثوار في رواية "خريف البطريرك" للكولومبي "ماركيز" إنهم يحتاجونه لفتح بوابة قصر الديكتاتور الذي مات متعفناً بين بذّاتهِ العسكرية والمهاميز. (لا يمكن اقتحام هذا الفضاء إلا بأداة تناسب ثقلهُ فينهار أو يتفكك ويتداعى، وهكذا قد يسهل لي المضي فوق الخراب الذي بنت فوقه أمريكا مجدها. إنني أعرف التاريخ القصير لهذا البلد. منذ خمسمئة عام كانت هذه الدولة حلماً يافعاً لم ينبت شارباه بعد في مخيلة العقول الاستعمارية المتضخمة، حلماً وليداً تحقق فوق جثث كثيرة وإبادات مهولة..!).

(أميرة) ليست امرأة عادية. إنها تعرف تماماً ما يحدث. تعرفه

وتعرف نتائجه وتتوقعها بحسرة. إنّ تدريس العلوم السياسية جعلها تتقلب على فراش الحرب مثل عاشق مكلوم زادت من كربه المسافة، ووالد تركته في رعاية (أم علاء) التي لم تفارق الأسرة منذ عشرين عاماً. العالم كله يتغير إلا قلب (أميرة)، وكذلك هواجسها وتطيّرها بالنسبة لسوريا. لقد عاد كل ما حدث إلى ذاكرتها كشريط متصل، منذ اللحظات الأولى وحتى يوم وصولها إلى أمريكا. حين تظاهر البعض من الناس في مدينة "درعا" السورية ظنت أن في الأمر دعابة ما. في تلك الأثناء كانت مصر قد أنهكت من حراكها، فانشق الناس فيها بين مؤيد له ومعارض. رأى البعض في الأمر محض فوضى، أما آخرون فقد كانوا يؤكدون بقوة أنها ثورة، قام بها شباب على نظام لم يعد قادراً على تقديم أي شيء لمستقبل مصر. وبغض النظر عما هي فعلاً، فإن مصر لم تعد كما كانت في السابق. أما في سوريا، فقد دب الذعر من أول حراك قام به البعض. (كنت قد أنهيت محاضرتي للتو، وتوجهت إلى غرفة المدرسين في الجامعة عندما همس لي أحدهم وهو يبتسم فرحاً بما حدث. جمد الدم في عروقي. عرفت فوراً أن الأمر ليس ثورة، وإلا لانطلقت من حرم الجامعة أولاً، من صفي ومن بين طلابي، من عقول المفكرين وحكماء أمتي. أما الشتائم والسباب والشعارات المترجمة فوراءها ما وراءها. ومنذ تلك اللحظة تنامى بسرعة قصوى هذا الشرخ المهول بين الناس كمارد خرج من بحر هائج، ففلق الدنيا إلى نصفين. وتوالت الأحداث ككابوس يهجم كل ليلة؛ التفجيرات الدموية في دمشق، الدبابات في الشوارع، تسلح المعارضة، التدخل الأوروبي

الذي كان يهيىء لتلك اللحظة وينتظرها على أحر من الجمر، ظهور الائتلاف المعارض وبداية النزوح المؤلم، الدعم الدولي للمسلحين، انتشار الدمار في مناطق القتال، وجع الناس غير المحتمل، كل هذا كان يلفني وما زال كهالة القديس ويقض مضجعي ليل نهار).

وعادت (أميرة)، من خلال النافذة المطلة على أحد جبال لوس أنجلس البعيدة التي تقع وراء الطريق السريع، تتطلع إلى البيوت المتلألئة في الظلام والمرتاحة على السفح. (ترى من يقطن هناك؟ هل سمعوا بسوريا؟ كيف تتحدث الناس هنا عما يحدث عندنا؟ هل يصغون إلى أخبارنا ؟ هل يعرفون الحقيقة؟ هل أعرف أنا الحقيقة؟ الحقيقة.... الحقيقة.. الحقيقة... الحقيقة.. الحقيقة....! هذا عالم بطبقتين، بحقيقتين وربما أكثر. لكل منا نسخته عن الحقيقة. كل نسخة يضيف عليها صاحبها توابل من صنع يديه لزوم البقاء، بقائهُ هو. كل واحد يريدها على مقاس آلامه وأحلامه، وبحدة. إن الحقائق التي ليست على مقاسنا تقتلنا في لحظتها. فقط تلك التي من صنع أيدينا تجعلنا نستمر في الحياة، وإلا، كيف نزيّف كل ما يحصل حولنا بهذه القدرة المهولة على التصديق؟)

لقد لحقت (أميرة) حدسها الداخلي البدائي، الحدس الذي يقفز عادة فوق كل البراهين، الحدس العارف. لقد رفضت بكل ما لديها من أعصاب وقدرة روحية أن تجامل. ربما كانت تفعل أحياناً بدافع الحب والحنين، ولكنها بقيت ذات بأس قاهر قوي راغب في المعرفة والذهاب إلى الجذور. كانت كلما مالت قليلاً صوب تحليلاتها العاطفية، قام والدها بإيقاظها وتعديل مسارها قائلاً:

- نعم، الثورات تحصل. نعم يقوم بها الشعب. نعم هناك أسباب لحدوثها، ونعم لدينا من هذه الأسباب الكثير، ولكن ما يحدث الآن هنا أعقد بكثير من الادّعاء بأنها ثورة صافية قام بها ناس هذا البلد بدافع تغيير حياتهم. الأمور أعقد بكثير... الصراع على السلطة هو أيضاً جزء من كل ثورة شعبية. اقرئي التاريخ.

فجر لوس أنجلس خلاب، عليها أن تعترف بذلك. والقهوة التي تنقط قطرة قطرة من "الكوفي ماشين" تفوح رائحتها في كل أرجاء الشقة الصغيرة. هناك دفء ما بدأ يتسرب إلى هذا الصقيع حولها، دفء ما، لكن أين منه دفء القهوة في منزلها في القيمرية.

لقد كانت (أميرة) تستيقظ على صوت فيروز يصدح من راديو أم (علاء) الصغير في المطبخ. صوت ينشر الدعة والأمن في البيت كله. إنه صوت الاستقرار الذي كانت تعيشه سوريا قبل عام 2010. لقد صمتت فيروز خلال سنوات الحرب، ولكن الجميع يعرف في عمق قلبه أنها تصلي كل يوم لقيامة هذا البلد. إن وقفتها في ثمانينيات القرن الماضي على مسارح دمشق، بينما الشال الأسود يغطي رأسها، كرّسها قديسة من دون تطويب. (أما قديسو أمريكا فلا أحد يراهم. إنهم أصحاب البنوك، والقابضون على المال، والقابعون في مكاتبهم ذات الجدران العازلة للصوت. سوف لن أتخلى عن عمود نير الجواميس الثخين طالما أنا في هذا البلد، وسوف أستعمله بكل قوتي لعبور بوابات إمبراطورية الغبرة هذه!).

أخذت تقرأ البرنامج المعد لها، والموضوع على الطاولة أمامها في غرفة الجلوس من قبل مركز الدراسات. سوف يتركونها ترتاح في

اليوم الأول على هواها لكي تستعيد توازن فرق الوقت، ثم ستعود (كاثي) لتأخذها في صباح الاثنين إلى المركز، وهناك سوف تبدأ يومها الأول بالتعرف على موقعها، ورفاقها، وكل بقية الأمور الإدارية الأخرى. لقد تركوا لها أيضاً هاتفاً خليوياً لكي تستعمله محلياً، وكتبوا لها الرقم على ظهره مع ملاحظة عدم إمكانية القيام باتصالات دولية. أما الشقة فزودوها بخط "انترنت"، وهذا أمر شبه حتمي في كل منزل.

عادت (أميرة) لتستلقي مرة أخرى على أريكة غرفة الجلوس بعد أن أطفأت أنوار المنزل، بينما اخترق ضوء القمر المكتمل ظلام الغرفة، وما هي إلا دقائق قليلة حتى دخلت في غيبوبة ما قبل النوم العميق، فعادت الأفكار لكي تفور وتندلق حولها من جديد وهي ممددة تحت ثقل سهو صباحي لا يُقاوم. اقترب والدها من الأريكة الممدة عليها بكرسيه المتحرك. وقف لحظات يتأملها بحنان وحسرة كأنه يرى في بلورة سحرية أحداث الأيام القادمة. لقد كانت (أميرة) تتطلع إليه من دون أن تتمكن من الكلام، لكنها تشجعت وأمسكت يده وضغطت عليها بقوة لكنه بقي ساكناً يتطلع إليها بابتسامة خامدة. أرادت أن تسأله عن الشام، والحارة، والبيت، وعنه، لكنه ابتعد شيئاً فشيئاً، بعد أن أخذ معه فردة حذائها المرمية على الأرض ورحل. انتفضت (أميرة) من نومها وأخذت تتطلع حولها بخوف. لا أحد هناك. البيت فارغ، وهي بعيدة في لوس أنجلس، ولا شيء يقلق السكون سوى هرولة السيارات البعيدة على الطريق السريع.

السابعة صباحاً... الدنيا كلها أفاقت هنا بينما الظلام الخريفي يرخي ثقله على سوريا، والبرودة المبكرة بدأت تغزو ثنايا الشوارع الحزينة المدفونة بالحرب. يا هذا القلب، اركع ركعتين لهوى الشام الآن.. للتو.

عمود نير الجواميس

قضت (أميرة) اليوم الأول في لوس أنجلس تتجول على قدميها في شوارع "باسادينا"[2] الجميلة، حيث يقع المبنى الذي تقطن فيه. (لا يوحي منظر الناس هنا أنهم يعيشون في أقوى دولة في العالم. ربما يكمن السبب في بساطتهم، أزياؤهم المتواضعة العملية، أو ربما في هذا الشرود الحزين في نظراتهم، الله أعلم. لقد رأيت بأم عيني الكلاب المدللة في الشوارع ، حين تقف تريد أن تتأمل أو تتغوط، يقف صاحبها وينتظرها إلى أن تنتهي، حاملاً بيده كيساً من أجل لم فضلاتها. رأيت بأم عيني المتريضين بملابسهم الخفيفة، ونظارات الشمس، وهم مسرعون أو مهرولون بتؤدة في هدأة مناخ المدينة المعتدل الخلاب. رأيت بأم عيني البيوت البديعة المحاطة بالحدائق والأشجار المثمرة التي تسقط حباتها هنا وهناك من دون أن تمتد يد

(2) مدينة في ولاية كاليفورنيا الأمريكية وتعتبر ضمن مدن مقاطعة لوس أنجلس, وهي سادس أكبر مدينة فيها. فيها عدد كبير من منازل المؤسسات العلمية والثقافية، بما فيها معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا (جامعة كاليفورنيا التكنولوجية)، ومختبر الدفع النفاث (الرائدة في علم الإنسان الآلي وتصميم المركبات الفضائية)، ومركز الفنون في كلية التصميم، ومسرح باسادينا، ومدرسة فنون الطهي، ومتحف الفنون. كما يوجد فيها أشهر معالم المدينة ألا وهو ملعب "روسبول" العريق. تعتبر مدينة باسادينا من المدن التاريخية حيث تحتضن معظم المتاحف والمباني التاريخية.

أحد لالتقاطها، ورأيت كذلك أبنية المكاتب التي تشكل وسط البلد حيث يتجول حولها رجال ونساء بلباسهم الرسمي، وقد حملوا علب الغذاء الصغيرة أو أكواب القهوة وهم يقطعون الشارع. رأيت كل هذا النظام "المبكل" من أول نظرة. رأيت أيضاً المشردين يدفعون عرباتهم المحملة بأغراضهم، أغراض البؤس، ويفترشون "البارك" القريب من منزلي. أنا أعرف تناقضات هذا المجتمع كباطن كفي، فلقد درّستها لطلابي في جامعة دمشق، وفنّدت أسبابها وشرحت، واستفضت لسنوات، ولكن رؤيتها بالعين المجردة أمرٌ هيّجَ عبثية الدنيا حولي حتى طفت فوقها كمركب صغير فارغ).

كانت (أميرة) مثقلة بتأملاتها حين اقتربت من واجهة إحدى المكتبات وأخذت تقرأ العناوين الكثيرة عن الإرهاب والطبخ والتحسين الذاتي.

(تُرى ماذا يقولون عن طبخة الإرهاب؟ كيف يفلسفون هذا الأمر؟ ماذا يفعل قراء هذه الكتب؟ هل يتحركون؟ هل يفهمون؟ هل يقتنعون؟ كيف يمضون نهارهم وبعض الدول مشتعلة حولهم لكي يبقى أمنهم على أحسن ما يرام؟ ألا يعرفون أن الإرهاب يرتد على خالقه. هذا أمر حتمي، نظرية أدرّسها لطلابي. كيف لا يعرفها مفكروهم، أم أن فرط الثقة بقوتهم فاق كل عقل؟).

وأكملت أميرة تجوالها، بينما أخذ شعور قوي يتنامى داخلها؛ سوف تحتاج كل لحظة إلى عمود نير الجواميس خلال إقامتها في هذا البلد. سوف تحتاجه لكي تتمكن من اقتحام عالم يظن البعض أن بواباته ما هي إلا غلالات حرير شفافة، بينما في الواقع يلزم

المرء قوة دهرية لكي يتمكن من دخولها. سوف تتسلح بهذا العمود كل الوقت لتدك هذه الغلالات الرقيقة وتعبر. (قد يتطلب الأمر طي جناحي قليلاً، وقد يتطلب بعض الصمت، أو ربما شيئاً من ضبط النفس خلال العبور، وإخفاء الجذع تحت ثيابي. قد يتطلب الأمر ربما أكثر من هذا، لكني سوف أعبر. أمريكا نفق عليّ اجتيازه كباحثة زائرة. صحيح أني وقعت في حب المدينة من أول لحظة، لكن جزءاً مني موجوع، وأنا في لهفة إلى لحظة الشفاء. لأركن الحب جانباً الآن، فأنا لا أملك رفاهية الذين ينتظرون كلابهم لكي تبول، أو عابري الشوارع وقت الظهيرة، بينما تفوح رائحة الدجاج المقلي في كل مكان من مطاعم الوجبات السريعة. قطعاً إنها ليست "صدمة حضارية" ما أعاني منها، فأنا قدمت من أم الحضارات وأبيها، لكنها صدمة الاختلاف العنيف حيث ضُبط كل شيء بسلاسل القوانين الحديدية.

في سوريا، سلاسلنا أرفع، بل وقابلة للكسر بسهولة وفي أي وقت، بينما ما زال نظام الصرف الصحي في مدينة ماري الأثرية منذ آلاف السنين قبل الميلاد يعمل بشكل يفوق الجيد، وما زال النظام الدفاعي العسكري في قلعة الحصن الأثرية على حاله، استخدمه لاحقاً "ثوار" أرادوا تخصيب الربيع العربي بسفك دم الأهل والجيران. لقد عشت في وطن لا يؤمن بأن الوقاية هي أهم من العلاج، فلم يتوقّ، وعاش برعاية العناية الإلهية إلى يوم صحونا جميعاً على مرض من غير دواء.

منذ زمن طويل عرفت من يلعب هذا الدور البشع في دحرجتنا

جميعاً إلى أسفل السافلين، ويمرغ هذا الرأس الذي يتوق للأعلى في بركة الوحل هذه؛ إنه ليس الاستعمار، كما كانوا يقولون لنا، وليس طمع الآخرين بثرواتنا والخامات، وكذلك ليس نظامنا الاقتصادي الذي لا رب له؛ إنهُ عقلنا الخائف. نحن لا نجرؤ على التفكير، لا نجرؤ على المغامرة، لا نجرؤ على التجريب، لا نجرؤ على التعبير عما يعتمل في هذا القلب الذي ينوء بكل تناقضات وأسئلة الدنيا. لقد متنا منذ زمن بعيد، ولم يبق منا إلا جسد آلي وعقل غاف. انتهينا).

فاضل الهاشمي

حين دخلت (أميرة) المركز في اليوم التالي برفقة (كاثي) المبتسمة دائماً، كانت شبه متيقنة أنهُ تم قبولها في هذا التوقيت لغاية في نفس يعقوب، لكنها رغبت في التحدي. خمسة وأربعون عاماً في سوريا جعلتها تبدو مثل خروف مدبوغ في مؤخرته. (إنني مدبوغة بالانتماء. هذا أمر منته. قد أرعى لساعات في الحقول المجاورة، لكن ذلك فقط من أجل متعة التغيير ليس إلا، واكتشاف أماكن جديدة. لكنني أعود إلى مربطي مع بقية الخرفان المدبوغة بالانتماء والحب لأمضي الليل، ولأنهض في الصباح من أجل دورة جديدة للرعي والتزاوج والإنتاج. كنت دائماً حريصة على أن تكون الحقول المجاورة حقولاً صديقة. هكذا كنت أشعر بالأمان والتماسك، ليس بدافع التبعية أو الخوف وإنما لأن والدي علمني ألا أتمرد لمجرد التمرد. قال لي إن فعلت، فعلى هذا التمرد أن يتم ضمن أسوار حقلك، وبلغة تليق بفهمك، وثقافتك، وشغفك، ومن أجل سبب حقيقي يقلع العين). لكن (أميرة) اليوم، لن ترعى في حقل صديق بالمطلق، ولا حتى مجاور، وإنما هو الأكثر إشكالية وتعقيداً من بين كل الحقول التي رعت فيها سابقاً. إن الأعشاب هنا مبهرة بتنسيقها

وجمالها، ولكنها من دون طعم أو ذوق بالنسبة لها. وفوق هذا وذاك، هي لا تناسب أمعاءها أبداً. ولهذا، عليها أن تدقق البحث لكي تنتش عشبة من هنا، وأخرى من هناك يمكن أن تعينها على الاستمرار في العيش والعمل لفترة مؤقتة قادمة.

جعلتها (كاثي) المبتسمة اللبقة ترتاح في غرفة مدير المركز، بينما ينتهي من اجتماعه خلال دقائق. كان المكتب بسيطاً تغطي جدرانه الرفوف التي امتلأت بالكتب، والملفات، بينما بانَ علم الولايات المتحدة متدلياً بشكل جانبي من عمود برونزي في زاوية وراء طاولة المكتب العريضة. رائحة السجاد البني تصل أنفها، وصمت الاختلاف يتدفق منه بصخب، وهي بين نعاس فرق الوقت، وتماسك ليس في أوجه، كانت تتلمس طريقها بتؤدة في نفق خلبي لا يمكن وصفه.

دخل (فاضل الهاشمي) رئيس المركز إلى غرفة مكتبه مرحباً (بأميرة) بلكنة عراقية محسنة. لقد بدا في منتصف الستينات من عمره، ذا شعر كثيف أبيض وربطة عنق مرخية حول رقبته وسيجار غير مشتعل بين أصابعهِ. لقد هرب (فاضل) بقدرة قادر إلى الولايات المتحدة من ظلم الديكتاتورية كما ذكر في مذكراتهِ التي نُشرت في صحف عربية لاحقاً. لم يكن دخوله إلى هذه البلد سهلاً، فلقد كان عليه أن يمضي عاماً كاملاً في أحد المعتقلات في الصحراء قبل أن يجد طريقه إلى السفارة الأميركية عن طريق الصليب الأحمر الدولي. كان (فاضل) ذا ثقافة ماركسية صافية، يحلم بوطن على صورة أفكاره ومثالها، بعد أن أحبطت حياته ودمرتها الحروب اللانهائية والقتل

الكيفي. كان يردد أمام أصدقائه أنه لم يحلم أبداً أن يخرج من وطنه يوماً، خصوصاً إلى أمريكا الرأسمالية كما كان يسميها. لقد انتفض مع من انتفضوا في آذار عام 1991 بعد أن هُزمت العراق في حرب الكويت، وهكذا وجد نفسه معتقلاً وسط الكثبان الحارقة بعيداً عن الفرات. قال إنه كره الحروب الطائفية، والأحزاب الدينية، وكان مؤمناً بالدولة الوطنية العربية، لكنه اليوم توقف عن ذلك، بعد أن فشلت هذه الدولة في استرجاع فلسطين. قال أيضاً إن الإسلام السياسي ما صعد لولا اختناق اليسار والناصرية، وإنهُ ضد أسلمة الصراع، وإن مكانه هو بين المسيح، والحسين، والحلاج، ومانديلا. لكن الرجل ما إن دخل إلى أمريكا، حتى بدأت أحلامه تتساقط عنه مثل ورق الخريف، بينما بقيت النقمة المشوهة تلتهب في قلبه مثل النار تحت وهج الرماد. لم يقوَ (فاضل) على الزواج، فقد كان يدخل في علاقة مع امرأة أمريكية، ليخرج منها بعد أقل من شهر ويدخل في علاقة مع أخرى، وهكذا دواليك. لقد كانت النساء يُسئن فهمه حين كان يكب ما في داخله بعد كأس الويسكي الثانية، حيث يبدأ بالبكاء والغناء العراقي القديم، ثم بتلاوة قصائد حزينة عربية كتبها في المعتقل، تاركاً حبيبات الصدفة مصدومات وفي حالة ذهول. مع ذلك، استطاع التماسك عبر السنوات التي قضاها في الغربة، وتجميع ذاته والحصول على الدكتوراه من جامعة لوس أنجلس مشرعاً الباب بذلك على مصراعيه لكي تختلط أفكاره الأصلية بأخرى، وأن تُغربل، وتُهذب، وتُعاد صياغتها. وها هو اليوم ببزته الزرقاء الحريرية، متعدد العلاقات، يتقن جيداً كلمات المجاملة الأمريكية، وكذلك حركة اليدين والجسم المناسبة

معها. كثير الظهور على شاشات التلفزة العربية، ومنابر المؤتمرات، حيث يعرف جيداً كيف يلوح بقبضته المضمومة، ليكيل المديح "الربيع عربي" دموي، تاركاً ماركسية الأيام الغابرة تحتضر وراءه في باحات عقله الخارجية.

مد (فاضل) يداً واثقةً تجاه (أميرة) مرحّباً بها، ومطمئناً منها على أنها أخذت قسطاً جيداً من الراحة. قال لها إن جميع الباحثين في المركز هم "عرب أولاد عرب"، كل منهم يتحدث بلهجته الخاصة، "لكننا نفهم على بعضنا البعض جيداً"، وإنها سوف تلتقي بهم اليوم جميعاً في حلقة تعارف. أما الموظفون الإداريون فهم أمريكيون وأوروبيون وآسيويون، وهم "لا علاقة لهم بأبحاثنا".

قدم (فاضل) إلى (أميرة) ملفاً ثخيناً يحتوي على تعريف مسهب بالمركز وأهدافه ومواقع القوى فيه، وكذلك على تعريف بأهم الباحثين والعاملين فيه، والجامعات، والمؤسسات التي تتواصل معه في منطقة الشرق الأوسط. كان واضحاً من جنسيات الباحثين أن المركز قد حسم اتجاهه رغم إصراره على شعار الموضوعية. لكن (أميرة) سورية، وهي لا تقع ضمن الخانة التي يقف فيها بقية الباحثين. إذاً، ما العبرة؟ لربما أَخطأت هذه المرة، أو ربما لم تخطئ؟ الله أعلم! في آخر الملف، كان هناك ملحق مسهب عن سوريا، وعن برنامجها البحثي خلال السنتين القادمتين: "التنمية السياسية والأمنية في سوريا، كما عنونه كاتب الملحق، وطريقة إعادة بناء مؤسسات الدولة القادرة على البقاء، والخطوات اللازمة لتحقيق الاستقرار فيها". هذا هو المطلوب منها في الأيام القادمة.

(هل هذا البرنامج مزحة؟ الأمريكيون لا تفوتهم فائتة. إنهم يوظفون من يشبههم في الأفكار والميول. ألمْ يعرفوا من أنا، و كيف أفكر، وما هو رأيي بما يحدث في سوريا؟ على ماذا عولوا عندما قبلوا طلبي الآن بالذات، والذي قدمته إلى المركز قبل أن تندلع الحرب؟ وفوق هذا وذاك، ليست جامعة دمشق، جامعتي، من بين الجامعات التي يتعاون معها المركز. من أين سآتي بالإحصائيات الداعمة والأرقام والمسح الأرضي؟ من أين سآتي بكلام الناس، وأحلامهم، وأفكارهم، وتطلعاتهم، وآرائهم؟ هل المركز مستعد لكي يعرف كل الحقيقة؟ أليست هذه مهمتهم؟ إنهم يريدون أن يقدموا بحثاً عن إعادة الاستقرار السياسي في سوريا، وكأن الإرهاب المزروع في بلدي أتى من غامض علمه؟).

عرف (فاضل) بما تفكر به (أميرة) من نظرة واحدة إلى القلق الخفي في عينيها، وهي تقرأ بعض العناوين في الملف. قال لها بهدوء وحزم:

- السوريون منتشرون الآن في كل بقاع الدنيا... بإمكانك أن تتصلي بجمعيات أهلية.. نحن في الحقيقة لا نثق بالدولة السورية ولا بأرقامها.. أصلاً هذه الدولة لا تستعمل الأرقام.. إنهم يتكلون على الله (يضحك بسخرية).. لا تقلقي، هناك آلاف المصادر من أجل دراساتك الميدانية.. ستعثرين عليها كلها. أيضاً، من أجل الموضوعية لا غير، (يرفع إصبعه لمزيد من التوكيد)، يمكنك اللقاء بقيادات سورية في الخارج.. الأمر متاح.. هذه فرصة لك لكي تخرجي من القيود التي وضعها النظام والجامعة على عقولكم. لكننا

نثمن ذكاءك وتاريخك البحثي وموضوعيتك ونعرف أنه يمكن لك أن تقدمي عملاً هاماً يعكس الواقع في سوريا ونظامها السياسي.

كانت (أميرة) صامتة عندما كان (فاضل) يتكلم. وصلَ كلامه إلى أذنها، وكأنه كان يخرج من مكان ما عميق، وليس من فمه هو. لم تعرف إذا كان يرى تقطيب سوء الفهم على جبينها. لم تعرف إن كان يراها بكليتها أمامه! كان يبدو واثقاً مما يقول، جدياً ومقتنعاً. تطلعت إلى شعره المسرح جيداً، وربطة عنقه المرخية العريضة، وقميصه المكوي، فرأته وكأنه أحد موظفي "بنك أوف أميركا"، ممن يقطعون الشارع ظهراً، حاملين أكواب القهوة، وهم يحثون الخطا باتجاه مكاتبهم. (من هذا الرجل وكيف أصبح ما هو عليه؟ يهجر العرب المثقفون أوطانهم شباناً متمردين، ليستقروا في الدول التي جلبت المصائب لها!).

خرجت (أميرة) من غرفة الدكتور (فاضل) باتجاه مكتبها الجديد برفقة (كاثي) المبتسمة. لم يكن عمود نير الجواميس قد حان استعماله بعد، فها هي تتقدم شيئاً فشيئاً فوق السجاد الناعم، والأرضيات الخشبية النظيفة، بينما رائحة القهوة و"الكيك" المنبعث من زاوية في بهو المركز، تلف المكان فتشعرها بدوخة طفيفة، زاد من ضغطها إرهاق فرق الوقت الذي ما زال يفتك بجسدها الضئيل.

وعادت من جديد تقرأ بتركيز أكبر في الملف، وتفكر في كل جملة فيه، وما المقصود بها. (لقد دمروا البلد لكي يعيدوا بناءه الآن!! يريدون أن يدرسوا كيف يتحقق الاستقرار في سوريا وما المطلوب من أجل ذلك! غريب! ألم يفكروا أن الأمر يتم بوقف تمويل

جماعاتهم؟ أليس هذا الجواب البسيط والسريع هو البند الأول؟ ألم يستمعوا إلى تصريحات بعض مفكريهم، وبعض رجال الدولة الأمريكية حين اعترفوا "أننا نحن من أشعل كل هذه الفوضى في هذه الدول الربيعية، ونحن من ساعد في التمويل، ونحن من ترك الباب على غاربهِ لكل من هب ودب لكي يفلقوا الشام - وكل دولة تعتقد أنها قوية - إلى أجزاء وأقسام كثيرة. ألم يستمعوا إليهم يقولون إننا حين نريد تقسيم بلد ما فإننا نطلق إشاعة كبرى، أن هناك حرباً طائفية تفتك به ثم ننسحب لكي يقوم هؤلاء الأغبياء، على حد قولهم، بكل الباقي بما فيها التمويل؟؟؟).

وقررت (أميرة) أن تنطلق في بحثها مستندة على هذه النقاط من التفكير التي تعرفها، وتؤمن بها، وتلمسها لمس اليد، بينما كان تحفزها يشتد شيئاً فشيئاً، وكأنها على وشك الدخول في حرب، لا تعرف كيف ستبدأ ولا كيف ستنتهي. مرَّ وقت طويل وهي في مكتبها قبل أن تستأذن (كاثي) مرة أخرى بالدخول مبتسمة:

- بعد قليل سيكون هناك حفل تعارف صغير في بهو المركز، يقدمك فيه السيد المدير إلى بقية الزملاء. لا تتأخري.

تلمست (أميرة) عمود نير الجواميس بأصابعها القلقة، وهي تلحق (بكاثي) خارج الغرفة، ثم تقدمت في ممشى المركز الطويل باتجاه تجمع زملائها بينما كان يتناهى إلى مسامعها لهجات عربية متعددة، وضحكات مقتضبة قليلة، وهمهمة. لقد كانوا بانتظارها بكل ما لديهم من فضول وصبر وكذلك كانت هي.

حين وصلت إلى منتصف حلقتهم التفوا حولها مصافحين

ومرحبين. (شعرتُ للحال بأنني مخلوق فضائي هبط على كوكب غريب. إنهم يشبهونني، مع ذلك شعرت بغلالة تفصلني عنهم تتحرك أينما أتحرك. كأن هناك خطأ ما، خطأ أولي). هكذا شعرت وهي تتجول بينهم مادة يداً مترددة للمصافحة. لقد كان يقدمها (فاضل الهاشمي) بنفسه إلى الآخرين بطريقة احتفالية جعلتها تشعر بالدوار من جديد:

- دكتورة (ميساء)، من تونس. دكتور (إمام)، طبيب مصري ولكنه باحث أيضاً. دكتور (سام موريسون)، فلسطيني لبناني. والدكتور (حمد)، باحث وصاحب فضائل كثيرة على المركز.

التفت (فاضل) إلى (أميرة) مبتسماً:

- يعني لن تشعري بالوحدة حتى في أيام العطل. أغلب الزملاء يقطنون في نفس المبنى معك.

شعرت (أميرة) بهويتها تضغط عليها، وتعتصرها بقوة، وهي محاصرة بنظراتهم وابتساماتهم المجاملة. إنها تشبه نفسها فقط. تشبه الشام.

الهويات

حين صحت (أميرة) في اليوم التالي، كانت أوراق الملف مبعثرة بالقرب منها على السرير. لقد قضت وقتاً طويلاً تقرأ وتفكر وتدون الملاحظات حتى الرابعة صباحاً قبل أن تغرق في النوم عند انبلاج الفجر مستفيدة من الطاقة التي شعرت بها نتيجة فرق الوقت.

صباح لوس أنجلس يهجم مرة ثانية من النافذة الصغيرة. قلة النوم، وتقطعه، والتوهان الفكري الذي رأت نفسها فيه، جعلها راغبة في التريض المبكر. خرجت بسرعة وفي الحال قرصها البرد من خديها وأرنبة أنفها. كانت حرارة ذلك الصباح تصل إلى العشر درجات مئوية. أخذت تمشي بخطوات متسارعة في خط مستقيم كي لا تفقد أثر المنزل، فلا يغيب عن ناظريها تماماً كما البارحة. وما هي إلا دقائق حتى بدأت تستمع إلى لهاثها الخفيف ممزوجاً بخشخشة قبعتها القش التي كانت أطرافها تتهادى بخفة حول رأسها. مرة ثانية، رأت الكلاب تهرول بطاعة قرب متبنيها. وخالجها شعور أن هذا الكوكب كبير جداً، وأنها في الطرف الآخر منه تدور حول نفسها بعيدة عن الشام. وحدفتها قليلاً عن تفكيرها ابتسامات المتريضين، والمارين لها مع حركة خفيفة من الرأس كتحية. (يا الله... ماذا أفعل هنا!!).

حين عادت (أميرة) إلى المركز بعد ظهر ذلك اليوم كانت الشمس قد رجعت إلى ذروة قوتها وبدأت بالغليان، فخلع سكان المدينة ملابس الصباح الشتوية، ولبسوا السراويل القصيرة. لقد كانت (كاثي) خزان الأجوبة الذي تغرف منه (أميرة) متى شعت علامات الاستفهام حول رأسها كقرص شمس مبتسم. لقد بدأت تفهم يوماً بعد يوم طبيعة الدنيا حولها، وكيف عليها أن تتصرف. كانت الشمس اللاهبة المنسكبة بلا توقف فوق مركز الدراسات الواقع في منطقة شبه صحراوية خارج مدينة لوس أنجلس يشبه مأوىً حكومياً للمنفيين والمعتقلين. (لقد علق كعب حذائي مرات كثيرة في إسفلت الطريق وأنا أنتقل من مكتب إلى آخر حيث كان مسير بضعة أمتار قليلة كافياً لكي ينشف الماء في عروقي، وينهك جسمي. كنت أشعر أنني أحيا في أنبوبةِ اختبار شفافة أحشر معي فيها أمتعتي وكتبي، وعمود نير الجواميس، وأخبار الحرب على الشام التي تصلني وكأني مصفوعة للتو. الحقيقة، لم يكن عرب أمريكا عند أول قدومي جزءاً من عالمي. كنت أتخيلهم وأنا في سوريا كأناس تماهت ملامحهم بملامح البلد، وطاب لهم الهوى فيها، ولم تعد العودة تشكل هاجساً محدداً لأي منهم، الأمر الذي كنت فيه على خطأ جسيم. لقد عرفت أن العيش ها هنا ليس نزهة، ولا مكاناً للرحمة في قلب نظام ضبطته بقسوة قوانين صارمة، وعقوبات قد تمسح بلمحة تعب وشقاء سنوات طويلة من حياة المرء فيه. النظام هنا ليس مبنياً على حسن النية، فأي غلطة قد تكلف هذا البلد الكبير الكثير من أمنه واستقراره، لهذا كان كل شيء مفتوحاً أمام رقابة هذه الدولة، وذلك على عكس ما يشاع عنها بشكل عام. كأن الحياة هنا ليست طيبة القلب

ومتسامحة مثل الوطن! أصبحت ألبس فستان الأسئلة كل صباح في هذا البلد. أسئلة كثيرة تفور وتتسكب حولي مثل رغوة الصابون. كثيراً ما كنت أفكر أن علي ترك الأمور لكي تسير على هواها، لكن ما إن يطلع الصبح، حتى أبدأ بالاستماع إلى صوتي الداخلي يكتب قصة الدنيا، قصتي أنا والآخرين والمكان الذي يحتويني. هكذا مرت علي ثلاث سنوات كثيفة بضغطها النفسي وفرحها ومفاجآتها التي سأرويها لاحقاً. كل يوم قضيته في هذه المدينة كان يشعرني بذنب لجرم لم أعرف ما هو، كأن مجرد وجودي فيها من الكبائر. كل يوم كنت أقوم بأشياء، وأتفوه بكلمات لأخفف من حدة هذا الشعور وأبرره، وكأني أقف أمام محكمة وهمية من صنع خيالي المرهق. لقد تعبت كثيراً من التبرير لنفسي وكأن الكل يشير إلي بإصبعه. لماذا أشعر بأني "آرتيست" تنهي حياتها الصاخبة وراء الحجاب وفي أداء العمرة؟ فيما مضى، كان هناك إيمان خفي في قلبي أسسه بقوة هذا الفهم "للرهان الباسكالي" الذي قرأته وأنا في الثامنة عشر من عمري: "آمن بالله، فإن كان موجوداً، فهذا أمر جيد، وإن لم يكن موجوداً، فلن تخسر شيئاً". لكن هذا الإيمان اليوم ليس واضحاً كما كان في السابق، وإنما تحول إلى حالة ثقافية بحتة فيها من النفاق ما يكفي، ومن الصدق ما يكفي، وأنا بين الاثنين أتأرجح. مع ذلك، فليس هذا همي اليوم. ما يهمني هو تعدد الهويات، هوياتي أنا؛ هذه المئة امرأة التي كنتها، والتي أكونها، الواحدة تلو الأخرى في حلقة لا تنتهي، وكأني "مفلوشة" على خطي الزمني. إنني أحيا بمئات الذاكرات بكل حوادثها وثقافاتها وميولها. لقد عثرت على ضالتي في هذا الفهم الاستثنائي للروح، فهو سوف يخفف

عني من الآن وصاعداً هذا الإحساس بالذنب الذي لا مبرر له. مع ذلك، سوف ألبس أسئلتي مثل جلدي، سوف ألبسها كحلي احتفالية، وأنتظر الفرج).

* * *

بعد مرور شهر على وجود (أميرة) في لوس أنجلس، أصبحت تعرف الجميع كباطن كفها (ليس بسبب ذكائي المفرط ولا مقدراتي على الحوار والمجاملة، وإنما لأن الكل كان بحاجة لأحدٍ لكي يكب أمامه ما بنفسه من وجع).

وفي يوم، سمعتْ صخباً وجلبة في بهو المبنى الذي تقطن فيه، والموصل إلى الشقق.

(كأن رجلاً طُرد من البيت المجاور لبيتي تماماً وصفق الباب خلفه. سمعته يشتم بالعربية وهو يضرب على الباب: "اسمعيني سأقولها لك للمرة الأولى. أنت عاهرة.. كان علي أن أتوقع هذا منك... اذهبي إلى الجحيم"، ثم رحل. لكن ما إن وصل إلى نهاية البهو حتى خرجت امرأة من تلك الشقة ثم أخذت تكيل الشتائم له، وما لبثت أن انهارت على الأرض باكية. فتحت بابي على مهل ورأيت ما صعقني. كانت امرأة في بداية الخمسين من عمرها، بدينة، بنية الشعر بيضاء البشرة تجلس أمام باب شقتها وتنتحب بينما ماع الكحل الأسود وسال فوق خديها المتورمين. اقتربت منها وقلت بالعربية: أتمنى أن تكوني بخير. هل أنت بحاجة إلى أي شيء؟ تطلعت إلي، ثم انهارت في موجة بكاء جديدة. جلبت لها كوب ماء من مطبخي، وساعدتها على النهوض، ثم دعوتها إلى شقتي لترتاح.

حين جلست مقابلي على الأريكة الطويلة رأيت ملامح امرأة جميلة، لكنها مفرطة التبرج. كان شعرها المجعد البني المائل للحمرة في حالة فوضى، وكذلك ثيابها التي كانت تظهر أكثر مما تخفي خصوصاً صدرها العارم شبه العاري.

أخذت تحدثني من دون مقدمات عن نفسها. قالت إن اسمها (مرام)، وهي من دمشق. كانت متزوجة من رجل "واصل" وأماً لطفلين منذ عشرين عاماً. كانت علاقتها وزوجها بالطبقة المتنفذة قوية فكانوا يتبادلون الزيارات العائلية، والحفلات المستمرة، وأعياد الميلاد.

في إحدى المرات، وهي في المطبخ تعد العشاء لضيوفها، دخل عليها زوج صديقتها فجأة، وأخذ يبث لواعجه ويحاول تقبيلها. لقد اعترفت أنها كانت امرأة جميلة من الصعب لأحد أن يقاوم إغراءها، وإنها كانت تحب الثياب المثيرة والحلي الضخمة والعطور القوية، ولكنها كانت وفية لزوجها كما أقسمت. مع ذلك، بعد تلك الحادثة، قالت إن زوجها لم يبقها في المنزل ليلةً واحدة أخرى، فطلقها ثلاث طلقات بائدة لا رجعة فيها، وفوق هذا وذاك، حرمها من طفليها، وهما ما زالا في السابعة والثامنة من عمريهما، الأمر الذي قررت على أثره أن ترحل إلى الولايات المتحدة، تاركةً كل شيء وراءها. حين وصلت إلى هنا حصلت على الإقامة بسبب إيداعها مبلغاً كبيراً من المال في البنك، وشراء وإدارة مطعم صغير للأكل "الشرق أوسطي" الذي، من دون توقعها، فتح لها الباب على مصراعيه لكي تتعرف على عرب تلك البلاد، أقصد رجالهم، وأن تتحول إلى امرأة تبحث عن الحب والأمان بطرقها الخاصة المؤلمة.

لو كنا أنا و(مرام) في هذه اللحظة في سوريا لكان من المستحيل لنا أن نلتقي. أما هنا، فالتناقضات تقرع بابك وتزحف لتلامس أطراف قدميك. حين أنهت كلامها وشربت كأس الماء كله دفعة واحدة، رفعت كميها ونهضت تريد توديعي فبانت فجأة حول معصمها الأيمن، إسوارة مطاطية رُسِم عليها علمُ "الثورة السورية" بنجومه الحمراء. ارتعد قلبي، وشعرتُ بشيءٍ من الدوار. كأنني تجاوزت حداً ليس علي أن أتجاوزه، أو كأنني خنت حبيباً تحت الشمس. حين أوصلتها إلى باب الشقة، شكرتني وقالت إنها ارتاحت لي كثيراً، وإنها تتمنى أن نكون أصدقاء. هززت رأسي ثم أغلقت الباب وراءها. شممت رائحة عطرها الثقيل في منزلي بعد أن خرجت. فتحت النوافذ كلها حتى منتصف الليل لكي تهرب الرائحة، ولكن شيئاً طفيفاً منها بقي عالقاً في فضاء المنزل.

غريب! كنت أنتظر أن تهبط علي هبة القص المباركة وأنا بعيدة عن سوريا التي تغلي في مرجل حروبها الأخيرة. قلت في نفسي لربما مال قلمي قليلاً جهة القص وبعيداً عن البحث، فأكتب ما احتقنت به كل تلك السنوات الماضية. لكن من وراء زجاج نافذة بيتي التي تطل من بعيد على الطريق السريع، كنت أتطلع كل يوم إلى عالم مارق لا يرحم؛ عالم بهي يعد بالكثير ولكنه في آخر النهار يدير لك ظهره وينام، ويقتل رغباتك في مهدها. في البداية كان شوقي إلى الأماكن "هناك، في الشام" لا يهدأ. كنت أقول في نفسي: زبالة أزقتنا أحلى من كل ناطحات سحابهم، وكراسي العجائز القديمة أمام البيوت المشرعة على الشمس أكثر حناناً من المكتبات

المفروشة المدفأة التي طالما عشقت، والدرب من بيتنا إلى بيت جدي أكثر أماناً من طرقاتهم المحروسة بالكاميرات الخفية لزوم الطوارىء، إلى أن بدأت ذاكرتي تتعطل وتخذلني في منتصف الطريق، فأبذل جهداً خرافياً لكي أتذكر مكان الأشياء في مطبخ بيتي في القيمرية، بل وحتى أسماء بعض الجيران الذين عشت معهم طوال حياتي. إذا أنا هنا، وفي هذا التوقيت بالذات، في أمريكا وفي قلب هذا النظام الذي يشبه تشابك الخيوط الواهية الشاحبة اللون من الخارج، ولكن حالما تقع فيه، لا يمكن لك أن تخرج أبداً من فخه بسبب صلابة سلاسله المعدنية).

إمام الإسكندراني

أصبح (لأميرة) روتين يومي تمشي عليه عدا أيام العطل التي تقضيها في المكتبات. كان بعض زملائها في المركز يترددون إليها خصوصاً الدكتور المصري (إمام). لقد وعدها أن يساعدها في بحثها، وقال إنه يستطيع أن يفهم وجهة نظرها أكثر من غيره فهو ناصري كان وما زال، وإن مصر وسوريا وجدا لكي يكونا دولة واحدة. دعاها مرة إلى مقهى "ستاربكس" بعد أن خرجا معاً من المركز، وهناك استمعت إلى سمفونية شخصية أخرى باللهجة المصرية.

(جعلتني أشعر بأنني أستمع إلى أغنية "لعبد الحليم حافظ"، أو إلى "مونولوج" في أحد الأفلام المصرية القديمة بالأسود والأبيض. كانت طبقة صوته، وشكل حاجبيه المائلين، وتغضن جبهته وهو يتحدث، تشعرني بضعف وتعاطف ما لا أعرف مصدره).

عرف الدكتور (إمام) معضلة (أميرة) بالنسبة للملف الذي تعمل عليه وفهم، كما أوحى لها، كل كلمة قالتها وانتبه لكل قلق في عينيها. قال لها إنه ذهب في طريق قد لا يمكن العودة منه، مع ذلك، فها هو يحاول أن يحافظ على اعتداله وعلى ناصريته. حين

رغبت في فهم ما يقصد، تطلع حوله وخفض صوته، وقال لها سأحكي لك قصتي.

قدم (إمام) مع زوجته وابنته من مصر لكي يكمل تخصصه في أمراض الدم ويحصل على الدكتوراة من جامعة لوس أنجلس. بعد سنة على وجودهما في هذه المدينة، توترت العلاقة بينه وبين زوجته التي عثرت على عملٍ بعد وقت قصير من وصولهما، بينما بقي هو في المنزل يدرس من أجل فحص التخصص الأخير.

أصبح (إمام) عصبياً ذا مزاجٍ نزق كلما شعر أن عليه أخذ المال من زوجته لكي يصرف. أما رسوبه المتكرر في الفحص الأخير، فشكل سبباً إضافياً للمشاحنات اليومية، فقرر ترك المحاولة وأخذ يبحث عن عمل، أي عمل. اشتغل بائعاً للملابس في متجر (ميسيز) الشهير، ثم عامل توصيل للبيتزا على دراجة نارية صغيرة، وكذلك عامل أمن في شركة خاصة. أكمل خمسة أعوام من حياته الزوجية في أمريكا "بالعافية"، كما قال.

وفي يوم، يصل إلى منزله عائداً من عمله، فيعثر على رسالة صغيرة من زوجته. لقد رحلت إلى مكان مجهول وأخذت ابنته، ابنة الثلاثة عشر ربيعاً معها. اعتكف (إمام) في منزله لأيام كثيرة لا يخرج، ولا يأكل، ولا يرد على هاتفه النقال، فتم طرده من العمل. كان يشعر أنه ميت كما قال، ولم يعد يرى معنى في حياته. نام في سيارته العتيقة لمدة شهر بعد أن عجز عن دفع إيجار المنزل، بينما كانت مصر قد بدأت تنام وتغفو على الحشود تهدر في الشوارع. حين صرف آخر "سنت" في جيبه، اتصل بأحد أصدقائه

الإسكندرانيين الذي ساعده لكي يجد عملاً، وليعيد له ثقته بنفسه بعد أن اكتشف مقالات بقلمه على طاولة في غرفة نومه، قال عنها إنها كنز مخبوء. هكذا عاد (إمام) إلى الحياة شيئاً فشيئاً، فكان يقضي النهار في العمل، والليل في الكتابة التي تورط فيها بشغف وحمية كبيرين. لقد ساعده "الفيس بوك" و"الإنترنت" على نشر مقالاته، والتواصل مع أهم الصحف ودور النشر، إلى درجة أصبحت بعض محطات التلفزة تطلبه لكي يقدم تحليلاته حول ما يحدث في مصر، وبقية الدول الأخرى التي ضربها زلزال الربيع العربي. أما عمله في المركز، فأتى على طبقٍ من ذهب بعد أن لمع اسمه، وانتشر مثل النار في الهشيم. قال الدكتور (إمام) (لأميرة) إنه لم يساوم، وإنما كان يقول رأيه دائماً من دون زيادة أو نقصان، حتى عندما لم يكن في جيبه دولار واحد.

(أثرت قصة (إمام) بي. لقد رأيت بؤبؤي عينيه يرتجفان رجفة خفيفة حينما كان يقص علي كيف كان متمسكاً بموقفه إلى آخر لحظة. ربما كان الرجل صادقاً، لكني لم أفهم كيف بقي ناصرياً إلى الآن. لقد قال لي إنه يحلم بالعودة إلى مصر وفي أقرب وقت لأن مكانه هناك، لكن عليه أن يعثر على ابنته وزوجته أولاً. لقد أخرج صورتيهما من جيبه مرات كثيرة وهو يتحدث، ماسحاً بأصابعه على وجهيهما بحنان. كأنه غفر لهما بعد كل هذه السنوات، هامساً لنفسه "جل من لا يخطئ.. هذه البلد تجعل العاقل مجنوناً". الواقع، لقد شعرت بشيء من الأخوة تجمعني به، وكأنه أحد أفراد عائلتي. قلت في نفسي، لمَ علي أن أدينه، فهذا البلد يجعل كلَّ ابن عربٍ يدفع

مقدماً ثمن حياته وآخرته فيه من قسوة الغربة، ويذبحُ الأحلام في مهدها. يقرر العربي أن الغربة صعبة، وأنه مختلف عن محيطه، وهكذا يقضي الوقت بانتظار الفرج لكي يأتي من الدنيا حوله، وبهذا يتحول إلى قاتل رومانسي لنفسه، بأكثر الطرق استنزافاً وكآبة. غريب! يقتل العربي نفسه بلذة، ليس لأنه ولد على هذه الشاكلة أو لفطرة في نفسه، و لكن لأنه تعلم أن لا يفكر بشكل حر، وينضج من تعلمه من الحياة. ذبحته قلة الحرية، فما إن يبتعد عن وطنه، ويتغرب، ويضيع في أفق الوطن البديل الأرحب، حتى تراه تاه متزحلقاً فوق صقيعه كراقص على الجليد. لقد رأيت هذا العربي في الدكتور (إمام)، رأيته منكسراً، ومستسلماً فيه كرجل، على الرغم من نجاحه وصِيتهِ الكبيرين. لقد ردد كلمة "الحمد لله" و"ربنا" عشرات المرات خلال نصف ساعة من حديثنا، لدرجة خِلتُ أنني أستمع إلى خطبة شيخ في صلاة العيد. أما أنا، شبيهته في الدين وليس العقيدة، فكنت أقدرُ الإسلام المعتدل الذي نشأتُ عليه في كنف والدٍ شاعر، ووطنٍ ترك لي مساحة معقولة من حرية التفكير. إنني لا أردد كثيراً كلمة "الله" في كلامي، ولا أستعمل عبارات التوكل كما يفعل هو، ولكني أعرف أنني حسمت أمري على أن هناك خالقاً لهذا الكون، وأن الباقي لم يكن هاجسي).

ترك تفهم الدكتور (إمام) لما يحدث في سوريا، مع ذلك، أثراً طيباً في نفس (أميرة). لقد قال لها إنه مقتنع أن في الأمر "إنَّ"، وأنها ليست ثورة صافية قام بها الشعب، وإن كان هناك الكثير من الأسباب لكي تقوم ثورة في سوريا كما كان يصر، كل برهة خلال

حديثه. تركته (أميرة) يستطرد في الأسباب الأخرى، واكتفت بعبارة أنها ليست ثورة صافية، فقصر النظر أفضل من العمى الكامل بالنسبة لها.

(- إذاً دعني أركز على تقديرك أنها ليست ثورة صافية، وأن هناك أمراً ما أعد لتدمير سوريا، وسأكون ممتنة لو ساعدتني انطلاقاً من هذه الرؤية.

- سأفعل كل ما بوسعي ولكن أنت أيضاً، بالمقابل، ليكن صدرك رحباً، فليست كل الأحذية على مقاسنا).

تطلعت (أميرة) إلى حذاء الدكتور (إمام) بطرف عينها من دون إرادة منها، فوجدت أن واحدة منهما أكبر حجماً من الثانية، وكذلك هناك اختلاف في ألوان جوربيه.

رف سرب طيور بجناحيه بقوة فوقها وطار تاركاً حفنة متناثرة من رمل قمري فوق رأسها. هذه رمال الشام المقدسة، عبقها المجروح، وأنفاس الراقدين على الجمر فيها، حتى يزهر الصوان.

صرة واحدة مزركشة

(راحت تلك الرهبة الأولية التي كانت تربكني عندما كنت أتحدث إلى الآخرين هنا. كنت أستمع كثيراً ولا أعرف تماماً بماذا علي أن أرد. كان الجميع تقريباً يتحركون، كما بدا لي، في مساحة نفسية أكبر مما اعتدت في سوريا. كأن أمريكا تقدم لك فضاءً واسعاً رحباً لكي تتدلل فيه، وفي الوقت التي تشاء، تقول لك: مكانك! لقد تجاوزت الخطوط الحمراء، ادفع الثمن. لقد عرفت بحدسي أن هذا الملعب الكبير الفسيح الذي يصول ويجول فيه الجميع هنا، هو قليل العمق، ضحل. لماذا على نظامٍ يحارب كل شعوب الأرض، أن يفهم دوافع شعبه؟ لقد عرفت هذا أيضاً من خلال عملي في المركز حين كنت أصطدم في كل مرة بحاجزٍ لم أكن أتوقع وجوده، وتوقيته، فأرتد إلى زاوية أقل مساحة، فأقل، فأقل، إلى أن أنفذ ما يجب أن يقوم به كل فرد في هذا البلد الليبرالي: أي أن تكون غير خطيرٍ على الأمن القومي.

انتبهَ الدكتور (فاضل)، مدير المركز إلى صداقتي مع (إمام). لقد رآنا عدة مرات نتحدث باهتمام في كافيتريا المركز، ونثرثر حول ما يحدث في بلداننا التي أكلها الربيع العربي مثل جراد هجم على حقل أخضر. لقد رآنا أيضاً في غرف مكتبنا نعمل معاً على ملفاتنا،

وأبحاثنا، ونتبادل وجهات النظر من دون توقف. كأنه شعر بخطر ما! كأنه حنَّ إلى زمن ما! كأنه كره نفسه، في لحظة هاربة، بسبب هذا التمثيل المستمر الكاذب! لقد كابر كثيراً خلال سنوات حياته في أمريكا، لدرجة نسي فيها رائحة عرقه الذي كان ينفث منه في صحراء الهروب بعد حرب الخليج، وكأنها دخان يتمايل صاعداً فوق تلال صغيرة متباعدة من القش في حقل فسيح، وإلا ما تفسير هذا الغضب الفجائي الذي كان يصب جامه على رأس أول شخص يصادفه، ومن دون سبب مبرر أحياناً، إذا لم تكن هذه الصور العنيدة القاهرة التي تعبر فكره من آن إلى آخر؟ صداقتي مع (إمام) كانت واحدة من الأمور الجديدة التي أُضيفت إلى مجموعة الأفكار التي يهرب منها (فاضل) مثل الممسوس، إما بالشرب حتى الانطفاء، أو البكاء على صدور الأمريكيات العابرات، وإلقاء قصائد نبطية يرتجلها في لحظتها، وذلك متى فتك السكر به، وقرص مكان وجعه. أشعر أنني أفهمه كباطن كفي، وأفهم هذا الجنون الفجائي الذي ينتابه، والذي يتناقض مع كل كياسة يريد أن يبديها لمحدثه. لقد حاولت مراراً، خلال لقاءاتنا في مكتبه، أن أنفذ إلى أحد الأبواب الموارية في عقله، فأتحدث عن الوطن، لكن كان سرعان ما يغير الحديث مقطباً، وكأني أصب ملحاً حارقاً فوق جرح طري. لقد قرأت العديد من المقالات والتحليلات التي كتبها عما يحدث في أوطاننا، ولقد هالني التناقض الكبير في أفكارٍ أرادها أن تعبر عن شخصيته الجديدة، فأتت تماماً صورة عن تمزق خفي لا آخر له، لروحه التي كانت تدور حول نفسها مثل حجر الطاحون.

لقد ضعضعت هذه الثورات العربية الكل فجمعت التناقضات كلها في صرة واحدة مزركشة، وهكذا بان الترقيع في أفكار الجميع. حتى (إمام) الناصري، هلّلَ لصعود الإخوان المسلمين إلى السلطة، مردداً أنه ليس متطرفاً، ولكن لا مانع لديه من أن تأتي الثورة بأي كان إذا كانت هذه إرادة الشعب، حتى لو كان "أبو رجل مسلوخة" على حد قوله. ليست هذه نقطة خلافي الوحيدة مع (إمام)، لكنني كنت آمل أن تظهر يوماً ما قطع الأحجية الناقصة أمامه، فيضعها في مكانها، وتكتمل الصورة أكثر أمام ناظريه ويرتاح، كما اتضحت أمام ناظري بشكل كبير).

* * *

استطاعت (أميرة) أن تبقي على علاقة متوازنة مع كل من عرفتهم إلى تلك اللحظة، بما فيهم (مرام)، جارتها في المبنى الذي تقطن فيه، على الرغم من أن صورة السوار المطاطي "للثورة السورية" بنجومها الحمراء لم تفارق خيالها، وذلك كلما تمددت، أو خلت لنفسها، أو سمحت لشريط الكوميديا السوداء هذا أن يدور من جديد في كل مرة ترتخي فيها قواها العقلية، وتضعف مقاومتها، ويحدث هذا كثيراً معها في لحظات ما قبل الغرق في النوم، حيث يتدفق كل ما في عقلها، ويفور، وينسكب حول رأسها مثل شلال صغير؛ أعلام بنجوم حمراء، وأخرى سوداء عليها شعارات إسلامية، قنابل وصواريخ تنفجر هنا وهناك، لاجئون يلفظهم البحر على شواطئ بعيدة، ودولة تتماسك بقدرة قادر في يمٍّ متلاطم الأمواج ليس له بداية وليس له نهاية. لقد كانت تتصل بوالدها كل يوم لتسمع منه

أنـه بخيـر، متجنبـة، فـي أغلـب الأحيـان، الحـديث حـول مـا يحـدث، ومكتفية بالسلام، وبث عبارات الحنين والاطمئنان:

- أنـا بخيـر لا تقلـق علـي... أحـاول أن أعتـاد.. أنـت تعـرف صعوبة الأمر خصوصاً هذه الأيام...

- أعرف.. أعرف...

- انتبه لنفسك...

- ... (تنهيدة طويلة)... وأنتِ أيضاً يا حبيبتي.

تغلق عينيها بعد كل اتصال، وتذهب بين أزقة القيمرية باتجاه الجامع الأموي، حيث الحَمَامُ يدلُ على المكان المقدس، وكذلك رائحة الياسمين الذكية. هناك، في هذه الباحات الصغيرة الحميمة، كانت تجلس بعد كل تعب من عملها وتهدأ. وبدلاً من هذا الاستحضار الممتع للمكان، ها هي صور القذائف المنسكبة فوق هيبة الشام، والتي تدك حجارة تاريخها، لا تبرح مخيلتها.

(لو أستطيع أن أفك الحجر عن الحجر، وأغسل وطني كله، وأعطره بطيوب قديمة. لو أستطيع أن أتحول إلى مكبر للصوت، وأصرخ بكل قوتي: إننا نعرف هذه اللعبة منذ الأزل ونفهمها، نعرف الغش المغلف بالخوف علينا، والكذب المرصع بالقسم، والحقد المختبئ وراء كلمات الحب المبتذلة. نحن نعرف).

لكن الأيام لا تمر متشابهة في لوس أنجلس، وهذا الحبل الرفيع الذي يصل القيمرية بدولة كولومبوس كان يشتد ويقوى بحسب هبوب الريح، ورائحة الحنين المحترق. فبعد ستة شهور على وجود (أميرة) في هذا البلد، تورطت أكثر فأكثر في حياة كل زملائها العرب في

المركز، وعرفت الكثير عنهم. لقد رحلت كل الانطباعات القديمة، وحل محلها الواقع، فسقطت الكثير من الهالات حول البعض، وتشكلت أخرى حول أناس ظننت أنها من المستحيل أن توليهم ذرةَ اهتمام.

(صحوتُ في السابعة صباحاً على قرعٍ ناعم من دون توقف على باب شقتي، كأن نقار الخشب يفتك به. نظرت من عدسة الباب، فرأيت وجه (مرام) يقترب ويبتعد من بؤرتها. حررتُ السلسلة المعدنية وفتحت.

- آسفة لأني أيقظتك... الحقيقة لم أستطع أن أنام.. أشعر بالوحدة.. أريدُ أن أتحدث مع أحد ما... قلتُ لنفسي إنك ربما مستيقظة .. أقصد.. ربما..!

- أهلاً وسهلاً تفضلي.. لا بأس.. أنا أصحو باكراً في كل الأحوال.

أدارت (مرام) عينيها شبه المكحلتين حول المنزل متهادية بثوب نومها الاحتفالي الأصفر، وهزت رأسها:

- أموت لو لم يكن في المنزل تحفٌ وثريَّات قيمة. أنا أحب الأثاث المُطعمْ بالذهب، واللوحات الجميلة، والتحف الغالية.. لا أستطيع العيش في منزلٍ ليس فيه كل هذا. بيتي في الشام كان على هذه الشاكلة، وحين أتيت إلى هنا، كان علي أن أبحث عن أثاث مماثل... أرتاح نفسياً بين المقتنيات الغالية. أنت بيتك بسيط جداً... اطلبي "منهم" أن يغيروا الأثاث والستائر... تدللي "عليهم".

- منهم...!!

- هل لديك صديق في الشام؟؟

- لدي أصدقاء..

- (تغمز بطرف عينها).. أقصد صديقةً خاصلً بك.. فهمت علي!

- والله هذه الحرب على سوريا لم تبقِ لنا قدرة على العيش..!

- آه.. أرجوك يا (أميرة)، لنبتعد عن هذا الموضوع.. لا أريد أن أفكر بما يحصل هناك... إنهم يقصفون الأطفال "بالبراميل المتفجرة". يا حرام!

لم أرد بالمطلق أن أدخل في مثل هذا الحديث مع (مرام) في الصباح الباكر. قلت في نفسي لن أغير قيد أنملة فيها. إن هذه المرأة تعيش خارج الزمن، وأناأقف تماماً في حضن اللحظة الحاضرة، وبكامل قوا العقلية.إذاً ، لَم إنهاك العقل معها بالنقاش!

لكنها أكملت:

- أعرف أنك من طرف "النظام"..!!

- سأحضر القهوة...

رن هاتف (مرام) النقال بينما كنت في مطبخي أنتظر قطرات القهوة التي تتساقط في الإبريق الزجاجي. أخذت تتحدث بنبرة صوتٍ لم آلفها فيها:

- حبيبتي.. يا عمري.. كيفك يا ماما... أنا اشتقتلك كتير يا حبيبة أمك... أنا ناطرتك يا روحي... تعالي بس شهر.. أنا مستعدة بوس رجلين أبوكِ.. خليه يبعتك لعندي شهر بس..!!

عندما عدت، كانت (مرام) تبكي بدموع حارقة. قالت لي إن والد

ابنتها لا يريد أن يسمع باسمها، ولا أن يرسل ابنته إلى بلد يدمر سوريا مع كل طالع شمس، كما يردد. إن زوجها السابق ليس موالياً فقط، وإنما يحتلُّ الآن منصباً أمنياً أرفع مما كان لديه في السابق. أما ابنها وابنتها فيقفان على نفس أرضية الوالد، وهما منخرطان في كل جمعية أو مؤسسة ظهرت خلال الحرب، تساعد جرحى الجيش وعائلاتهم.

- تصوري إلى أي درك وصل أولادي من غسل الدماغ.. تصوري!

ما زال كوبا القهوة في يدي، بينما أقف صامتة أتفرج على مسرح العبث الفالت من عقاله أمامي.

- أتمنى أن تجتمعي مع أولادك قريباً...!

وضعت الكوبين جانباً، وجلستُ وأنا أصغي إلى نحيب (مرام) المتقطع وبكائها السخي. لكنها ما لبثت أن مسحت دموعها، ورفعت شعرها، وأخذت فنجانها وهي تتمتم:

- سأعود يوماً إلى الشام يا (فراس) الكلب وسنرى حينها من يكون على حق!

لم أستطع أن أتفوه بكلمة، ولا حتى المجاملة. وفي كل الأحوال لم تترك لي (مرام) مجالاً للحديث، حتى لو أردت. نهضتْ بعد أن شربتْ قهوتَها.

- أنا آسفة لأني أيقظتك وأزعجتك هذا الصباح... سأودعك الآن.. سأغيب شهراً... أراك بخير.

أغلقت الباب على الدنيا كلها وراء (مرام). أغلقته على الشام

وياسمينها، على العيش ودَعَتِهِ، على بحبوحة الدنيا وكرمها، على كل حلاوة كانت ترتعش في قلبي فيما مضى في وطني. هذه امرأة من بلادي أنهكتها أحزانها، وميولها، وشغفها بينما عششت العناكب والغبار في أنوثتها، وانسال وطنها من قبضتها مثل رمال ناعمة).

سام موريسون

(استيقظت الشام صباح اليوم على مئة قذيفة هاون، جعلتها تهتز من رأسها حتى أخمص قدميها، بينما أكمل "التكفيريون" رحلة الموت في بقية المدن. عرفت هذه الأخبار من الإنترنت قبل أن أترك مكتبي في وقت متأخر. كان كل زملائي قد غادروا في السادسة مساءً وبقيت لوحدي أعمل. حتى الدكتور (إمام) غادر أبكر من المعتاد، معتذراً من أن هناك أخباراً عن مكان زوجته وابنته من القنصلية المصرية في لوس أنجلس. لم يكن لدي رغبة في العودة إلى البيت، فقررتُ أن أطلب من سائق المركز أن ينزلني في مكتبة قريبة من منزلي.

الناس المتكئون على الرفوف يقرؤون باهتمام واستغراق، السيدات المسنات اللواتي يتحلقن حول طاولة القراءة ويهمسن بحديثٍ حول الكتب التي أمامهن، الباعة بالمراييل الخضراء يتحركون في أرجاء المكتبة الرحبة وكأن العالم توقف ها هنا، ملامسة قدمي للسجاد الزيتي الذي فرشت به أرضية المكان. كل هذا جعلني أفكر بسوريا، بوطني المنهك من الحرب والظلم، وبشعبي هناك الذي لو ركعت وقبلت أقدامه المتعبة لما أعطيته حقه. هل ندفع نحن في سوريا ثمن هذا الهدوء وتلك الدَّعَة ها هنا؟ أنا أيضاً عقلي متعب،

وهذه الأفكار التي تحتلني بعضها عاقل وبعضها الآخر لا أعرف من أين وصل إلي! ربما علي أن أغربلها من الآن فصاعداً، وأقتلع زؤاناً كثيراً من بينها حتى أبقي على الحقيقة العارية. ترى ما هي الحقيقة العارية؟ من يملكها، ومن المستفيد من إعدامها مع كل طالع شمس؟... وبينما أنا في هذه السكرة الغريبة، وقعت عيناي على البروفسور (سام موريسون) يقرأ، وقد أسند ظهره إلى أحد رفوف الكتب بعد أن رفع نظارته فوق عينيه، وقرب الكتاب من وجهه. أعرف أنه فلسطيني لبناني كما قدمه لي (فاضل)، لكن طوال الشهرين الماضيين لم تسنح لنا فرصة التحدث مباشرةً بسب تضارب أوقات عملنا في المركز. قال إن رؤيته لي مفاجأة لطيفة لم يكن يتوقعها. اقترح أن نشرب القهوة في المقهى الملحق بالمكتبة. وافقت.

بعد أن وضعنا كوبي "الإسبريسو" من دون " كافيين" أمامنا، مدّ (سام) يده إلي مصافحاً:

- لنبدأ من جديد. اسمي (سمير الحوابشة) وليس (سام موريسون). لقد غيرت اسمي بعد عام من وصولي إلى هذا البلد. لم يكن سهلاً أن آتي إلى هنا لكني فعلتها وأتيت، ودخلت أمريكا بجواز سفر لبناني. ولدت وعشت في "مخيم عين الحلوة" في بيروت، وأنهيت دراستي الجامعية في العلوم السياسية في جامعة دمشق، جامعتك، التي كنت أتردد عليها في أوقات الامتحانات فقط.

- ... أنت فلسطيني؟

- أنا من فلسطين "العبور الدائم". (يضحك).. يعني "ترانزيت" دائم. لا أجد مبرراً لأن أكون (سام) مع أي سوري. لسوريا ذكريات

طيبة في قلبي. كنت أزور دمشق مرتين في العام، وكنت أحسد كل فلسطيني يعيش على أرضها. أنا أحب الشام، وأكره "نظامها". أتمنى أن لا أكون قد أزعجتك!

- لقد اعتدت على هذا الكلام من بعض الفلسطينيين خلال هذه الحرب على البلد، خصوصاً ممن عاشوا فيها، وأحبوها، وكتبوا فيها الشعر.. غريب أليس كذلك؟

- يا عزيزتي، أنا أفهمك.. سماع الحقيقة أصعب من قلع الضرس!

- تماماً لهذا لم يرد البعض سماعها!

خفتت ابتسامة (سام) العريضة وكأن دبوساً رفيعاً لمسه. كنت أنتظر أن أسمع منه تفاصيل أكثر عن حياته، ولكني تركت هذا الأمر ليأتي في وقته، واكتفيت بمعرفة أن لديه ابناً في الثامنة والعشرين من زواج سابق من امرأة أردنية تعيش في مكان قريب من مسكنه في لوس أنجلس، وابناً في الرابعة عشر من زوجته الأمريكية الحالية. بدا لي مبتسماً طوال الوقت، ومرتاحاً بـ "البيبون" حول عنقه، و"البايب" الذي لا يفارق يده، أو جيب قميصه، وكأنه يريد أن يكون (سام) طوال الوقت وليس (سمير). كل هذا الانتعاش البادي عليه هبط حينما اقتربنا من أقدام الحقيقة، والحديث عن الوطن بغض النظر عن هذه الصورة في عقلينا عن "هذا" الوطن.

لم أستطع أن ألفظ اسمه الحقيقي عندما ودعته أمام باب المكتبة. طالما هو قرر أن يكون (سام)، إذن سيبقى هكذا بالنسبة لي. (سمير الحوابشة) بقي في دمشق، في أروقة جامعتها يتطلع إلى نتائج امتحاناته المعلقة على الجدران ويتحدث مع رفاقه من السوريين والفلسطينيين.

(سمير) بقي هناك، في يده وثيقة سفر مطوية، وفي جيبه مفتاح بيت جده في الناصرة. أما الذي يقف أمامي الآن فهو (سام)، (سام) فقط.

* * *

سرّحتُ شعري ببطء أمام المرآة في نفس المساء بعد "دوش" ساخن طويل. راح عقلي إلى ألف مكان وزاوية. سمعت في أذني عشرات الأصوات، وكدت أرى بعيني المتعبتين وجوهاً بعضها أتمنى تقبيلها، وأخرى أتمنى أن أبصق عليها. عشرات الفصائل والقوى تتحارب من دون هوادة على أرض الشام. كل يوم أرى أزياء عسكرية جديدة تظهر هنا وهناك. أرى ذقوناً طويلة، وأخرى قصيرة تتباهى بالجحيم الذي تنفثه. أرى أسلحة؛ بعضها يريد أصحابها تجربتها على أرضنا، وأخرى تحيل غابات وجبال سوريا إلى أسود فحمي لزوم البقاء على قيد الحياة. ما قيمة عمود نير الجواميس الذي أخفيه تحت وسادتي أمام هذه الترسانات الزاحفة، وهذه الذقون المتشفية؟ سأضع على طاولة الدكتور (فاضل الهاشمي) أول بحث لي غداً، وسأفتح بذلك باباً مواربا أمام ريح الأسئلة والمواجهة المباشرة. سأقول ما أعرف، وسوف يقاوم هو بعقله المحسن الصاحي من دون كحول كل دليل أو برهان سوف أقدمه على طبق الأرقام والوقائع).

- إلى ماذا ترمين يا دكتورة (أميرة)؟ كل المراجع مفتوحة أمامك. كل الإحصائيات. كل الشخصيات التي كنت ترينها على شاشات التلفزة، ويمنعكم "النظام" من ملاقاتها، كلها هنا رهن إشارتك. افتحي عقلك للطرف الآخر.. اسمعيه... توازني وأعيدي لي البحث مرة ثانية.

Who are you?[3]

(توارى عمود نير الجواميس بعيداً، تفتت تحت قذائف "الهاون" التي تُمطر دمشق منذ أيام، بينما عدت بنفس الليلة لأسرح شعري الطويل أمام مرآة الغربة العنيدة. لا اتصال والدي، ولا حتى خط الإنترنت الذي يربطني بالشام استطاع أن يخفف من ثقل الحجر على صدري. سأفتح عقلي للطرف الآخر، سأفتح صدري لرصاصاته، لقذائفه، لانتحاريه، وسوف يسمع هو ردي لا كما فعل السيد المسيح حين أدار خده الآخر لمن صفعه، وإنما بنفس القدر من القوة الضاربة وحتى أكثر. أنا لا أؤمن بالثورات المسلحة، فلقد درّستها لطلابي السنة تلو الأخرى حتى عرفت جذور جذورها، وأسبابها، وكيف كانت ترمي بظلال شجرتها الوارفة من الدمار أينما حلت. في كل مرة كان يقوم بعض "الثوار" الحالمين بهز بحيرة وطنهم الراكدة، كانت تغرق كل السفن الطافية على سطحها الواحدة تلو الأخرى، وتنتهي في القاع. التغيير قدر الدنيا كلها، لكنه لا يأتي وحيداً، فمعه يأتي الهدم كجزء من صرته القاسية، ونتيجة لها. إذن ما العمل؟ كيف نقود تغييرنا من دون أن تغرق كل هذه السفن

(3) ترجمة الجملة بالعربية: من أنت؟

الطافية، والتي استهلكت منا ضوء العين وقروناً بحالها؟ ماذا نفعل بهذه الأمة التي كلما بانت ركبة امرأة من دون قصد، اهتزت أركانها ومالت؟ أسئلة رميتها في وجه (إمام) حالما التقيته في المركز صباح اليوم التالي.

- دعينا الآن من كل هذا ولأطلعك على أسعد خبر سمعته في حياتي!

- هيا... قل!

- سأسافر غداً إلى ولاية أريزونا...

قدمت القنصلية المصرية آخر عنوان لديها لمكان زوجة (إمام) وابنته المختفيتين منذ خمس سنوات. حين قرأ الورقة الصغيرة التي قدمها له القنصل، قبّلها فرحاً بعينين دامعتين، ثم هرع إلى سيارته منطلقاً. أخيراً يَلوحُ ضوءٌ في نهاية نفق عمره، عمره الذي ضاع في ارتكاب الأخطاء، وتكرارها. لكن هذه المرة، سوف "يضرب الحديد وهو حامي" كما قال (لأميرة)، وسوف يسافر في الحال إلى تلك الولاية مستغلاً إجازة الخمسة أيام التي طلبها من المركز.

في اليوم التالي، استطاع (إمام) أن يصل إلى العنوان المحدد في الورقة في أحد أحياء مدينة "فينيكس"، عاصمة الولاية، بعد أن قاد سيارته بنفسه ووصل إليها بعد خمس ساعات ونصف كاملة. كانت أغاني "أم كلثوم" تصدح من مسجل السيارة، فتلهيه، وتجعله يسرح في أفكار كثيرة متخيلاً مشهد اللقاء بكثير من الانفعال والتأثر؛ ابنةٌ ترتمي في حضنه، وزوجةٌ منهارةٌ عند قدميه تعتذر. كان يردد في نفسه طوال الطريق "طبعاً سامحتكما.. لن أعود إلى لوس أنجلس

إلا وأنتما معي". واستمر مستغرقاً في شجونه إلى أن أطفأ محرك السيارة أمام بوابة بناءٍ مؤلفٍ من شقق كثيرة.

أمام باب الشقة، انهزم قلبه من شدة القرع، حتى كاد أن يتوقف. ما إن مس الرافعة الحديدية الصغيرة، حتى فتح الباب وظهرت ابنته أمامه. وقف (إمام) متجمداً أمامها لا ينبس بكلمة:

سألته الفتاة، ابنة الثامنة عشر ربيعاً بلكنة أمريكية نقية:

- Who are you?(4)

لم يستطع (إمام) الإجابة، لكن الفتاة استطاعت أن تميزه بعد ثوان وتصرخ:

- Daddy!!!... What are you doing here?.... Oh my God.. Oh my God!!!(5)

ثم ارتمت في حضنه معانقة إياه أمام ذهوله، ودموع عينيه التي بدأت تكرج من دون مقاومة، ببطء وحسرة. كانت ابنته ذات شعر مجعد طويل مصبوغ بالأحمر والأخضر والبنفسجي، تلبس سروالاً قصيراً و"بلوزة" صغيرة تشبه حمالة الصدر، وتزين معصميها بأساور كثيرة. عانقها من دون أن يستطيع التلفظ بكلمة واحدة، وأخذ بالبكاء مثل النساء.

شدته ابنته إلى الداخل وهي تقول له بانفعال وسعادة:

- Please daddy, come on in... Oh my God ...!!!(6)

---

(4) ترجمة الجملة بالعربية: من أنت ؟

(5) ترجمة الجملة بالعربية: بابا !!!! ماذا تفعل هنا ؟... يا الهي.. يا إلهي!!

(6) ترجمة الجملة بالعربية: لو سمحت يا والدي، تفضل بالدخول.. يا إلهي!

يفاجأ إمام بشاب أمامه يلبس الجينز المرخي، بينما كان عارياً تماماً في قسمه الأعلى:

- Oh this is Dave, my boyfriend..., Dave this is my dad... Oh my god I can't believe you are here in front of my eyes....!![7]

وأخيراً استطاع (إمام) أن يفتح فمه:

- فين أمك؟؟

ترد ابنته بلهجة مصرية مكسرة:

- آآ.. في الشغل... بترجع الساعة ستة.

- بتشتغل إيه؟

- في بنك.

- عايشة هنا معاك؟

- آآآ..!!

جلس (إمام) على طرف أريكة بعد أن أزاح كوم الفوضى والثياب عنها.

- حاستناها!

حين عاد (إمام) من أريزونا في اليوم التالي لم يذهب إلى منزله، وإنما أتى مباشرة إلي. كانت العاشرة ليلاً، وكنت على وشك النوم. اعتذر كثيراً من قدومه في مثل هذه الساعة لكنه قال إنه

(7) ترجمة الجملة بالعربية: آآ هذا "دايف" صديقي. "دايف"، هذا والدي.. يا الهي لا أصدق أنك هنا أمام عيني!

بحاجة للتكلم مع أحد. دخل مرتبكاً بعينين متعبتين متورمتين، ثم ما لبث أن انخرط في بكاء مرير. حين هدأ، أخذ يحدثني عما حدث وهو يحمل بكلتا يديه فنجان شاي ساخن أعددته له على عجل.

- ظننت أني أرى كابوساً أمامي عندما فتحت ابنتي باب الشقة. لو لم تتعرف علي وتصرخ بابا، لما عرفتها. كان صديقها معها في المنزل نصف عارٍ يملأ الوشم كلتا يديه. ابنتي الصغيرة! تصوري! لكنها مع ذلك كانت سعيدة جداً لما رأتني. لقد أخبرتني كيف كانت تبكي طول الليالي بعد أن هربتا إلى هناك، وكيف كانت تحاول أن تقنع والدتها بالعودة. قضيت معها ومع ذلك الشاب ساعتين قبل أن تأتي زوجتي. لقد صُعِقَت حين رأتني. طبعاً لم تكن تتوقع أن أجدهما. رأيت الضيق على وجهها، وكذلك التعب. كأني لم أعرفها يوماً. لقد تغيرت كثيراً. أصبحت تشبه نساء هذا البلد المنهكات من كثرة العمل والمجاملات. صافحتني باليد من بعيد ببرود وهي ترتجف. لم أكن أريد أن أضايقها.. كنت فقط حزيناً جداً.. الصدمة جعلتني عاجزاً عن الكلام. سألتها فقط عن حالها وظروفها وحال ابنتنا. لم ألمها حتى على هروبها، لكنها ردت بعصبية وجفاء بأن هذا لا يعنيني، وأن علي أن أذهب حالاً. غضبت، تقدمت منها وقلت لها إنهما عائلتي، وإنها ما زالت زوجتي رسمياً، لكنها خافت من الخطوة التي تقدمت باتجاهها، ولاذت بزاوية في الغرفة. هالني موقفها ولم أدرِ ماذا أفعل. فجأة شعرت بيد قوية تقبض على كتفي من الخلف، وصوت رجل أجش يقول:

- watch it![8]

استدرت لأرى رجلاً طويلاً أسود البشرة لا أعرفه، لكن زوجتي ركضت إليه، واختبأت خلفه وقالت:

- هذا (جو)... صديقي!

لم أتمالك نفسي، ذُهلت مما شاهدت وسمعت. تطلعت إلى ابنتي الحزينة التي كانت تلوذ بصديقها نصف العاري، ثم رحلت في الحال صافقاً الباب وراء مصيبة عمري التي رأيتها للتو.

قضى (إمام) الليل على الأريكة في صالون بيتي بعد أن أعطيته شرشفاً وغطاءً. نام في اللحظة التي وضع فيها رأسه على الوسادة، نام بثيابه وربطة عنقه من شدة الإنهاك والتعب.

(8) ترجمة الجملة بالعربية: انتبه..

نساء كوجو سنجار

"كنت عاريةً تماماً والغرفة باردة مثل الثلج، وكان ثلاثة مجاهدين يتناوبون على اغتصابي مثل الوحوش، الواحد تلو الآخر حتى أُنهكوا، بينما كان الدم يسيل على ساقي. أما المفتشة الملثمة وراء باب الغرفة - التي بنيت على عجل في إحدى ساحات المعارك قرب مدينة إدلب[9]- فلم تكن تأبه لكل ذلك!".

"تناوب عشرة من رجال الأمن على اغتصابي أمام ابني البالغ من العمر ستة عشر عاماً. أصبحت قطعة ثلج، تخشبت، مت، وهم لم يتعبوا ولم يأبهوا!".

"ألقت الشرطة التونسية القبض علي أنا وزوجي، ونحن نجتاز الحدود من ليبيا إلى تونس. أنا أم لطفلين، ذهبت إلى سوريا مع زوجي للجهاد ضد الكفار عن طريق ليبيا، ثم تركيا، ومن هناك

(9) **إدلب**: هي مركز محافظة إدلب الواقعة شمال سوريا. يطلق عليها اسم إدلب الخضراء لكثرة أشجار الزيتون فيها. تقع إدلب إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب، وتبعد عنها 60 كم، وعن اللاذقية 132 كم، وعن دمشق 330 كم، وعن حمص 168 كم، وعن حماة 105 كم. مدينة إدلب هي المنطقة الإدارية الأولى في المحافظة (مركز المحافظة)، حيث يوجد بها العديد من الأماكن الأثرية المميزة، وفيها متحف إدلب الغني بآثار محافظة إدلب العريقة تاريخياً. يضم هذا المتحف العديد من الآثار التي يعد أهمها الرُقم المكتشفة في مملكة إيبلا في تل مرديخ.

توجهنا إلى مدينة إعزاز[10] السورية. لقد أجبر زوجي على النزول لطلب التنظيم في وضعي تحت خدمة عناصر الجماعة. لقد عملت مع سبع عشرة سيدة أخرى من جنسيات مختلفة تحت إمرّة امرأة صومالية اسمها "أم هارون". استمريت في جهاد النكاح لمدة شهر حيث تناوب علي أكثر من مئة "مجاهد"، إلى أن أصيب زوجي في إحدى الغارات، مما سهل الأمر لعودتنا، لكن الشرطة التونسية ألقت القبض علينا على الحدود مع ليبيا".

"اسمي ميساء من مدينة سنجار[11]. أخذوني إلى سوريا، حيث كان هناك سوق للعبيد تباع فيه النساء إلى داعش، وتساق كعرائس للمقاتلين. كنا خمسين فتاة حُشرن في غرفة صغيرة ذات نافذة شبه مغلقة، نتصبب عرقاً غزيراً من شدة الحر. لقد اشتراني رجلٌ من كازاخستان. كان له ثلاث زوجات وثمانية أطفال. هددته بأنني سوف

---

(10) **إعزاز**: مدينة تقع شمال سوريا. هي مركز منطقة إدارية تابعة لمحافظة حلب، وتتبعها ستنواح، وهي ناحية قرى مركز المنطقة، وتل رفعت وأخترين ومارع ونبل وصوران، وتضم هذه المنطقة مدينة إعزاز وخمس بلدات تشكل مراكز النواحي و125 قرية و59 مزرعة. والعزّاز في اللغة تعني الأرض الصلبة. تتصل إعزاز بطريق إسفلتية مع حلب وعفرين وكلز، ومع القرى المجاورة لها، كما يمر خط حديد حلب إسطنبول على مسافة 3 كم بالقرب منها. أما في شمالها الشرقي وعند قرية السلامة، فيوجد مركز حدود سوري مع تركيا.

(11) **سنجار**: بلدة صغيرة تقع غرب الموصل في الصحراء العراقية قرب الحدود السورية. كان يسكنها السريان المسيحيون واليزيديون منذ القدم بالإضافة لبعض القبائل العربية. على جبل سنجار يوجد قرى صغيرة معظم سكانها من اليزيديين. أما سبب التسمية "سنجار"، فيعود لأحد فروع قبيلة شمر (سنجار) التي قطنت في هذه المنطقة وحولها. عقب هجوم "تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام" المعروف بداعش على مدينة الموصل في العاشر من حزيران 2014، قام الإرهابيون في 3 آب 2014 ، ببدء الهجوم على مدينة سنجار لتوسيع نفوذهم. ارتكبت المجازر ضد سكان المدينة، كما قام الإرهابيون بنهب المدينة وسرقتها، واختطاف النساء وسبيهن. اعتبرت هذه الانتهاكات المهولة من أبشع الصور في التاريخ العراقي.

أقتل نفسي لو لمسني. قال لي أنه لن يؤذيني إذا ما أعلنت إسلامي، ففعلت. لقد كذب علي، وعشت في منزله حيث تناوبت على ضربي زوجاته لمدة سبعة أشهر إلى أن استطعت الهرب، بعد أن تمكنت من الحصول على هاتف نقال، والاتصال بأخي الذي سعى إلى تهريبي من البلد".

"اسمي ربا من كوجو سنجار. أحضروني إلى سوق الرقة[12] للعبيد في سوريا. حاولت منذ أول يوم لي مع فتيات أخريات، أن نهرب بعدما خلعنا ملابسنا، وشكلنا منها حبلاً ساعدنا على الهبوط من النافذة. لكن ما إن نزلنا، حتى قبضت علينا مجموعة من الرجال، حيث ساقونا إلى الداخل مجدداً، ثم انهالوا علينا بالضرب المبرح بالعصي وقبضاتهم واللكمات التي كانت تنزل فوق رؤوسنا مثل الصواعق، بينما كنا نصرخ ونلوذ ببعضنا البعض. تركونا بعدها نقضي ليلتنا مع سبعين امرأة أخرى من دون شربة ماء. في اليوم التالي، ساقونا إلى الجهاد بعد أن أعلنا إسلامنا جميعاً".

"حين وقعت في الأسر، كان معي أخي الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات. كانوا يضربوني أنا وأخي كل يوم من دون سبب فقط لمجرد البكاء والخوف. بعد أسبوع، تمكنوا من بيعي إلى رجل أخذ يغتصبني كل يوم إلى أن حملت منه. لقد عشت عذاباً لا يطاق. كان له بعض المطالب الجنسية الخاصة، وكان يضربني عندما كنت أرفض، وأقول له إني لا أستطيع أن أقوم بها. كان يصلي قبل وبعد

(12) **الرقة:** مدينة تقع شمال سوريا، عاصمة محافظة الرقة، تقع على الضفة الشرقية لنهر الفرات، على بعد حوالي 160 كم شرق مدينة حلب. في (2016) كانت من أهم المدن التي تسيطر عليها داعش وتعتبرها بمثابة عاصمة لها.

أن يعتليني، ويقول لي إن دينه يسمح له أن يغتصب امرأة كافرة. عندما يئس مني، باعني مرةً ثانية أنا والطفل الذي من صلبه إلى رجل آخر. حين تمكنت من الهرب، لم أعرف إلى أين أذهب مع أخي الصغير وطفلي، لكن عائلة عراقية استطاعت أن تنقذنا، ومن يومها ونحن نعيش معهم. لا أعرف شيئاً عن أهلي، فقدت أثرهم. ربما ماتوا الآن جميعاً".

"اسمي شاده. حين حاصروا مدينتنا في الفجر تمكنوا من اعتقال زعيم القرية، ثم دخلوا إلى بيوتنا، وفصلوا الرجال عن النساء. أخذونا جميعاً في حافلات، وظلوا ينقلوننا من مكان إلى آخر، إلى أن وصلنا إلى تلعفر[13]، وهناك تطلع جندي من بعيد إلي، ثم اقترب لكي يلتقط لي صورة بهاتفه النقال. كنت متسخة من رأسي حتى أخمص قدمي. كان ابني الرضيع على يدي. عاد هذا الجندي ليلاً، وقال لي إنه سيهربني مع رضيعي وإنه سيحميني. في اليوم التالي، وضعني أنا وثماني فتيات في غرفة كبيرة، وكان يأتي كل ليلة ليأخذ واحدة منا. بعد شهر أرسلني إلى بيت كبير حيث كان هناك رجل أمريكي قال لي إنني سأصبح خادمته. عندما طلب النوم معي قلت له إنني حامل، ولا أستطيع، لكنه في الحال استدعى طبيباً ليتأكد من ذلك. عندما كشف كذبتي ضربني، واغتصبني بالقوة. بعد أشهر تمكنت من الهرب بمساعدة صديقتي وأخيها".

---

(13) **تلعفر:** مدينة تقع شمال غرب العراق، في محافظة نينوى. أغلب سكان مدينة تلعفر هم من التركمان الشيعة، مساحتها 28 كم²، وتبعد عن غرب الموصل حوالي 30 ميلاً، وعن جنوب الحدود العراقية التركية حوالي 38 ميلاً وعن شرق الحدود العراقية السورية حوالي 60 كم.

"اسمي داليا. أُسِرت لمدة أربعة أشهر. كنت حاملاً عندما قبضوا علي. كنا نقضي حاجتنا في مكاننا. بعد وصولي بأيام، أرسلوني إلى عائلة سورية حيث عملت كخادمة هناك. كانوا ينادونني بـ" الكافرة". على الرغم من أنني كنت حاملاً، إلا أنهم كانوا يضربوني ويغتصبوني مِراراً وتكراراً، وحين كنتُ أرفضُ كان رجال العائلة يتناوبون علي عنوة وبالإجبار. بعد أن ملوا مني، باعوني إلى عائلة سعودية. عندما أنجبت، تناوب رجال العائلة على اغتصابي مرات لا تحصى إلى أن تمكنت من الهرب من هذا الجحيم".

"اسمي رشيدة، حين وقعت في الأسر، طلب مني أحد المجاهدين التحول إلى الإسلام لكي يتمكن من الزواج بي. قال لي إنه سيساعدني، ولكن إن لم يستطع، فالأفضل لي أن أنتحر. في نفس الليلة، أجرى مقاتلو داعش قرعة على أسمائنا، وبدؤوا باختيار النساء بحسب الاسم. أرغمني الرجل الذي انتقاني واسمه "أبو حَنيف" على الاستحمام، فعرفت في الحال أنه يمهد لاغتصابي. حاولت الانتحار وأنا في الحمام. كنت قد عثرت على بعض السم في المنزل الذي نحن فيه، فأخذته ثم وزعته على بقية الفتيات، ومزجت كل واحدة منا بعضاً منه بالماء وهي في الحمام. لكننا لم نمت، وإنما مرضنا جميعاً، بينما انهار البعض الآخر منا تماماً. بعد أيام، عندما شعرت أني أفضل، وأن بإمكاني النهوض، حاولت الانتحار مرة ثانية بسلك كهربائي في الحمام، ولكن لم يكن هناك كهرباء. عندما عرف "أبو حَنيف"، انهال عليَّ بالضرب، ثم كبلني واغتصبني أمام كل الفتيات في الغرفة. بعد فترة، تم تحريرينا جميعاً من هنا، وأُرسلنا إلى

ألمانيا للعلاج. بعد شهر على وصولي، رأيت "أبو حنيف الداعشي" وزوجته في أحد الشوارع . كان قد طلب اللجوء الإنساني وأعطي له على الفور. لقد صورته بهاتفي النقال، وقدمت به بلاغاً للسلطات الألمانية. لقد وصلت إلى تلك البلاد شبه ميتة، لكني سوف أكون أفضل حتماً عندما يأخذ القضاء حقنا من هذا المجرم القاتل"[14].

رَمَت (أميرة) هذا التقرير من يدها بعد أن قضت الليل تقرأ قصصاً مماثلة يقف لها شعر الأبدان. ليس هذا تعب الأرق ما ينبت على محياها، وإنما بداية الجنون أو ربما الذهول المر.

(هذا الرجل النائم على أريكة غرفة الجلوس، يعتقد أنه أضاع ابنته وزوجته، وأن الدنيا ليست جديرة بالعيش. إن منظر ابنته في "الشورت" و"التاتو" على جسمها وكذلك صديق زوجته، الأسود، جعله ينهار. أي عبث هذا! على الأقل هاتان المرأتان لم يجبرهما أحد على ذلك، أما هؤلاء النسوة فقد تم بيعهن في سوق النخاسة في الرقة وإعزاز، في عصر نتباهى فيه بأننا عثرنا على الثلج على كوكب المريخ، واستطعنا استنبات أعضاء بشرية من الخلية الحية!!).

أحضرت (أميرة) القهوة (لإمام) الذي نهض في ثياب الليلة الماضية مرتبكاً. نام المسكين مثل القتيل، وصحا ورأسه مصدع مثل خزان ماء ممتلىء. رتب هندامه على عجل وانطلق مع (أميرة) إلى المركز.

---

(14) تم أخذ هذه القصص من بعض الصحف العربية والأجنبية عن نساء تمكّنّ من الهرب من "داعش". عملت في هذه الرواية على إعادة كتابتها من دون أي تدخل مني على الإطلاق في سير القصص وتسلسل أحداثها، بينما اكتفيت بالعمل على اللغة فقط في بعض المواقع.

شيء من الواقعية يا عزيزتي..!

حين وصلت إلى مكتبي، قمت بسرعة بعمل عدة نسخ من الأوراق التي كنت أقرؤها خلال الليل، وكتبت فوق كل نسخة اسم كل زميل لي في المركز، ووضعتها على طاولته. خلال دقائق، شعرت بعصبية وهمهمة الدكتور (فاضل) من مكتبه الملاصق لمكتبي، فآثرت الدخول إليه. كان منفعلاً وقد نزلت إحدى خصلات شعره الرمادي فوق جبينه، وبان السكر الطفيف على عينيه وقسمات وجهه:

- يـاااااااااا دكتـورة (أميـرة)... مـاذا تقصـدين مـن توزيـع هـذه القصص.. هل حقاً تصدقينها!

- إذا أنكر أحد الشيوخ أنه لم يفتِ بها فهذا لا يعني أنها ليست موجودة. على كل حال اطلاع الزملاء عليها ليس كفراً ولا غلطاً.

كان (سام موريسون) قد دخل هو الآخر إلى غرفة المدير في تلك اللحظات، وأدلى بدلوه من دون مقدمات بلكنة مرتاحة، وكأنه استفاق تواً من النوم: أعتقد أن في الأمر مبالغة!

- قل لها.. قل لها يا دكتور (سام)... بين يديها ملف أكثر أهمية.. نحن نريد أن نترك كل هذا وراءنا الآن، ونتطلع إلى كيفية الإعمار!

العالم جن. هكذا فكرت، وأنا أستمع إلى حديث الرجلين. ليس جهاد النكاح هو كل ما حصل، و لكنه واحد من هذه الفقاعات الشاذة التي تقدمت إلينا على سجاد الطائفية الأحمر. لا أعرف كيف سأكتب عن سوريا، وكل يوم ينفجر بين قدمي لغم من هذه الألغام. سوف أحتاج لأيام لكي أمحو من ذاكرتي قصص هؤلاء الفتيات. يلزمني عمود نير الجواميس لكي أنهال به على هذه الميول النائمة الكثيرة، والتي استفاقت مثل وحش جائع بسبب إله الأشياء الصغيرة التي يعبدون، الإله الذي لديه الوقت كله، لكي يفتي بالنكاح، والإرضاع، وطريقة اللباس، وقصة الشعر، وترتيب الذقن، وإتيان المرأة، بينما يترك الأمور الإنسانية الكبرى على عاتق رجال ونساء ليسوا آلهة، وإنما يملؤهم أن يكون هذا العالم أفضل. لا أعرف كيف سأجمع بين كفيّ كل الأسباب التي جعلت النار تشتعل فجأة في جسد اعتقدنا أنه عصيّ على الاحتراق، وروح ظننا أنها أبعد ما تكون عن القتل! إنني بحاجة للحديث مع (فاضل). أريده أن يعيد النظر في الملف الذي كلفني به، وأن يسمح بأن يكون هناك مراسل واحد للمركز في دمشق يمكنني أن أثق به. ودخلت عليه، فرأيته يخفي كأس "الويسكي" الذي أخذ منه رشفة وراء ملفات كثيرة موضوعة إلى يمينه. حدثته بما أفكر بهدوء. تطلعت في عينيه لأشعره بصدقي. قلت له دعني أقدم لك العمل كاملاً، ومن بعدها احكم أنت عليه. ضغط على السيجار بين يديه، وقال بعصبية مكتومة وابتسامة أرادها كاذبة من دون لف أو دوران:

- اكتبي ما ترينه مناسباً، وفي أي موضوع يتعلق بسوريا، لكن

الملف المكلفة به يجب أن يُنجز، وفي أسرع وقت. استعملي كل الصلاحيات التي لديك، وكل التسهيلات من المركز. قابلي جِنَ الأرض ولكن أنجزيه. بعد ذلك اكتبي ما تشائين.

ما إن خرجت من غرفة (فاضل) حتى لحق بي (سام) وأمسكني برفق من ساعدي وقال: شيء من الواقعية يا عزيزتي.. قللي من حدتك، وكوني موضوعية. أنت تعملين في أهم مركز للدراسات العربية في الولايات المتحدة. التطرف في دعم "الأنظمة الفاسدة" ليس من شيم الباحثين والمفكرين. نحن ننتقد، نبحث عن الخطأ، نضع عدساتنا المكبرة على كل شاردة وواردة، وأبحاثنا هي الضوء الذي ينير طريق من هم في موقع أخذ القرار. لن يقدم أو يؤخر اغتصاب امرأة من قبل مجاهد أو جندي في قرار أي مسؤول. هذه أمور تحدث في كل الصراعات المسلحة. أنا أفهم أنك امرأة، والأمر بالنسبة لك من الكبائر. أنا لا أنكر، ولكن دعينا نفكر بطريقة أوسع وأشمل! فهمت عليَّ "سويت هارت"[15]؟ قال هذا ثم مسح على خدي وتطلع إلي نظرة حنونة لم أطقها.

شعرت بأن علاقتي بدأت تتوتر مع الجميع، وشق الاختلاف يتسع بشكل كبير بعد أن ظهرت نوايانا جميعاً على السطح. لم يكن هذا بسبب تباين نظرتنا إلى ما يحدث في سوريا فقط، وإنما أيضاً بسبب الهمس الذي بدأت أسمعه من وراء ظهري عن علاقتي (بإمام). لقد رأونا ندخل معاً هذا الصباح إلى المركز، فأخذوا يتطلعون إلينا ويبتسمون بحنان كاذب كما يفعل الأمريكي عندما

(15) ترجمة الجملة بالعربية: حبيبة قلبي.

يخبره صديقه أنه على علاقة حب بإحداهن. أشعروني وكأننا عائدين تواً من شهر العسل! كل سخافة الدنيا وعبثيتها وقرفها تتجمع أمامي. أردت أن أبتعد، أن أهرب، أن أعود إلى القيمرية، إلى جامعتي، جامعة دمشق. أردت أن أُخلق "بقدرة قادر" الآن في أي زقاق من أزقة مدينتي، وأن أركن هناك لجلبة المارة، وللشمس، وحركة المرور، ولكل ما لم أكن أنتبه إليه فيما مضى. لقد وُعِدنا أن يغدو العالم موحداً، قرية كما أطلق عليه المتحمسون، وأن تُزال حدود رسمتها القوى المتصارعة في أحقاب مضت، لكنه بدلاً من ذلك، ها نحن نبني الجدران بين بعضنا البعض. لا أعرف فكرة من هذه، ولكن حتماً كان هناك رجل ذو شعر أبيض منكوش، وربطة عنق مرخية، وعيون خافتة، يتحدث ببطء، بينما بانت الكتب والمجلدات الكثيرة خلفه: "أغلقوا الحدود وارفعوا الجدران. دققوا في الداخل والخارج، وخذوا بصمات العين، وابحثوا عن القنابل حتى في فتحة الشرج. وهكذا ظهر جبل الخوف مشرئباً، وهجمت غيوم عصر الظلام متسارعة من فوقه، وانطفأ نور العالم في الحال. لن أساوي بين القاتل والقتيل، لكن هذه الحروب نسيت في هوجة شراراتها أن كل ما نريده من هذه الدنيا هو عناق من نحبهم، فطيرة طيبة تخرج من فرن المنزل، فنجان قهوة مع الجيران، كتاب نقرؤه في هدأة بعد الظهر، ساعتان إضافيتان من النوم الكسول في دفء السرير، أو سهرة صيفية مع الأصدقاء والأهل. في نهاية المطاف، بعد الكثير من التفكير والتحليل وشرح وجهات نظرنا بحمية وشغف، نتطلع مثلنا مثل غيرنا إلى المتع الصغيرة التي نريدها أن تحدث على أرض آمنة).

قضت (أميرة) الليل في القراءة أمام شاشة الكمبيوتر. مرة أخرى تتدفق القصص والحكايات مثل حليب يفور وينسكب فوق موقدٍ حَامٍ. قرأت عن اعترافات الفقراء الذين عاد الناجون منهم "بخُفّي حُنَين" من وطيس المعارك التي سحبهم إليها دوار الفاقة وقلة الموارد والجهل. قرأت عن أمهات فقدن أولادهن جميعاً، الواحد تلو الآخر، من أجل أن يبقى الآخرون في بيوتهم آمنين. قرأت عن "منشقين" باعوا وقبضوا، وآخرين "موالين" أيضاً باعوا وقبضوا. قرأت عن الأطفال الذين توقفوا عن الذهاب إلى مدارسهم التي قصفت، أو امتلأت باللاجئين. قرأت عن الذين عارضوا وفرّوا، ولاذوا بالغريب، وعن الذين عارضوا وبقوا في البلد يحمونها كرمش أعينهم. قرأت عن العدو القريب الذي يسكن في البيت المقابل من نفس المبنى، وعن قصص الانتقام الكثيرة التي ظهرت أخيراً على السطح بكل تشفٍّ من دون رادع. قرأت، وقرأت إلى أن سطعت شمس لوس أنجلس الحارقة بينما كانت كارثة أخرى تتحضر لتومئ برأسها في منزل (هداية)، الزوجة الأردنية الأولى (لسام موريسون)، كارثة ستهز عالم هذا الأخير مثل ريحٍ صَرْصَر، أو زلزالٍ سيضرب سواحل عقله الآمنة.

عُمَر «ابن سام»

حين وصل (سمير) أو (سام موريسون)، كما أطلق على نفسه، إلى الولايات المتحدة الأمريكية في منتصف الثمانينيات برفقة زوجته (هداية)، كان ابنهما (عمر) لم يتجاوز الثالثة من عمره. سكنت العائلة يوم وصولها في منزل أمّنهُ لها بعض من العرب كانوا قد شكلوا تجمعاً ثقافياً في العلن، وإسلامياً متطرفاً في الخفاء. قالوا لهم إن وجودهم على هذه الأرض الكافرة بسبب ظروف معينة لا يعني تخليهم عن عاداتهم الإسلامية، ودينهم الحنيف، أو مد يد العون لأقرانهم. نفر (سمير) من هذه المجموعة منذ أول لحظة، وازداد نفوره أكثر في الأشهر اللاحقة حين أخذت تمارس عليهم ضغطاً متصاعداً ومستمراً من أجل الالتزام بحضور الاجتماعات السرية، والخطب الطويلة في الجامع والتي كانت كلها تشتم أمريكا، وتهيب بالجميع التهيؤ إلى "ذلك اليوم العظيم حيث العالم سوف يخضع أخيراً لسنة الله". قال لزوجته إنه لولا الحاجة إلى المال لما بقي يوماً واحداً في ذلك المنزل. كانت حياته في لبنان، في "مخيم عين الحلوة"، بعيدة بقدر ما عن التعصب الديني كما هو معروف اليوم، لربما بسبب العائلة نفسها التي نشأ فيها، أو ميل شخصي لديه، الله

أعلم. أما (هداية)، زوجته، فكانت تفكر بطريقة مختلفة، إذ رأت في كل ذلك ملاذاً وحماية، بل حتى شعرت أنها تستطيع أن تربي ابنها "في تلك البلد بطريقة تليق بأخلاقنا وديننا"، كما كانت تردد أمام لامبالاة (سمير) الذي كان يتطلع إليها وكأنه يستمع إلى مزحةٍ.

كان الفكاك من أسر هؤلاء أمراً يقض مضجع الرجل، إلى أن أتت الفرصة بعد أقل من سنة للعمل لدى مركز الدراسات، فترك المنزل في الحال وسكن في منطقة بعيدة، ثم غير اسمه بعد أن استطاع الحصول على الجنسية الأمريكية مع عائلته. مع الوقت، أخذ (سمير) يشعر أن الحياة بدأت تتفتح أمامه شيئاً فشيئاً ويفوح عطر ورودها؛ أخيراً أمكنه أن يتنفس الصعداء، وينطلق بالطريقة التي يعتقد أنها الأنسب بالنسبة له. دخل (عمر) الصغير إلى مدرسة أمريكية خاصة، بينما رفضت (هداية) العمل في البداية معللة السبب برغبتها في تكريس الوقت كله لابنها وله. لم يمانع (سمير) رغبتها فتركها تتدبر بُعدها عن الوطن بطريقتها، ومن دون ضغط منه، مردداً بينه وبين نفسه "أأكون أنا والغربة عليها"، وهكذا أعطى جُل طاقته وانتباهه لبناء مستقبله البحثي، بينما كانت المرأة تحلق في أفق آخر تماماً. لم تقطع (هداية) علاقتها بهذه المجموعة "المتأسلمة"، وإنما تحولت مع الوقت إلى عضو فاعل فيها، إذ تركت ابنها يتربع كل جمعة على أرض فرشت بسجاد عجمي مع جموع المصلين في الجامع الصغير في منطقة "أناهايم" الكاليفورنية، إحدى مدن لوس أنجلس، ليستمع إلى الخطب والأحاديث المتطرفة التي لا تنتهي. اشترت له قرآناً باللغتين العربية والإنكليزية، والكثير من الأقراص

التي أخذت تصدح طوال الليل والنهار بالسور المرتلة، والأغاني الدينية، كما طلبت منه المواظبة على دروس الدين بعد صلاة الجمعة، "لأن هذا يبعدك عن الرذيلة في هذا البلد ويقوي مناعتك في وسط قذر". كان (سمير) غافلاً عن كل هذا كلّيةً، وذلك بسبب حنكة (هداية) في إخفاء تحركاتها عنه، وتحركات ابنها.

حين بلغ (عمر) الرابعة عشر من عمره بدأت تحولات المراهقة تظهر عليه؛ نمى شارباه قليلاً فوق فمه، وملأ حب الشباب جبهته، وازداد طوله حتى اقترب من قامة أبيه. مع ذلك، لاح سلوك الولد غريباً (لسام) فهو نادراً ما يخرج من غرفته كما لم يره مرةً واحدةً يلبس بنطالاً قصيراً مثل أقرانه حتى حين تنزل الشمس وتتمشى بين الناس في صيف لوس أنجلس القائظ. حاول أن يفتح شهية الولد للحديث عن صديقاته في الصف، أو يحرك فيه شيئاً من ولدنة المراهقة بأسئلة صغيرة، لكن (عمر) كان يبقى واجماً إلى أن خرج عن طوره مرةً، وقام بالدخول إلى مكتب والده المنزلي في غيابه، وحطم بمضرب "البيسبول" خاصته كل زجاجات "الويسكي" و"الكونياك" التي يحتفظ بها (سام) في خزانة صغيرة إلى جانب طاولة مكتبه. لم يكتف بهذا، وإنما خرج إلى باحة البيت الخلفية، وأخذ بتحطيم سيارة والده الثانية المركونة في مرآب المنزل، وكل ما يراه أمامه من دون تمييز. لقد فقد السيطرة على نفسه، ثم وقع على الأرض منهاراً باكياً.

في تلك الأثناء، كانت (هداية) خارج المنزل و(سام) في عمله، لكن الجيران الذين رأوا ما حصل، اتصلوا بالشرطة التي اتصلت

بدروها بوالده لكي يحضر. حين وصل (سام)، ذهل مما رأى ومما سمع عن الواقعة من الشرطي المدجج. لقد أصبح كل شيء مكشوفاً أمامه ومفهوماً. كان الصبي يلوذ بنفسه متقوقعاً على الأرض، منكساً الرأس، بينما كانت تكرج دموعه المالحة بصمت فوق خديه. لم يكن يجرؤ على التطلع إلى والده وهو يجيب على أسئلة الشرطي الذي كان يباعد ما بين ساقيه، ويتحسس مسدسه فوق خاصرته اليمنى، أمام قلق (سام) وصدمته.

- لماذا قمت بتحطيم زجاجات الخمر في مكتب والدك ولماذا حطمت سيارته؟

- لا أعرف..!!

- هل هناك مشكلة شخصية بينك وبينه؟ نريد أن نعرف، هل يضربك، هل يتحرش بك جنسياً؟... هل كان يعنف والدتك؟

- لا...! لا....!!!

- إذاً؟..... إذاً رفضت أن تقول السبب الحقيقي، فسوف نعين لك اختصاصياً اجتماعياً، وسوف نحيل الموضوع كليّةً إلى الجهات المختصة.

- أنا لا أريد لأبي أن يتناول الخمر. هذا كل شيء...!

عرف (سام) ما يدور في خُلد ابنه حتى ولو لم يتفوه بكلمة. لقد فهم لمَ كان (عمر) مختلفاً وحزيناً ومقطباً وعصبياً كل الوقت. لكن من أين أتى كل هذا! كيف لم ينتبه له، بل كيف لم تنتبه والدته وهي تقضي معه كل وقتها؟ هكذا كان يتساءل متطلعاً بابنه بصبر كاد أن ينفذ، منتظراً اللحظة لكي ينفرد فيها معه ويفهم أكثر.

لقد استطاع أن يقنع الشرطة بصعوبة بالغة أن تترك الأمر له لكي يحله بنفسه، ووعدهم أنها ستكون المرة الأولى والأخيرة، مطبطباً على رأس (عمر)، وماسحاً على شعره، بل حتى ركع أمامه وقبله واحتضنه ليخفف من توتر المشهد.

في مساء نفس الليلة، حكى (عمر) المنهار لوالده هذا التضارب المؤلم الذي يشعر به كلما ذهب إلى المدرسة، وتحدث مع رفاقه الكفرة، أو رأى زميلاته في الصف بتنانيرهن القصيرة، ودلعهن "الغير محتمل". حكى عن ضيقه من "منظر" شجرة الميلاد في الصف كل عام تشتعل وتنطفئ، وكذلك عن " ذله" حين يضطر للانكسار أمام أصدقائه لكي يقدم لهم التهاني "بأعيادهم". قال له إنه لم يكن هناك خيار أمامه إلا التفوق عليهم في الدراسة فيتوقفوا عن التطلع إليه وكأنه قادم من عالم أدنى وأقل قيمة. إنه يتحدث الإنكليزية من دون لكنة، لدرجة أطلقوا عليه اسم " شكسبير" لطلاقته وفصاحته. لكنه، كما ردد أمام صدمة أبيه "مسلم" في الصميم، في اللب، ولن تغير أمريكا الكافرة قيد أنملة منه.

كانت (هداية) تستمع خائفة إلى حديث ابنها مع والده من وراء باب المكتب الذي شهد حادثة التحطيم. لقد حكى (عمر) لوالده عن تردده على الجامع ودروس الدين، وكل نشاط قام به خلال العشر سنوات الماضية بتشجيع من والدته. قال له إنه لا يريد أن يتغير، ولكن يتطلع إلى اليوم الذي يعيش فيه في وسط يشبهه. كانت صدمة كبيرة (لسام)، فهذا الذي أمامه ليس ابنه. إنه كائن لا يعرفه. كيف أمكن له أن يخفي كل هذا الوجع في داخله طوال الفترة الماضية؟

أسئلة كثيرة أجاب عليها بالطلاق من (هداية) في نفس الليلة بعد أن أخذ وعداً منها أن لا تجبر (عمر) على الذهاب إلى أي مكان لا يريده.

لقد أطاعت (هداية) تحت ألم الطلاق والخوف أوامر (سام)، ولكنه كان "قد سبق السيف العذل"، (فعمر) لم يعد قادراً على تصور حياته بعيداً عن صف الدين، أو اللقاء مع الأخوة في الجامع، والحديث في أمور شتى أولها الشريعة وآخرها السياسة، فأخذ يكذب على أمه كما كانت تكذب هي على أبيه، إلى أن انفجر لغم كبير أطاح بالجميع بعد أكثر من أربعة عشر عاماً.

سوق الفاتح

في تلك الليلة، أي البارحة، اهتز هاتف (سام) الخليوي عدة مرات في الواحدة بعد منتصف الليل. كان الرجل نائماً بالقرب من زوجته الأمريكية (نانسي) التي شغلت لفترات طويلة منصب الملحق الثقافي والعسكري في سفارات الولايات المتحدة في كل من الإمارات ومصر، لتعود بعدها إلى التدريس في جامعة "يو سي إل اي" في لوس أنجلس. هناك، وبمحض المصادفة، التقى (سام) بها حين قدمته خلال محاضرة له لطلاب العلوم السياسية. ليس الحب من أول نظرة ما ربط بينهما، لكنه شغف جنسي غير مفهوم كلّلاه بالزواج، وأثمر عن ابن هو اليوم في الرابعة عشرة من عمره.

تطلع (سام) قلقاً إلى الهاتف، فرأى اسم (هداية). رد في الحال. خرج صوتها مرتجفاً خائفاً إلى درجة الذعر:

- (سمير).. أرجوك... يجب أن تأتي الآن!

- ماذا حصل؟ هل أنت و(عمر) بخير؟

انتحبت (هداية) على الهاتف كما تفعل الأم المفجوعة. لم تستطع الكلام، وإنما كانت تبكي بقهر من دون القدرة على التوقف. أقفل الخط وأسرع إليها. في مطبخ (هداية)، وتحت ضوء خافت

أصفر، استمع (سمير) إلى مصيبته تخرج من فم زوجته السابقة المرتجف، وعقلها الذي شله الشعور بالذنب:

- قال لي إنه يريد أن يحتفل بإنهاء الماجستير لمدة ثلاثة أيام مع صديقه في مدينة سان فرانسيسكو. أخذ معه حقيبة يد صغيرة واستقل سيارة أجرة إلى محطة القطار. قال إنه لن يغيب كثيراً، وإن اضطر إلى ذلك، فسوف يتصل بي. منذ ساعة فقط، وصلتني رسالة صوتية منه على هاتفي يعلمني فيها أنه في إسطنبول، وأنه يريد الانضمام إلى مجاهدي تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا. جُننت. لم أعرف ماذا أفعل، ولم يظهر مصدر الرسالة على هاتفي. اتصلت بك في الحال.

ضربة قوية نزلت على رأس (سمير)، بل إنها الضربة القاتلة هذه المرة. لم تقوَ (هداية) على النظر إليه. تعرف أنه خطؤها منذ البداية. استمرت في البكاء الخافت، وتحريك رأسها مثل الدراويش يميناً وشمالاً طرباً بالأنين والوجع. العالم يقف على طرف هاوية بالنسبة لهما. العالم انتهى.

* * *

وصل (عمر) إلى مطار إسطنبول حليق الذقن، يلبس "جينزاً" عصرياً، و"تي شيرتاً" ملوناً. لقد بدا كسائح بكاميرته الاحترافية المتدلية من عنقه، وقبعته القطنية الزرقاء ونظاراته الملونة. حين أصبح خارج باب المطار، كانت هناك سيارة أجرة صفراء عادية بانتظاره لكي تقله. في الحال، وحالما وضع حقائبه واستراح في مقعده، انطلقت به السيارة إلى مكتب خاص يقع في منطقة "فاتح" ذات الطابع المتدين، والتي تعتبر قلب إسطنبول الحقيقي وذلك قبل

أن تبدأ المدينة بالتوسع منذ بداية القرن التاسع عشر وتصبح على ما هي عليه اليوم. في الفاتح تجد الجماعات الإسلامية بمختلف طوائفها وقفاً ومرقداً لها فيها، وكذلك أولئك الذين رأوا فيها حضناً دافئاً للجهاد بما يرضي الله. فيها أيضاً حي "بلاط"، على ضفاف القرن الذهبي[16] الذي كان في السابق مركزاً ليهود المدينة، وكذلك حي "فنار"، حيث تقع البطريركية المسكونية، ومركزاً سابقاً ليونانيي المدينة. حتى الغجر يسكنون "الفاتح" في "سولوكوليه"، بفنانيهم وراقصيهم وموسيقييهم.

نزل (عمر) مع السائق الملتحي أمام باب سوق الفاتح المقبي القديم، ثم أكملا طريقهما مشياً على الأقدام مخترقين هذا البازار المزدحم بالبشر والبضائع والسياح، والطافح برائحة التوابل، والمكتظ بالنحاسيات المستقرة فوق رفوفها البرانية، والسجاجيد والذهب المشغول، ثم ما لبثا أن اختفيا في هذا العماء المادي. في منتصف السوق، وبجانب أحد محلات الألبسة، دلف الرجلان من باب معدني أخضر منخفض، ثم هبطا سلماً صوانياً قديماً باتجاه فضاء مكتب مبرد كان خاناً للبضائع فيما مضى يقع تحت أرضية السوق. ما إن دخلا في هذا الفضاء المعتم البارد حتى هرع رجل ملتح آخر من وراء مكتبه، و تقدم باتجاه (عمر) مرحباً به بإنكليزية مطعمة بلكنة تركية. احتضنه الرجل بقوة، وربت على كتفه مرات قائلاً:

---

(16) **القرن الذهبي:** عبارة عن شبه جزيرة في إسطنبول الأوروبيَّة ويقع فيها قصر الباب العالي ومسجد السلطان أحمد وآيا صوفيا. يُقسّم هذا لمصبّ على هيئة قرن إسطنبول الأوروبية. وهو إحدى أفضل الموانئ الطبيعية في العالم، كان في السابق مركزاً للقوات البحرية البيزنطية والعثمانية ومصالح الشحن التجارية.

- Welcome, hero... May God grant us victory against our blasphemous enemies.[17]

ثم احتضنه مرة ثانية، وربت على كتفه من جديد، بينما امتلأت عينا (عمر) بالدموع من فرط الانفعال والتأثر.

قال الرجل (لعمر) إن مرافقه سوف يرتب معه كل التفاصيل حتى وصوله آمناً إلى يد المجاهدين في سوريا. أخذ صورة عن جواز سفره، ومعلومات أخرى، وأعطاه أربعمئة دولاراً، ثم ودعه مرة ثانية غامزاً بطرف عينه لسائق الأجرة الذي كان ينتظر جانباً شابك الكفين. "... سأبقى معك إلى أن تصل إلى غازي عنتاب. لا تقلق، كل شيء سيكون مرتباً، والأخوة سيكونون بانتظارك هناك وهم سيتولون بقية الرحلة". هكذا قال له مرافقه وهما يخرجان من باب الحديد الأخضر إلى ضجيج السوق، ثم أكمل:

- لا بد أنك جائع.. هيا لنأكل... المطاعم كثيرة والأكل وفير والحمدلله.

شعر (عمر) بشيء من الارتياح بعد تعب رحلته الطويلة. منطقة الفاتح تختلف عن لوس أنجلس أو أية مدينة أمريكية أخرى عرفها. تكاد هنا تتجسد الفنتازيا الشرقية في عقله بتفاصيلها وتمشي على قدمين من إغواء. كأنه يسمع نفس الأصوات، ويرى نفس الوجوه التي كانت ترن في أذنيه، وتتراءى أمام عينيه في ظلام غرفته حين كان يمضي الليالي البيضاء الطويلة يخطط للسفر إلى سوريا. كأنه يسمعها حية، حقيقية وقريبة إلى حد الاختراق.

(17) الترجمة: مرحباً بك أيها البطل، ليمن الله علينا بالنصر على أعدائنا الكفرة.

يبتعد مطعم "مأكول الهنا" لصاحبه السوري عن المكتب الذي غادراه للتو، "شلفة حجر". إنه يلتحم مع بوابة مسجد الفاتح حيث يختلط زبائن الأول بزوار الثاني، بينما تعلو موسيقا عربية ذاع صيتها في تركيا تؤبن ضحايا "ميدان رابعة"[18] في مصر. رأى (عمر) كيف يتمتم بعض رواد المطعم كلمات هذه الموسيقا عن ظهر قلب، وكأنهم يشعرون بالحماية والحرية في وسط صديق. قال لهم النادل الذي يلف كوفية حول رقبته بعد أن دفع بطبق الكباب المشوي أمامهما بحرفية وسرعة، إن أغلب الزبائن من السوريين، كما أنهم يستقبلون عرباً وأتراكاً وأجانب من جنسيات مختلفة. ثم أكد بتقوى "الحمدلله، العمل متوفر لنا في إسطنبول. الحكومة التركية لم تقصر. انظر إلى شوارع الفاتح ومحلاتها تجد أن يافطاتها كتبت باللغة العربية أيضاً. والله نشعر أننا في أوطاننا".

أكل (عمر) بشهية بينما كانت الأفكار تروح وتجيء في رأسه مثل حركة يد نساج على نول قديم. أكل وكأنه يخبئ مونة لأيام لا يعرف كيف سيكون لونها أو طعمها. شهيته فضحت برعم عدم الأمان الصغير الذي أخذ يومئ برأسه من بين أمواج أفكاره التي لا تهدأ. كأن الأحلام هي في موقع عال، مخبأة في ملكوت العقل والروح، ومصانة بالشغف، ومحمية بهالة جاذبيتها الخاصة، لكن حالما يبدأ المرء في تحقيقها، فإن بياضها يتلوث بوحل الأرض، تحت، حيث أسفل السافلين.

---

(18) **ميدان رابعة العدوية**: أحد ميادين مصر ويقع في مدينة نصر شرقي القاهرة، واتخذ شهرة واسعة بعد اعتصام مؤيدي الرئيس الأسبق محمد مرسي في الميدان قبل وبعد الانقلاب العسكري في يوليو 2013. وقد سمي بهذا الاسم لوجود مسجد رابعة العدوية فيه، وهي متصوفة عاشت في القرن الثاني الهجري. ويكيبديا.

لم يستطع (عمر) النوم رغم ثقل فرق الوقت على جسده. كان توتره يتصاعد من دون سبب واضح. لقد أوصله السائق إلى فندق في قلب الفاتح، وصعد معه إلى غرفته، وتأكد من أن كل شيء على ما يرام، ثم طلب منه أن يكون مستعداً للسفر إلى غازي عنتاب بالطائرة ظهر اليوم التالي. أوصاه أن ينام جيداً لأن يوم الغد سيكون متعباً وأن لا يقلق، فالأخوة، كما أكد، سيكونون في انتظاره وهم يعرفون ماذا يفعلون.

بعد ليلة بيضاء أخرى، وجد (عمر) نفسه في سيارة الأجرة مع مرافقه باتجاه مطار إسطنبول مرة ثانية، ومنه إلى غازي عنتاب. كان يتطلع إلى الدنيا من وراء زجاج السيارة بعيون أطفأها التعب والتشتت، حتى حديث السائق أخذ يصله كأضغاث أحلام بينما كان القرآن المرتل يصدح من راديو السيارة بخفوت.

أمريكي ابن أمريكي

لم ينم (سام) تلك الليلة. لقد قاد سيارته عائداً إلى منزله مع خيوط الفجر الأولى بعد أن طمأن (هداية) أنه لن يهدأ قبل أن يعثر على (عمر)، ويعيده إلى أمريكا. كانت لوس أنجلس وكأنها تستفيق على مئة شمس صاعدة، عندما اندس في سريره الزوجي منهكاً. لقد جندوا ابنه أولئك الذين طالما كان حذراً منهم، ولا يطيق ذكرهم. كان عارفاً أنه كمسلم لم يكن بحاجة لوسيط بينه وبين الله. حين كان يركع مصلياً من وقت لآخر، وبدافع رغبة حقيقية جارفة، لم يكن بحاجة لقرع أي باب أو التوسل للحجاب. كان يقول كلمته متيقناً من أنها وصلت. أما اليوم، وأمام مرآة الحمام بينما (نانسي) ما زالت نائمة، أخذ يتطلع إلى وجهه المصفر، وكأنه يراه لأول مرة. تذكر مثلاً شامياً عامياً يقول "اللي خايف منه قاعد عليه"، فضحك في سره مدركاً أنه غُلب في ابنه، غلبه الفهم الشعبي للدنيا، انتصرت حكمة الأسلاف على عنجهية هذه "الببيون" التي طالما اختال فيها ظاناً أنه أمريكي ابن أمريكي. اليوم هو بحاجة لطوب الأرض لا ليشتكي فقط، وإنما لكي يحظى بالمساعدة. ابنه البكر، شكسبير جامعة "يو سي إل ايه"، كما يسميه أساتذته في قسم الأدب الإنكليزي، وحيده

الذي أتى يقيناً من صلبه وصلب امرأة عربية، هو اليوم في مكان ما بعيداً عنه ربما يتهيأ لكي يلف خصره بحزام ناسف، أو متلطٍ وراء جدار شبه مهدم، وسلاحه على كتفه مصوب على عدو لا يعرفه، ولا يعرف لماذا يطلق النار عليه. كل الصور هجمت على عقله، وكل الاحتمالات اشرأبت أعناقها حوله بينما كان يتطلع إلى وجهه المنهك في مرآة الحمام.

(لقد جننتني القصص التي كنت أقرؤها كل يوم عن الحرب، دخلت إلى عقلي مثل قضيب معدني لولبي وحفرت فيه صعوداً وهبوطاً، يميناً وشمالاً، حتى شعرت أن دماغي مفتت. نشرات الأخبار، الأغاني الوطنية، وصوت والدي على الهاتف وتنهداته، كلها تحفر هي الأخرى، بأدواتها الخاصة، حفراً غريباً في هذا العقل الذي لا يهدأ. كل يوم أستفيق على خبر أو قصة جديدة، كل يوم يكبر الفالق بيننا، بين الأب وابنه، بين الزوج وزوجته، بين أولاد العم والأقرباء والجيران، فالق إنساني عميق. وإذاً، لِمَ ألقي بالاً لخلافي مع الدكتور (فاضل)؟ ولمَ يجعلني أضطرب هذا الشعر الذي يلقيه من وقت لآخر على مسامعنا، بينما تداعب يده كأس "الويسكي" تحت طاولة مكتبه؟ ولم يقلقني تهجمه على سوريا أو توصيف ما حصل على أنه محض "ثورة" لإصلاح البلد؟ يجب أن لا أترك نفسي بعد الآن لاستفزاز من يختلفون عني حتى ولو كانوا أعدائي. لقد نزعت عني الحروب على سوريا أهم صفة لدي؛ أن أكون امرأة، أن أقف أمام المرآة طويلاً، أن ألبس على مهل، وأضع الكحل على مهل، أن أفكر بقصة حب تنتهي إلى الزواج، أو حتى قصة حب

سرية قصيرة من دون هدف، أن أقضي بعضاً من الوقت الثمين في عمل لا شيء أو شرب القهوة مع الصديقات. جردتني الحروب من مواصفاتي كأنثى فأبعدت عيني عن هذه الزواريب التي أحبها في "جوانيتي" والتي كنت أركن إليها متى لاح في الأفق قلق ما، أو فرح ما، أو حتى رجل ما. أصبحت كلما خلعت ملابسي، شعرت كم أفتقد نفسي، وكم أغمضت عيني عن أشيائي الصغيرة؛ لون شعري، رسم حواجبي، تلوين أظافري، وحتى إيجاد الوقت لشراء ما لا احتاجه من الثياب الداخلية والحلي. تُرى هل هو فقدان الاهتمام أو ربما الخجل، في هذه الفترة المحمومة بالاقتتال وضياع الوطن، من أن أبقى ذاتي وكأن شيئاً لم يحدث حولي؟ الأنوثة تخجل من نفسها في الحروب. تشعر أنها رفاهية بحتة، أمرٌ غير لازم أو حتى مجرد أشنة خضراء نمت فوق صخرة رطبة قرب البحر. كأن الأنوثة هي لوقت السلم والبحبوحة حيث بإمكان المرأة أن تتباهى بالكسل والدعة، أو الاستلقاء الحر مثل سحلية هامدة على جدار حار.

حتى وأنا أقود معركتي الخاصة من جامعة دمشق، معركة أن أعطي لطلابي أفضل معرفة يمكن أن يطلبوها، كنت امرأة أتعاطى مع الدنيا بشيء من التراخي سببه الاستقرار. لقد سمحت لي الحياة في الشام بذلك، ودللتني كامرأة. لكن ما إن انطلقت أول رصاصة في سماء البلد، حتى شعرت بالياس يدب إلى قلبي، والتصحر يفرد جناحيه كنسرٍ محلقٍ بتحدٍ فوق جواريري وخزائني وكتبي. كلها بدت سخيفة لا قيمة لها أمام أكثر شيء تحبه ينهار أمامك ويتداعى. لا يقدر الوطن المسكين أن يفهم لغة الأنوثة في وقت الحرب. إنه يريد

أن يبقى على قيد الحياة، والأنوثة بتجلياتها الناعمة لا تخدم هذا الهدف كثيراً. لربما علي أن أقوم بتعديلها، بتخفيفها، بقولبتها لكي تتطابق مع قادم الأيام. إن الحروب الكثيرة تعيد برمجة المرأة، فتجعلها تراجع أولوياتها، وتنتبه إلى جوهر الحياة وقيمتها، وهي بذلك تتوقف عن الصعود إلى أعلى بأغلال الحلم والخيال، وإنما تتوغل في الوحل الحقيقي للوجود).

دخلت (أميرة) صباح ذلك اليوم إلى مكتب (فاضل الهاشمي) فرأته جالساً مع الدكتور (حمد) الذي لم تقابله إلا مرة واحدة خلال حفلة التعارف يوم قدومها. شمت رائحة السيجار الممزوجة بعطر أوروبي غالٍ، وشعرت من أول لحظة باسترخاء الرجلين في أرائكهم الجلدية السمكية. كانت السلسلة الذهبية حول رقبة (حمد) تلتمع كلما تحرك قليلاً، أو مال باتجاه فنجان قهوته يريد تناوله. لقد رحبا بها وكأنها تسلية أتتهما في الوقت المناسب. قال لها (فاضل):

- الدكتور (حمد) يا ستي نادراً ما يأتي إلى المركز. حظك حلو. تعالي شاركينا القهوة.

ما إن همت (أميرة) بالجلوس حتى دخل (سام) مسرعاً، ووقف في منتصف الغرفة يتطلع في الجميع بهلع. قال من دون مقدمات أن ابنه في ورطة كبيرة، وأنه يريد مساعدة في الحال. جلس منهاراً، ثم بدأ بسرد ما حدث على مسامع كل من في الغرفة. هبط صمت ثقيل على الجميع ما لبث أن قطعه (حمد) بابتسامة استخفاف قائلاً:

- يا أخي أنت ليه مكبر الحكاية. خليه يروح. ويش فيها!! مثلو مثل أخوانو... هاد بدل ما تشجعه وتدعيله يرجع منتصر! أنا لو

مكانك لكنت جبت بطريقي وأنا جاي بقلاوة ووزعتها على الكل.. لا والله كنت حتى جبت طبل وعملت حفلة للصبح... مالك مكبر الحكاية يا رجل؟ استهدي بالله، إنشالله يرجع منصور على الكفار. ابنك بطل. هذه مفخرة ومش مصيبة. أنا لو كنت أبوه لكنت افتخرت باللي سواه قدام كل خلق الله. ولا.. أنت إيه رأيك يا دكتورة (أميرة)؟

(وقع كلام (حمد) كالقنبلة النووية على رأس (فاضل) و(سام). أما أنا فكنت أتحسس عمود نير الجواميس بينما كان غضب الدنيا على وجهي. صفة أخرى من صفات الأنوثة راحت إلى غير رجعة؛ الدبلوماسية. تطلعت في هذا الحمد بعيون مفتوحة وقلت له:

- تقصد لا بأس أن يذهب إلى سوريا لكي يدمرها! تقصد لا بأس أن يفقد حياته من أجل هدف تخريبي عبثي! تقصد لا بأس أن يخسر الأب ابنه في أرض لم يزرها مرة واحدة، وارتباطه الوحيد بها أنه مسلم؟... شو قصتكم أنتم!!

لم يدعني (فاضل) أكمل بحركة عصبية من عينيه. فهمت أنه لا يريدني أن أتورط أكثر مع هذا الرجل. حاول أن يتدخل مخففاً من وقع كلامه وكلامي. قال أشياء لا معنى لها، ولفظ الكثير من كلمات الاعتذار حتى أنه أخذ ينقل يده من كتفي إلى كتف (حمد) معتذراً ومهدئاً. شعرت أنني أحضر مسرحية عبثية في مستشفى للمجانين. لم تعلمني الشام هذا التطرف رغم كل مصائبها!

استطعت أن أنفرد (بسام) مرةً أخرى في نفس اليوم خارج المركز في مقهى قريب. أخذ يبكي مثل طفلٍ صغير. لقد مس حريق سوريا طرفه ووصل إلى القاع. تركته ينتحب وأنا صامتة إلى أن

هدأ. نظرنا في عيني بعضنا البعض بكثير من الفهم. الآن، في هذه اللحظة عرف أن الحقيقة ليست لديه، وقد لا تكون كاملة لدى أحد. لقد وجدت الجرأة لكي أمسك يده وأربت عليها برفق، وأنا أتطلع فيه بمحبة لكي يعي أنني أفهم ما يشعر به، وأعرف ما يمر في خاطره. طلبت منه أن لا يقول لزوجته ما حصل، وكأن المصيبة سمحت لي بالقفز فوق كل الاعتبارات والحدود الاجتماعية بيننا. أصبحت أقرب له من (نانسي) في لحظة هاربة من الزمن. قلت له دعنا نحل الأمر بيننا، نحن عرب، لكن (نانسي) لربما كانت لها حسابات أخرى. عض على شفتيه وقال أنه لم يكن هناك مفر من إخبارها. لقد عرفت كل شيء. لقد رأته منهاراً عندما عاد الفجر إلى البيت. حين أخبرها ما حدث لم تتفوه بكلمة وإنما مسحت على ظهره مرتين وقطبت جبينها ثم عادت إلى النوم. قال إنه في تلك اللحظة شعر أنه وحيد تماماً في غربة راوغ كثيراً ولسنوات طوال لكي يقنع نفسه أنها ليست كذلك. نام على جنبه ساعتين بعيون شبه مفتوحة قبل أن يأتي هذا الصباح إلى المركز. لقد حكى كثيراً . أخرج كل ما في عقله دفعة واحدة، كمن يتقيأ بسبب تسمم ما. تركته يفعل يقيناً مني أنه بهذا قد يشفى وينظف).

أحمد برجكلي

وصل (عمر) برفقة السائق الذي أقله من المطار إلى قلب مدينة غازي عنتاب التركية التي تبعد أقل من مئة كم عن مدينة حلب في سوريا. كانت غازي عنتاب واحدة من المدن الشمالية السورية قبل أن تعطى لتركيا عام 1920 وفق اتفاق بين هذه الأخيرة وفرنسا حينذاك. كان مرهقاً، وعقله شبه غائم، لكن حماسه كان غالباً على تعبه. قال له السائق وهما يتجهان صوب خليج إسكندرونة[19] على البحر المتوسط إنه سيبقى في معسكر بحري لمدة أسبوعين، من بعدها سيتم نقله إلى سوريا عن طريق الريحانية[20]. سأله أيضاً إن كان قد جلب معه ما يكفي من الأموال من أجل شراء سلاحه

(19) **خليج إسكندرونة**: يقع في الزاوية الشمالية الشرقية للبحر الأبيض المتوسط. وهو المنفذ الطبيعي لمدينة حلب على هذا البحر. هو أيضاً الواجهة البحرية للواء إسكندرون. مساحته 5400 كم، وهو آخر ما استولى عليه (كمال أتاتورك) من سوريا عن طريق مؤامرة بين تركيا وفرنسا في نهاية الثلاثينيات. يمر فيه نهر العاصي قبل أن يصب في البحر المتوسط. قيمته المعنوية والتاريخية بالنسبة للسوريين كبيرة جداً وذلك لأن مدينة أنطاكية التي كانت العاصمة السورية في العصور المسيحية تقع فيه ولا يزال في أنطاكية مقرات الكنائس السورية.

(20) **الريحانية**: هي إحدى مدن لواء إسكندرون. تقع في سهل العمق على الطريق الواصلة بين حلب وأنطاكية. تبعد 5 كم عن الحدود الحالية بين سوريا واللواء عند معبر باب الهوى في محافظة إدلب.

وثياب القتال وأجور الفنادق والانتقال، فطمأنه (عمر) على أن كل شيء متوفر لكنه يريد الذهاب إلى سوريا اليوم قبل الغد. شرح السائق لمَ التدريب على القتال أمر لازم قبل الانطلاق للانضمام إلى المجاهدين. قال له إنه سيتعلم أشياء أخرى في المعسكر مع آخرين قد لا يكونون من نفس الفصيل الذي سيحارب معه، وإنما من فصيل معاد. قال أيضاً إن أغلب الذين يأتون إلى المدينة لهذا الغرض يتدربون هنا، وينطلقون إلى القتال في سوريا، وهناك، قد يجد الرجل نفسه في مواجهة رجل كان أخاً له في المعسكر، بينما أصبح عدوه اللدود في ساحة الجهاد! لقد كان السائق مقتنعاً بما يقول، متبلاً حديثه بالآيات القرآنية من وقت لآخر، ومشدداً على أنه خلال التدريب سوف يتعلم كيف يكون مقاتلاً وليس قاتلاً. ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه (عمر) لدى سماعه حديث الرجل، وشعر أنه لم يخطئ في قراره، وأنه حتماً يتوجه إلى المكان الصحيح حيث يمكنه أخيراً أن يكمل كل دينه؛ "فيذبح المختلف عنه بما يرضي الله".

دلفت السيارة إلى حي صغير يقع جانب الطريق الذي تسلكه باتجاه المعسكر بعد أن شعر (عمر) بالجوع فجأة، وطلب التوقف لتناول الطعام.

- هناك مطعم سوري أعرفه جيداً، وهو ليس ببعيد عن المعسكر. عليك أن تأكل كثيراً وتشبع من اللحم لأنه متى حانت ساعة القتال، فلن يكون بمقدور المجاهد أن يحظى بوجبة ساخنة متى يشاء. قال السائق ممازحاً.

حين وصلا، وجد (عمر) أن المطعم شعبي وضيق، لا يتسع

إلا لطاولتين صغيرتين وأربعة كراسي. كان هناك رجل يقف وراء مشوى اللحم يحرك جريدةً لإبعاد الدخان المتكاثر، بينما قام شاب آخر من وراء حاجز زجاجي صغير بتقطيع الخضار. طلب السائق من (عمر) إحضار بعض الخبز من بائع يقف على زاوية الشارع بينما يتكفل هو بالباقي.

اتجه (عمر) بخطوات سريعة إلى الزاوية التي يقف على ناصيتها بائع خبز لا يتجاوز العشرين من عمره. ستدفع الدنيا بقدميه إلى ناصيات كثيرة رغماً عنه خلال رحلة حياته. وإذا أردت أن أكون أكثر دقة، أقول إنه الله وليست الدنيا، الله الذي ظنَّ أنه تعرف عليه من الكتب الكثيرة التي كانت تحثه (هداية) على قراءتها، وهذه الناصية هي واحدة منها بلا شك.

حين اقترب (عمر) من البائع قال في نفسه "أعرفه". كأنه رآه في مكان ما، في حلم ما..! لكن الصبي عاجله بالقول من دون أن يتطلع إليه، إن الرغيف الواحد بنصف ليرة تركية، وإنه لن ينزل فلساً واحداً. دفع (عمر) بعجالة ضعف ثمن الرغيف طامعاً أن يرفع الصبي رأسه ويتطلع به. "أعرفه.. أعرفه" هكذا كان يردد في سره إلى أن مد الصبي يده بكيس الأرغفة متطلعاً إليه. في تلك اللحظة، أدرك كلاهما أنهما يعرفان بعضهما البعض. صرخ الصبي "عمو (عمر).. أنا (أحمد)، (أحمد برجكلي).... أتذكرني! كنا نلتقي معاً في الجامع في لوس أنجلس. كنت أنا صغيراً. أنا ابن (حيدر برجكلي)، أتذكر والدي؟ كنت آتي معه إلى الجامع كل يوم جمعة. كنا نجلس باتجاه العمود الكبير!

طبعاً يتذكر (حيدر برجكلي) وابنه، وكل من كان يأتي إلى الجامع. احتضن (عمر) الصبي بشدة وأخذ يربت على كتفه:

- قل لي ماذا تفعل هنا؟ أين والدك؟ ماذا حدث؟

نكس (أحمد) رأسه كعلم في فترة حداد، ثم أخذ يحدث (عمر) عن الجنون الذي أوصله إلى هذه الناصية بائعاً متجولاً للخبز:

- نحن أصلاً من الرقة، وعدنا إليها قبل أن يحصل في سوريا ما حصل. كان والدي راغباً في العودة بشدة. سمعته يقول لأمي إنه لم يعد يريد البقاء يوماً واحداً في أمريكا. لقد جمع مبلغاً معقولاً من عمله كمهندس، وعزم على العودة لكي يحقق حلمه؛ وذلك بأن يفتح داراً للسينما ومركزاً ثقافياً في الرقة. اندلعت الحرب على سوريا بعد عودتنا بأشهر قليلة، لكن الرقة كانت هادئة في البداية نوعاً ما إلى اليوم الذي دخلت فيه "داعش" إلى المدينة وخربت الدنيا.

بلع (عمر) ريقه عندما سمع كلمة "داعش" لكنه لم يقاطع الشاب الذي أكمل:

- قررنا أن نذهب إلى تركيا وتحديداً إلى مدينة "براجيك" على الفرات، المدينة التي قدم منها جدي لوالدي. لكن "داعش" جندتني أنا وأخي بالقوة، وهكذا بقينا نحن في الرقة، وذهب والداي إلى تركيا واستقر الحال بهما لاحقاً في غازي عنتاب. لقد مرض والدي كثيراً بعد دخول هؤلاء إلى المدينة، ولم يستطع العمل أو حتى بيع أي من ممتلكاته. لقد سافر مع أمي بالقليل من المال، لكننا أنا وأخي كنا نرسل لهما 400 دولار كل شهر من المعاش الذي كانت تدفعه لنا "داعش".

- ماذا حدث بعد ذلك؟

- لقد طردوني بعد أن كفّرت رجلاً رأيته في الشارع. كان حليق الذقن ومطلقاً شاربيه، ويلبس "جلابية" طويلة. حاولت تنبيهه بأن هذا مخالف للشريعة، لكنه بدأ بالصراخ وبشتمي بألفاظ لا تقال إلا لبنات الليل هذا "الواطي". في الحال ذهبت وأخبرت "الحسبة" فأخذوه.

- ولكن لماذا كفّرت الرجل؟ قال (عمر) بشيء من الذعر!

- لا أعرف. هكذا علمونا. قالوا لنا اعتقلوا كل إنسان يخالف الشريعة. لكن ما حصل كان غريباً جداً. لقد أطلقوا سراح الرجل ثم طردوني، وفوق هذا وذاك لم يعطوني دولاراً واحداً. لا أعرف لماذا فعلوا ذلك مع الرجل! كانت الأمور تسير بسهولة دائماً. حين أخبر "الحسبة" عن أي مخالف للشريعة كانوا يأخذونه في الحال، وينفذون فيه "حكم الله"!

لم يصدق (عمر) ما يسمع بل لم يصدق ما رأته عيناه. (أحمد)، الطفل الهادئ الذي كان يتربع بجوار والده في الجامع ثم يغفو في منتصف الخطبة مائلاً برأسه على كتفه، يتحدث الآن إليه كرجل أكل عليه الدهر وشرب! الله وحده يعلم كم من رجل وامرأة تسبب هذا "الطفل" في موتهم، وكم من حياة سلبها من أصحابها!

- لقد جنّنَت الحرب والدي. كره الدنيا، وزهد بها وتوقف عن العمل.. حتى أخذ يفقد ذاكرته شيئاً فشيئاً، فكنا نبحث عنه كل يوم في الشوارع والأزقة لكي نعيده إلى المنزل. أخي قُتل في واحدة من العمليات الجهادية لهم، أما أنا فدبرت هروبي إلى تركيا بعد أن

طردوني. كان علي أن أعمل هنا لنعيش. تعبنا من الفقر والحرب. حين أفكر بمدرستي في لوس أنجلس أشعر وكأنني كنت شخصاً آخر.

سمع (عمر) صوت السائق من بعيد يناديه ويلوح بيده أن تعال. تطلع إلى (أحمد) وقال بارتباك:

- أنا هنا كسائح... إذا كان لي عُمرٌ سآتي مرة ثانية لأراك.

ثم مد يده إلى جيبه وأعطى (أحمد) مئة دولار، ثم احتضنه وذهب عائداً إلى حيث السائق ينتظره في المطعم. كأن قدميه لم تعد تدب فيهما قوة الحياة مثل قبل. شعر أنه يشبه كأساً طافحة بشراب القلق تفيض من كل الجوانب. قتله حديث (أحمد)، هدّه قبل أن يستفتح حياته بالحلم أو الشهادة.

وبينما كان يتجمع الهم فوق رأسه مثل غيوم الخريف المبكر، كانت (نانسي) تجتمع مع أحد رجال "الإف بي آي"[21] في غرفة مكتبها في الجامعة حيث أخذ يدون على ورقة أمامه قصة هروب (عمر).

(21) **الإف بي آي**: مكتب التحقيقات الفيدرالي أو الاتحادي. وهي وكالة حكومية أمريكية تابعة لوزارة العدل الأمريكية، وتعمل كوكالة استخبارات داخلية وكقوة لتطبيق القانون في الدولة.

«مثل درويش مطروب بذكر الله»

كان والد (أميرة) يحتسي "الكونياك" الدافئ كدبٍ عجوز أمام شاشة التلفاز، عندما قامت القيامة حوله تلك الليلة. لقد نزلت الصواريخ على دمشق مثل زخ المطر، ممزقةً بذلك غلالة الهدوء الشفافة القصيرة التي كانت تلفّ المدينة من وقت لآخر. عرفت هذه الصواريخ طريقها أيضاً إلى حلب، واللاذقية، وحمص، ودرعا، ومناطق سورية أخرى بينما كان البحر يلفظ على شواطئ العالم المراكب الصغيرة التي أنهكتها رحلات الأمواج الشاقة، وأنهكت من فيها، فكانوا يرتمون على الرمال المبتلة مثل سمك نافق ما إن تلمس مقدمة المراكب السواحل الآمنة.

"تعبنا كثيراً، تعبنا حتى الثمالة"، قال لها والدها وهو يحدثها على الهاتف بصوت ضعيف، ولسان شلّه اليأس والشراب. "لن يتوقفوا، ولن نتوقف حتى نموت كلانا معاً. تعبنا.. تعبنا كثيراً وتعب الحجر معنا!"

حين أغلقت (أميرة) الهاتف لم يكن لديها وحدة انتباه واحدة متبقية لكي تستجمع هذا العقل الذي قارب على التداعي. ما يقوله لها والدها، ما تقرؤه، ما تراه على الشاشات، ما تسمعه، كله أخذ

يدور في فكرها مثل خلاط كهربائي بأقصى سرعة. هزلت قدرتها السابقة على التحليل، ودخلت معها سن اليأس. حتى عمود نير الجواميس الذي تسلحت به، وأخفته تحت ثيابها، بدا عديم القيمة في حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس. تكرج الدموع من عينيها بسهولة في ظلام غرفتها في ساعات القلق الكثيرة. لا تستطيع النوم، ولا التركيز على العمل. كلمات (حمد) تشعرها بالنار تأكل قلبها. حتى ردة فعل (فاضل) عندما أراد تهدئته تستدعي قرفها.

(هذا الوغد، ممَّ هو خائف!! لقد ضاع العراق بفضل هذه الردود الحقيرة، وترقيع الخطأ والتستر على الفساد. أما دولة (حمد)، فستضيع لأسباب أخرى.. وهكذا سيضيع العرب كلهم، كل بحسب دولته وتركيبتها. أشعر أنني أفقد ملامحي كامرأة في هذه الحرب. أتطلع في المرآة، فأرى كائناً لا أعرفه يشيخ في بؤبؤ عينيه قبل جسده. حتى الطبيعة التي طالما كانت تداوي انهياراتي الناعمة الدورية، أصبحت مثل "حبة الأسبرين" أمام مرض عضال، تمر بالقرب مني ولا تلمسني ببركتها كما كانت تفعل من قبل حين كانت تتغلغل في بقوة وتحدث تغييراً فورياً. الطبيعة أيضاً تألمت من قناعات الناس في بلدي، قناعات أشعلت الحريق في الجمال، وردةً وردةً، وغصناً غصناً، وجبلاً جبلاً. كل قذيفة كانت تقتل معها أسراباً من الطيور المحلقة، وكل صاروخ كان يطيح في طريقه ببساتين تعبت أيدي أصحابها في مداعبة تربتها لتنمو وتتدلل وتطرح خيرها.

إذن، هكذا تأفل الحضارات وتموت الشعوب، وتروح آثارهم في الوحل! إذن، هكذا تذوي الأحلام التي لم تجد الوقت والحب لكي

تتحقق! إننا نكرر أخطاءنا بعمىً كامل، نكررها باستحواذ وهَوَس، ونلوذ بالأدعية والبصّارات وقراءة الكف لكي نعرف المستقبل. أقلت إننا!! من نحن؟ من أية أمم خرجنا وأصبحنا ما نحن عليه؟ كيف تَشَكّلنا؟ كيف وصل هذا العقل إلى حتفه، وتشوهت قدراته وتآكلت؟ من المسؤول؟ أفكار أنام وأفيق عليها، وأدور في فلكها وحول نفسي مثل "درويش مطروب بذكر الله"، يلف ويدور بتنورته العريضة، وشاخصة قبره على رأسه من دون توقف لعله يذوي ويتلاشى ليصبح الحقيقة.

منذ أن فتحت عيني على هذه الدنيا، قالوا لي هذا هو الطريق إلى فلسطين، امشي فيه معنا، وسنصل جميعاً إلى حافة النصر واليقين. قالوا أيضاً إنه طريق الحرية الأبدي. سنرفع رأسنا عالياً حالما نصل إلى نهايته، وسوف تنفجر الدنيا بأكاليل الغار مثل الألعاب النارية في السماء. سنسترد كرامتنا التي طالما دُعس عليها بأقدام عسكرية إمبراطورية، وكذلك كل حبة رمل، وشجرة زيتون قتلها الشوق لأصحابها. رفعت العلم المبارك ومشيت في هذا الطريق إلى يوم رأيت فيه البعض يرمي هذه الراية ويأخذ طريقاً آخر. حين سألت، قالوا إنه "الطريق إلى دمشق". صُدمت، ليس لأن لا طريق موصل إلى دمشق، بل لأن هذه المدينة الكريمة محررة وعزيزة بين يدي أهلها، ولأن السائرين فيه كانوا غرباء لا أعرفهم، ولا أعرف لمَ يحملون ألوية التحرير السوداء! حين سألت عن مصير طريق فلسطين، قالوا "إنه يمر من قلب دمشق، ومن حولها، وفوقها، وتحتها، وإذا لم نصل إليها من عمق دمار أقدم مدن التاريخ، إذاً،

فلن نصل إليها على الإطلاق! كنا مخطئين، واليوم عدلنا المسار. لابأس، سيكون هناك دم مسفوك كثير، وستبكي الأمهات دهراً على أبنائهن، وسوف لن تمحى صور المجازر من عقول الأطفال لأجيال قادمة، لا بأس، فلكل هدف نبيل ثمن يجب أن يُدفع.

"هكذا قالوا، وهم يحثون الخطى باتجاه دمشق!".

* * *

جعلتني (مرام) الغائبة لشهر أطفئ هذا الخلاط الكهربائي الذي يدور في عقلي بقرعها المتكرر على الباب. حين فتحت، رأيتها أكثر احتفالية بعد عودتها من تركيا، بشعرها الياقوتي المصبوغ للتو، وشفتيها الحمراوين المرتجفتين من صخب ضحكة أطلقتها عندما عانقتني. بدت أصغر سناً وهي تدلف إلى غرفة الجلوس وتدور بفستانها "الدانتيل المكشكش"، مثل دمية جنسية صنعت في الصين:

- اشتقتلك كتير يا جارتي العزيزة. شهر كامل في أجمل بلد في العالم.... يا الله شو حلوة تركيا!... عشت أحلى أيام حياتي فيها.

هكذا قالت وهي تتراقص أمامي بفستانها الذي كانت تمسك بطرفيه تيهاً ودلالاً.

- آآآ، نسيت أن أقول لك... سوف أنتقل من هذا المبنى قريباً... اشتريت منزلاً جميلاً بطابقين في الشارع المقابل... يجب أن تريه... لكن لن أنتقل إليه قبل أن يكتمل عمل الديكور ويفرش بالكامل. أنت تعرفين كيف أفكر... أريده مثل قصر صغير لي.

خرجت كلمة "مبروك" من فمي ووقعت على الأرض. لا أعرف ماذا تفعل هذه المرأة هنا! الجيرة أم لأني أشبهها في تكويني

الفيزيولوجي! إن ما يجمعني بها ليس أكثر مما يجمع بين الراقصة "فتحية شرفنطح" و"الأم تيريزا"، أو بين "هيلاري كلينتون" و"جميلة بوحيرد"، أو بين "مريم العذراء" و"مارلين مونرو"...! ليست كل النساء متشابهات، فبعضهن جُبلت فطرتهن مع وحل الدنيا، وأخريات ولدن ونور العالم يخرج من عيونهن. أما هذا العصر المارق، فعرف كيف يصنع امرأة تتأرجح بين هذين الحدين إلى آخر لحظة من حياتها، فتكون قديسة تارةً، ولعوباً تارة أخرى. جعلها هذا العصر منفصمة، نرجسية، بشخصيتين، بل بشخصيات متعددة تركض فيما بينهن طوال الوقت مثل طفل صغير يتعلم المشي. لربما كان فيَّ شيء من هذه المرأة، ربما هذا القسم الموجود في كل امرأة، لكن الحرب لم تترك لي رفاهية الانتقال بين شخصياتي المتعددة المدفونة في روحي، وإنما جعلتني أكثر يباساً وصمتاً بدافع الخجل والاستحياء. ويحدثونك عن الحرب فقل لهم إنها عدو المرأة الأول!

حين سألت (مرام) عن أخبار أولادها، ذوت ابتسامتها شيئاً فشيئاً، وقالت إنها لم تسمع صوتهم منذ شهر ونيف. عرفت وهي في تركيا من صديقة لها مقيمة في دمشق إن ابنتها قد أنجبت. قالت لي إنها بكت كثيراً كثيراً حتى الإنهاك، لكنها حين فكرت بعدم جدوى كل هذا، مسحت دموعها، ورتبت زينتها، وخرجت من غرفتها في الفندق، ولم تعد إليه إلا في صباح اليوم التالي. هكذا تتعامل (مرام) مع فجائعها بسرعة ويسر. تدخل المصيبة إلى كونها الوردي، فتعالجها بالمساحيق والزينة والمجوهرات، تماماً كما تفعل بنفسها وجسدها، لتخرج أخف وطأة وأقل تأثيراً. الأمور واضحة ومحسومة بالنسبة لها،

فالألم لا يقدر أن يقيم طويلاً في بلاط خفتها وشغفها بما تفعل. الألم يموت على عتبة بيتها، ولا يدخل منه إلا ظلاله المبتعدة.

- أنا لم أُخلق لكي أكون أماً. حين كان يبكي أطفالي، كنت أبكي معهم لشعوري بالعجز وقلة الحيلة. تعذبت كثيراً وأنا أمثل دور المرأة المثالية، والزوجة ربة البيت. أنا لم أُخلق لهذه المهمات. أنا فنانة، ولكن ضللت طريقي إلى منزل زوجي، وهكذا قُضي علي. لولا هذا القدر المجنون لكنت الآن أقف أمام كاميرات السينما، بينما اسمي "ملعلع" في سماء هذه الدنيا! حاولت، حاولت كثيراً أن أقبر كل هذا داخلي فلم أستطع. أنا أقدس حريتي. لا أعرف إن ظهر أولادي أمامي هذه اللحظة ماذا يمكن أن أفعل. أنا لست أنا.

هكذا تحدثت (مرام) وهي تبتلع دموعها التي سرحت على وجهها الذي فضح الحزن المؤقت خيوط الزمن عليه. قدمت لها منديلاً فابتسمت بسرعة، ثم ضحكت وعادت إلى صخبها، بل حتى طلبت مني أن أنسى كل ما قالته للتو، وأن أحضر لها فنجان قهوة "ع الريحة".

نمت تلك الليلة من دون حراك مثل جثة هامدة، وصحوت على الهدير البعيد للطريق السريع الذي يصل لوس أنجلس بطرفيها، يتسلل إلى غرفتي مع أول خيوط لضوء النهار. أما في دمشق، فكانت الشمس تأفل بينما الصواريخ تنزل عليها من كل الجهات، وزعيق سيارات الإسعاف المهرولة يملأ فضاء المدينة المتعبة. مدنٌ سورية أخرى حصلت على نصيبها منها، ومن السيارات المفخخة، وانتحاريّ الحوريات. أريد أن أبقى في سريري أفكر. أريد أن أمعن

في الحزن والكآبة قليلاً. أريد أن أبكي لأطفئ هذا التوتر الكبير في روحي. أكره الذهاب إلى المركز بعد مواجهة الأمس مع (حمد). كلماته ما زالت ترن في أذني، أسمعها مع نبرة صوته اللامبالية، وحركة السلسلة الذهبية العريضة المرتاحة حول عنقه. إذا كان هو من يدعم المركز، ويمده بالمال لكي يستمر في الوجود، إذن، فإني أقبض راتبي من أمواله مباشرة. أي فكر كريه يطرأ على عقلي هذا الصباح؟ أية نهاية أرى نفسي فيها؟ يمكن للإنسان أن ينقذ روحه بإرادته الحرة، كما يمكنه أن يوصلها إلى أسفل السافلين كما فعلت أنا بقدومي إلى هنا.

تمر علي (كاثي) مثل كل يوم لتقلني معها. لكن هذا الصباح شعرت بما أفكر به فتوقفت عن الابتسام من دون سبب كما هو حالها دائماً. كابوس (عمر) أهلكَ الجميع. الكل مرتبك مما حصل لابن (سمير الحوابشة)، ويشعر بتواطؤ الصمت ونفاق السكوت. هذه كبيرة الكبائر؛ أن تسكت أو تصمت. المال يفعل فعله في الجميع. لا أحد أكبر من "العملة". فإذا لم تُشترَ بمئة، فسوف تُشترى بألف، وإذا لم تُشترَ بألف، فسوف تركع أمام المليون على ركبتيك. لكل سعره ماعدا ذلك الذي قَبِل أن يموت لكي يبقى وطنه بخير. الوطن مثل ورقة الكشّاف، فضّاح كبير يضع كل شيء على محك حبه. الوطن يطلب منك أن تختار بسرعة من دون لف أو دوران، فإن لم تفعل فأنت انتهيت وانقضى أمرك، وأصبحت مثل "الزبالة" التي تعوم على سطح المياه المتجهة إلى "المجارير".

قالت لي (كاثي) وهي تقود سيارتها "الكاديلاك" القديمة، ونحن

في الطريق إلى المركز، أنها تشعر بي، وتوافق على ما أفكر به، ولكنها لا تجرؤ أن تتحدث بذلك بصوت عالٍ أمام البعض في العمل. قالت لي إن أغلب الأمريكيين يعرفون ما يجري في سوريا تماماً كما أعرف أنا تقريباً، بينما آخرون يصدقون كل ما تقوله لهم وسائل الإعلام هنا. شعرت بشيء من الهدوء من وقع كلماتها. كانت تتحدث بدماثة وصدق. دخل كلامها إلى قلبي فوراً، وأحسست بالألفة أكثر تجاهها. أفهم خوفها. هذا البلد لا يرحم، فإذا خسرت عملك، فهذا يعني أن تتوقف عن دفع أجرة البيت، أو قسط البنك، أو بقية الفواتير الأخرى، يعني أن تصبح مشرداً في الطريق والحدائق العامة. أما في الوطن، فالأمور أكثر رحمة، فحين تسقط هناك تجد دائماً من يتفهم ويمد يد العون، أو يعطيك الوقت اللازم لكي تقف على قدميك. الوطن ليس جنة كاملة أو قطعة موسيقية من دون "نشاز"، ولكنه رؤوف رحيم، يغض الطرف عن بعض شذوذنا، ويقبلنا على عاتقه كما نحن. على الأقل، هذه هي مواصفات الوطن السوري كما أعرفه. لكن الحرب قد أغلقت القلوب لا بدافع القسوة، وإنما بسبب الفقر وقلة الحيلة والتطرف الغبي.

قبل أن أدلف إلى غرفة مكتبي مودعة (كاثي)، دعتني للخروج معها إلى العشاء مساء السبت القادم. قالت يجب أن أروّح عن نفسي قليلاً، وإنها تعرف مكاناً ممتازاً قالت عنه إنه المفضل لديها. وافقت مبتسمة ثم دخلت إلى مكتبي).

* * *

بينما كان الدكتور (إمام) يعقد ربطة عنقه أمام مرآته مهيئاً

نفسه للقدوم إلى المركز صباح ذلك اليوم، سمع قرعاً على باب بيته. حين فتح رأى مفاجأة لم يكن يتوقعها. كانت ابنته (شيرين) تقف في الباب، وفي يدها حقيبتها بينما ظهرَ وراءها صديقها (دايف). هجمت الفتاة على والدها، واحتضنته وبدأت في الحال وصلة بكاء قاهرة:

- بابا أنا جئت لكي أعيش معك.

بكت (شيرين) على كتف والدها لدقائق قبل أن يتمكن من تهدئتها، والتطلع إلى وجهها. حين جلست أخيراً على طرف أريكة غرفة الجلوس المبطنة بالكتان الزيتي، تمكن من أن يعرف كل الحكاية. بعد أن ظهر (إمام) في حياة زوجته السابقة فجأة، شعرت بتهديد لخصوصياتها ولاطمئنانها. في اليوم التالي، دخل صديقها الأسود إلى منزلها بالمفتاح جالباً معه حقائبه، وكلبه الضخم ليقيم معهما. قالت (شيرين) إنها لم تكن تحبه بسبب قذارته وألفاظه البذيئة، وعدم احترامه لوالدتها. لقد كان عصبياً نزقاً أغلب الوقت، لدرجة أنه حاول ضربها مرة لأنها اعترضت على وجوده في غرفتها.

- لن أستطيع العيش في ذلك البيت يا أبي مرة ثانية. كنت أموت ألف مرة وأنا أراهما معاً. كان وقحاً لا يأبه لوجودي أو مشاعري. والدتي غائبة أغلب الوقت. تعبت من العيش لوحدي...!

نظر (إمام) إلى (دايف) وكأنه يسأل "وماذا عنه؟".

- (دايف) لم يتركني.. قرر أن يأتي إلى لوس أنجلس. يريد أن يبحث عن جامعة للدراسة وعن عمل. أنا أيضاً سوف أعمل.

رد (إمام) على كلام ابنته بحركة عطف من يده على رأسها:

- لا تقلقي... سنرتب كل شيء.

(قال لي (إمام) ونحن نحتسي فنجان القهوة في مكتبي أن الدنيا قد قُلبت رأساً على عقب بقدوم ابنته. قال إنها لم تعد طفلة أبداً، وفوق هذا وذاك، جلبت صديقها معها. الولد لطيف، كما أكد، ولكنه لا يستطيع أن يقبل أن يسكن معهما في نفس المنزل. ولكي لا تزعل ابنته، قدم له "الاستديو" الصغير الملحق بالبيت وراء مرآب السيارات لكي يقيم فيه. لكنه مع ذلك، لا يشعر بالاطمئنان كثيراً.

- لكل منا مصيبته يا (أميرة). ربما مصيبة (سام) هي الأكبر. الولد ذهب إلى المجهول وراء حلم دموي أخرق، والله وحده يعلم متى يعود، هذا إن عاد. يجب أن أُهَدِّئَ من روع نفسي. إن المقارنة تجعلني أهدأ. المهم ابنتي أمام عيني، وأنا سوف أقود حياتها من الآن فصاعداً، وهي ستستمع إلي. (شيرين) ابنتي، فتاة عاقلة. إنها تشبهني. الفرق بيننا أنها كبرت هنا، في هذه البلد العجيبة الغريبة، بينما كبرت أنا على شواطئ الإسكندرية الدافئة. أنا عاتب على وطني الذي تركني أحمل حقيبتي وأسافر. كل يوم يكبر عتبي في قلبي. كلُ يومٍ أفيق في الصباح على خاطر العودة لكن عاديات الحياة تأخذني بموجها العاتي، وتقذف بي بعيداً بعيداً بحيث يصبح التذكر وأخذ القرار عملية أصعب من قلع الضرس. إننا نتغير في الغربة يا (أميرة). نصبح أحداً آخر. حتى شكلنا الجسدي يتغير. نأكل كثيراً بسبب عدم الأمان، وتتدلى كروشنا، ويفضح الشيب المبكر قلة الحيلة والتعب والشوق الأبدي في القلب.

هكذا كان (إمام) يتحدث لنفسه أمامي، ناظراً إلي بشيءٍ من

الحسد، وكأنه يقول كم أنت محظوظة لأن ليس لديك أولاد لكي تخافي عليهم، ولا شريك يهجرك في منتصف الطريق، ولا غربة تقضم كبرياءك قضماً خفيفاً ناعماً فتصبحين مع الوقت ذاك الشخص الذي طالما حذرت نفسك من صداقته!

دخل (فاضل) إلى غرفتي فجأة بينما كان (إمام) في أوج مونودراماه الروحية والوطنية. لا يا دكتور (فاضل)، الرجل لا يتقرب مني كما تتوهم. أنت تفعل هذا كل ليلة مع حبيبات الغربة العابرات، ثم تعود مترنحاً إلى شقتك التي لم تدع أحداً إليها منذ قدومك إلى هذا البلد. تتحجج أنها ممتلئة بالكتب والملفات وغبار غياب المرأة الزوجة. تتحجج أنها للنوم فقط، وأنك رجل تقيم في غرفة مكتبك مثل أي جندي على دبابته في المعركة. الويسكي، السيجار الثخين، الشعر الأبيض، ربطة العنق المرخية، القميص المنشى المكوي في السوق، الظهور على شاشات التلفزة العربية للإدلاء بأرائك بينما يبان البيت الأبيض من خلفك، كل هذه المظاهر صنعتها أنت بيديك تماماً كما تحيك سيدة عجوزة شراشف الأسرة لعرائس العائلة الشابات. أنت صنعت هذه الصورة بقوة الغربة ومباركتها. صنعت نفسك من دون أن تجبر خاطر الوطن بكلمة طيبة، وإنما ركبت عنقه ودليت بقدميك لتعلو وتتباهى.

هكذا فكرت بلمحة بينما كان يرمي (فاضل) بملف على مكتبي، في منطقة وسطى بيني وبين (إمام) ويرحل بعد أن رمى بنظرة مفهومة على كلينا.

كل شيءٍ مستمر في الازدحام والتنامي مثل الأشنة فوق

صخور البحر المبلولة بالزبد. كل شيء يتكثف ويتجمع ويتكتل، ثم ينفجر مثل القنابل الحارقة حولنا. لا، الدنيا ليست ساحة معركة. الواقع ليس البشاعة التي أراها. هذه أنا، نحن، عيوننا، تجاربنا، آلامنا ونفاقنا هو ما يصنع كل هذا الوهم حولنا، ونسميه كذباً: الحياة!).

تحت شمس فضّاحة

حين أتحدث عن مصيبة (أميرة) بلساني الروائي، أكون هي حين ترى الواقع كما هو من دون عدسات آلامها الخاصة. أما حين تتحدث هي عن مصيبتها، فإنها تكون هي ذاتها مزينة بأساور وحلي أحزانها الرنانة. يحلو لي هذا التأرجح كثيراً لأنه يشبهنا معاً. أنا هي وهي أنا؛ وجهان متقاربان مع فروق بسيطة. لي القدرة على أن أحلق مثل طيرٍ حرٍ في سماء الدنيا، فأرى ما يحدث في لوس أنجلس ودمشق في آن معاً، كما يمكنني أن أسمع أنفاس السوريين النائمة في هدأة الليل، وجنونهم تحت شمس فضاحة، وكذلك أنفاس مراهقين اثنين يعبثان في منزل (إمام)، ويسرقان الوقت والحب بعيداً عن أعين الناس. هذه ميزة الذي يستطيع أن يفصل نفسه عن وليمة الموت حوله، ويتفرج عليها عن بعد، ميزة قد لا تملكها (أميرة) التي ما إن وصلت إلى هذا البلد، حتى شعرت أنها بحاجة إلى عمود نير الجواميس لكي تقاوم طوفان الغربة والغرابة حولها. أما أنا، فأعترف بأنني أملك عيناً كريستالية تشبه آلة تصوير تعمل من دون توقف وها أنا، بهذا، أقدم عوناً لبطلتي التي أسير معها كظلها خطوة خطوة.

غرق (إمام) في النوم بعد أن طبع قبلة على جبين (شيرين)، وهي في سريرها تقرأ، ثم تمنى لها ليلة سعيدة وغادر إلى غرفته شبه مبتسم. مع ذلك، لم تُطفأ الأنوار، ولم يخلد الكل إلى سريره ويبدأ بالشخير. فبعد أن نام والدها قرير العين، تسللت (شيرين) حافية القدمين في عتمة المنزل إلى "الاستديو" الذي يقيم فيه (دايف) صديقها. كانت خصلات شعرها الملونة تعكس لوناً أخضر ذهبياً وهي تعبر على رؤوس أصابعها تحت ضوء الكراج الشاحب الذي يفصل المنزلين. تلمست قفل الباب وفتحته بهدوء، ثم دخلت خلسة من دون أن يراها أحد وأغلقته وراءها.

من الآن فصاعداً سوف أتدخل مثل شبح في حياة أبطالي جميعاً، بما فيهم (أميرة). سوف أحرك الأشياء الساكنة، وأهز الماء الراكد حولهم، وأعبث قليلاً لعلهم يفيقون. لقد تعبت من معاناتهم، وتأففهم، ولم يعد لي القدرة على التفرج أكثر من خلال الثقوب الكثيرة في جدران حياتهم الآيلة إلى السقوط. سوف أفعل هذا، لا لكي أدفعهم للقيام بما أحب، وإنما لكي أكون القدر المستعجل الذي يشير إلى انعطافات الطريق، وهناك سوف أتركهم يقررون على هواهم إلى أية جهة ستتجه أشرعة مراكبهم الشاردة.

* * *

تحَركتْ ريحٌ خفيفة في غرفة (إمام) صحى على أثرها. تمتم بسبب العطش ثم نهض من سريره. في الممر الموصل للمطبخ يقع مكتبه الذي حوله إلى غرفة نوم (لشيرين). أراد أن يلقي نظرة عليها وهي نائمة، ثروة عمره التي أضاعها في يوم غائم، ثم عثر عليها

وكأنها لم تذهب ولم تأت. أراد أن يطمئن خلسةً على ملاكه الهاجع أخيراً في كنفه. السرير الفارغ أربكه. المنزل ليس بكبير لكي تضيع فيه. جننه خاطر أن تكون عند (دايف). خرج مسرعاً ببيجامته وشعره غير المرتب، ومشى بحذر بعيداً عن الكراج المضيء، محاذياً لجدار الاستديو. سمع همهمة آتية من المكان. لبث في مكانه، ثم اقترب أكثر من النافذة ذات الستائر الموارية، وتطلع إلى الداخل من طرف عينه. بحلق (إمام) غير مصدق ما يرى في ظلام الغرفة الصغيرة، ثم قرفص منهاراً أسفل النافذة. كأنه رأى ولم ير. كأنه ليس هو، وإنما أحد آخر يتفرج على غريبين يمارسان الحب على شاشة سينما صيفية في العراء. انطبعت صورة الشابين وهما يفعلان ما يفعلانه في عقله مثل ورق لاصق. لن يستطيع أن يمحو من ذاكرته، ولو بعد ألف عام منظر ابنته العارية في حضن ذلك الصبي الذي تمتلئ ذراعاه بالوشم والرموز النيلية الزرقاء. لقد رآهما في ذروة اندماجهما؛ اللحظة الأكثر حميمية وسرعة في هذه العملية. جلس متعباً على العشب القليل النامي قرب الجدار، وأرخى رأسه بين ركبتيه. هبت رياح مصيبته، فمال شجرُ الحديقة بخفة يميناً ويساراً. بعد تفكير، قرر أن يتجاهل ما رأى، وأن لا يحدث ابنته عما شاهد بعينيه اللتين "أكلهما الدود" والغربة. هذا أفضل لكبريائه ولكرامته. من يقدر على هذه المواجهة، من يطلبها؟ "طلع الضوء عليه" وهو مبحلق في سقف غرفة النوم، وأفكاره تصفع به يميناً وشمالاً إلى أن أهلكه النعاس في ساعات الصباح الأولى، ونام مثل محارب بعد معركة طاحنة.

في الصباح، دخلت (شيرين) منشرحة إلى المطبخ لتحضر قهوتها. رأت والدها يتناول إفطاره ببطء بينما عيناه تتطلعان إلى جبال لوس أنجلس البعيدة خارج النافذة. أحاطت عنقه بذراعيها وقبلته. ربت على كتفها من دون أن يتطلع إليها أو يبتسم. هذه الدنيا ليست منصفة، ما إن يقترب الواحد منا من الماء بعد سفر طويل في الصحراء، حتى يكتشف أنه سراب، سراب حقيقي، ولا شيء هناك سوى الرمال الرمادية يميناً وشمالاً ومن كل الجهات. (شيرين) سراب مهما عانقته، وقدمت البراهين، وحلفت أغلظ الأيمان. لقد فهمت في الحال من برودة والدها أنه عرف بما حصل. جلست قبالته مثل كل فتاة أمريكية، وقالت "أنا آسفة دادي! نسيت أن أخبرك إنني و(دايف) مخطوبان. أنا لم أتعمد جرح شعورك أبداً. إن أردتنا أن نترك المنزل في الحال، فسوف نفعل!".

فكر (إمام) أنه فقط في أمريكا يمكن لكلمة "أنا آسفة" أن تنهي مشكلة كبيرة مثل هذه. يقول الابن أو الابنة أنا آسف أو آسفة وينتهي كل شيء بحضن وتربيت على الكتف، وربما دمعة فالتة من عين أحدهما. الحب في هذا البلد لا يلف ويدور كثيراً. الناس مبعدون عن أي حسابات حين يتعلق الأمر بمشاعر الفرد ذاته. أما لمن تغلي فيه دماء عربية، فالموضوع يأخذ منحى آخر. فإذا لم ينته مشهد الابنة تمارس الحب مع صديقها بالقتل الفوري لها أو لكليهما، فإنه ينتهي بالفضيحة والشرطة والمحاكم والسجون والانتقام وأمة لا إله إلا الله، وكل ما يخطر وما لا يخطر على بال. هكذا يفهم أغلب العرب الحب. إما أن يكون مطيعاً، أو ليس له الحق بالتملص من

ميزة الملكية التي فيه. مع ذلك، ليست أمريكا على حق، ولا نحن كذلك بالمطلق. ثمة ممر ثالث ربما لم يخطر لنا على بال، ألا وهو أن نفهم طبيعة الإنسان والدنيا حولنا بهدوء وروية، وأن نؤسس أنظمتنا المخلخلة على هذا الفهم وبما يتناسب معه. ها!.. كأن الحديث في هذا مع بعض العرب يشبه النفخ في قربة مقطوعة!

* * *

(حكى لي (إمام) كل ما حدث بالتفصيل. لم يستح من كوني امرأة. شعرت وكأنه فقد عقله من كثرة ما ردد تفاصيل ما رأى وسمع. كيف كان يُقبلها، وكيف كان يلمسها، وماذا كانت تفعل (شيرين)، ابنته الصغيرة، مثل امرأة ناضجة فاهمة بكل تقنيات الحب الجسدي. قال إنه عندما تزوج، بقي أسبوعاً من دون أن يلمس زوجته بسبب خوفها من المجامعة. كانت خائفة ولا تعرف كيف يتم كل هذا. لقد أُغرم فيها أكثر لأنها "لم تكن تعرف"، واليوم هو يكرهها لأنها "عرفت"، وبطريقة منفرة. قال حين "تعرف" المرأة تفقد أنوثتها، ويتغير صفاء عينيها، وتغدو ملامحها مستهلكة.! لكن ما حصل مع ابنته جعله يعيد النظر بأشياء كثيرة. قال إن النظام في هذا البلد يحمي حق ابنته منه، هو أبوها الذي خلّفها وجلبها إلى هذه الدنيا. أَشعرني (إمام) وكأن الأنوثة أخت السذاجة ونقيض المعرفة. كأنها تشبه حفيف الأثواب الطويلة الحريرية التي تروح وتجيء في خدمة الرجل في حرملك عقله وجنوح تصوراته. سألته كيف سيتصرف حيال هذه "المصيبة"، هز رأسه وقال إنه لا يعرف، لكنه اقترح عليهما أن يتزوجا، وأن يقيما معه إلى أن يتدبرا أمورهما. لكن

(شيرين) ردت على اقتراحه بأنهما ما زالا صغيرين على الزواج! جنّنه جوابها، لكنه لم يرد، كما قال لي، على الرغم من الماء الكثير الذي كان يملأ فمه، والذي لم يرد أن يبصقه. بلع حسرته وخرج!).

حين عاد (إمام) إلى المنزل في مساء ذلك اليوم، وجد أن (شيرين) قد أخذت كل أغراضها ونقلتها إلى الاستديو. لم يعد هناك ما يخشياه. أصبحت علاقتهما معلنة بل أكثر من هذا، فلقد رآها والدها بأم عينه تجامع رجلاً بحرية و"بلاغة" لم يجدها عند أي امرأة أخرى عرفها خلال كل تاريخ حياته. عض (إمام) على أصابعه، وقبل كل هذا على مضض بانتظار الأعظم.

زنوبيا وحمد

هَبطتُ مع (أميرة) الدرجات القليلة المؤدية إلى باب المبنى الخارجي حيث كانت (كاثي) تنتظرها في سيارتها ليذهبا إلى العشاء. كانت تلبس فستاناً أسود بسيطاً، وشالاً مورّداً بالأحمر والأخضر يرتاح على كتفيها. بان جمالها رقيقاً وخافتاً. تركت أسلحتها في المنزل تلك الليلة، وحملت بدلاً منها حقيبة صغيرة بحجم قبضة اليد. شعت ابتسامة (كاثي) في عتمة السيارة مرحبة بها حين جلست بالقرب منها، أما أنا فجلست في المقعد الخلفي. من الآن فصاعداً، لن أبقى صامتة. أعرف أنني سأحتاج إلى قوى هرقلية لكي أدفع بعض الأقدار المتيبسة وأحركها بعد طول سبات، ولو تطلب الأمر، سوف أقتلعها من جذورها وأرميها، وأستبدلها بأخرى أكثر حيوية، وأغذيها بالماء كلما سنحت لي الفرصة. ركنت (كاثي) سيارتها في المرآب الملحق بالمطعم، ونزلت و(أميرة) منها.

(كانت السماء النيلية صافية ونجومها واضحة قريبة، والقمر مكتملاً كبير الحجم. مناخ خرافي لا يصدق. هكذا شعرت، وأنا أدلف من باب المطعم المزدحم بالناس، بينما علت في أرجاء المكان موسيقا "الجاز" التي كانت تعزفها فرقة من الشبان سود البشرة.

اقترحت (كاثي) أن نجلس على البار بدلاً من الطريقة التقليدية حول طاولة منفردة. قالت إن هذا مسلٍ أكثر، إذ يمكننا أن نتعارف مع آخرين يتناولون عشاءهم بالقرب منا. وافقت، وتركتها تقود الليلة لكونها العارفة بنظام هذا المجتمع وأسراره. حالما جلسنا طلبت لنفسها شراب "المرغريتا" الثقيل بينما طلبت "بيرة" من دون كحول. بسرعة ضوئية بدأت (كاثي) تتمايل على إيقاع "الدرامز" بشكل خفيف، وتهز رأسها وكأنها تتحضر للاندماج في مناخ السهرة. أما أنا فكنت أعدل الشال على كتفي بين الفينة والأخرى خجلاً وارتباكاً، وأتطلع حولي مبتسمة. الجو لطيف ومحفز، والناس تلتفت إلى بعضها البعض مبتسمة وتتحدث بشغف. كأنهم على كوكب آخر. كأن لا حربَ في سوريا، كأن هذا لا يعنيهم، ولمَ يعنيهم!؟ كأنه لا يعني أي أحد خارج حدود الشام. كأن الدنيا لوحة سريالية صعبة التفسير رسمها فنان تحت تأثير "الحشيش". مع ذلك، تركت نفسي قليلاً إلى خفة هذا الجو وسطحيته. في دمشق، غزت البلاد في السنوات الأخيرة السابقة للحرب، فرق "الجاز" والموسيقا ذات النكهة الغربية. لقد أحببت إيقاعات هذا النوع من الموسيقا فطرياً ومن دون مقدمات، ولم تتعارض في داخلي مع حبي للأغاني العربية القديمة والمواويل الصعيدية. كنا نعثر على هذه الفرق تعزف أحياناً في الساحات الكبرى لبعض المدن السورية قبل الحرب، وأغلب الأحيان في بعض مطاعم دمشق القديمة. الحياة كانت قد بدت وكأنها تتنفس مع ظهور نظام اقتصادي أكثر ليبرالية، ظهر فشله الكارثي على البلد بسرعة كبيرة لاحقاً. فكنا لم نعد نعثر فوق رفوف الدكاكين والمحلات على

أنواع محددة من البضائع، وإنما على عشرات الأنواع للمادة الواحدة. لقد فُتح الباب واسعاً لجلب المواد الاستهلاكية والبضائع من خلف البحار، وهكذا مات قسم من القطاع العام ببطء، ومات معه بعض صغار الكسبة مخلفاً الكثير من الفقراء، وانتعش اقتصاد السوق الذي أخذ ينحت في الطبقة الوسطى ويقضمها على مهل. كان والدي يقول لي إنه ليس مرتاحاً لهذا التطبيق. صحيح أن البلد لم يعد كما هو وبدا عليه تغيير كبير، ولكن تبعات كل هذا كان جوعاً وفقراً أكبر بين الناس. كان والدي محقاً، إذ لم يكن هناك طريقة لإيقاف هذه المدحلة التي أخذت خلال سنوات قليلة، بأغلالها الحريرية المثيرة والمغرية، تدور على الأرياف المحيطة بالمدن وتدهس من تراه في طريقها، بل إنها وصلت حتى إلى عمق المدن بعد أن بانت عورتها وتقطعت غلالها. غريب كيف أبتعد بتفكيري إلى مثل هذه الأمور بينما أجلس في أحد مطاعم مدينة لوس أنجلس وكأني أتفرج على الدنيا من وراء زجاج قطار مسرع .

اقترحت (كاثي) بعد أن تناولنا العشاء أن ندور في المكان، ونختلط بالناس، بل حتى طلبت مني أن نقترب من طرف المسرح الصغير حيث تعزف الفرقة. وافقت على استحياء وأنا أشعر بوطأة تغيير العادات، وانزلاقي الناعم إلى أماكن من الفرح لم آلفها. أخذت أصفق وأنا أهز رأسي بشكل خفيف على الإيقاعات الجميلة التي طالما أحببت. فالجاز ليس رفاهية أو موسيقا لتمضية الوقت فقط، فلقد ولد على يد العبيد بعد تحررهم، وفيها تُختزل كل ذكريات كفاحهم ضد العبودية. هذه الموسيقا الارتجالية في جزء منها، تحمل

نبضات إفريقية، ونغمات أبدعها الزنوج وهم يعملون منهكين القوى في حقول القطن في مدينة "نيو أورليانز" بعدما وضعت الحرب الأهلية الأمريكية أوزارها أواخر القرن التاسع عشر. كنت كلما اقتربت من الفرقة، كلما هزتني الموسيقا القوية النبضات التي تخرج عن آلات "الساكسفون" و"الترومبيت" و"الدرامز". هذه الإيقاعات المتجانسة الموزونة للأذن الفاهمة والصادرة عن هذه الآلات، إنما تشتد وتقوى، وكأنها تتحدث بعفوية فيما بينها، عاكسة طبيعة الهوى والمعاناة في قلوب هؤلاء الأمريكيين الأفارقة حين كان يتحكم فيهم الأبيض ويسحق كرامتهم بحذائه. أحبُ هذه الموسيقا كثيراً وأفهمها.

كانت (كاثي) ترمقني بنظرتها المبتسمة من وقت لآخر لتتأكد من أنني أمضي وقتاً طيباً، بينما كان رواد المطعم يتكاثرون متحلقين حول الفرقة التي كانت تعزف مقطعاً متصاعد النغمات شديد الحماس بدا وكأنه لن ينتهي. شعرت "بلكزة" طفيفة على كتفي بسبب الحشد جعلتني أتطلع إلى جهة مصدرها. يا الله! كأنني أرى ولا أرى. أهذا هو! لا، حتماً إنه ليس هو. ربما أحد يشبهه! دفعت برفق امرأة كانت أمامي لكي أتقدم للصفوف الأولى فأتأكد من هوية الرجل. يا الله.. إنه هو، (حمد)، (حمد) بذاته. كان واقفاً مع رجل آخر يصفقان للفرقة ويتمايلان طرباً، بينما لف صديقه يده المليئة بالوشم حول خصره. "لكزة" أخرى على كتفي جعلتني أصطدم به فالتفت في الحال متطلعاً من وراء كتفه. رآني أحدق به بجمود. ثلاث ثوان من الأبدية كانت كافية لكي تقلب الدنيا رأساً على عقب. أنا وهو فقط في فضاء شاسع ندور حول ذواتنا في حلقة لا تنتهي. آخر شيء

كان يريده كلانا هو أن نلتقي بعيداً عن أوطاننا في هذا المكان، في تلك اللحظة، في هذه المناسبة الغريبة حيث كل شيء بات عارياً وليس بحاجة لتفسير. أنا وهو عدوان لدودان، ننتمي لنفس الفصيل الذي سمى نفسه يوماً أمة ذات مواصفات مشتركة. كان الأجدى أن نلتقي في إحدى ساحات القتال في سوريا حيث هناك الكثير من هذا الحمد يجاهدون لكي يدمروا البلد عن بكرة أبيها فيستحقوا هذا الصعود العجائبي إلى جنة تعج بنساء كثر، ذوات عيون خفيضة وغشاء بكارة لا يُفض. لا، لست أنا من كان يحدق به، و إنما "زنوبيا"[22] بكل جلالة حضورها وتاج الحضارة على رأسها. لقد سحبت ثوبي الاحتفالي من بين هذه الفوضى حولي، وهرعت إلى حمام المطعم بينما كانت الحلي والأساور ترن مصدرة صوتاً يشبه الإنذار. وهناك أفرغت كل ما في معدتي من طعام تناولته منذ دقائق، وكأنني أرتاح من سم قاتل).

جَعلت تلك الصدفة (حمد) يدور حول نفسه مثل مجنون وكأن عينيه لم تصدقا إذا ما كانت (أميرة) شبحاً أم لا. هذا يكفي قلت في نفسي. دعيه يتخمر في فعلته، لكزتان في ليلة واحدة كافيتان من أجل انعطاف في قدر كل منهما.

(حملتني (كاثي) إلى المنزل بعد أن عثرت عليَّ منهارة على أرض الحمام. غسلت وجهي بفوطة رطبة، وساعدتني على التمدد على السرير بهدوء وصمت. هذه المسكينة قد أخطأت الظن، ولم

(22) ملكة تدمر.

تنتبه إلى لحظة الأبدية التي لوثتني بوهجها المؤذي في المطعم. تشجعت وقلت لها عما رأيت. ضحكت (كاثي) بصوت عالٍ، وقالت إن الجميع يعلم عن (حمد) وصديقه. بل إنه حتى كان يجلبه معه أحياناً إلى دعوات العشاء الخاصة بالمركز. "صحيح أنه لم يكن يتجرأ على أي حركة فاضحة أمامنا، ولكننا جميعاً نعرف طبيعة العلاقة بينهما. إنهما يعيشان في نفس المنزل كشريكين". إذن الجميع متورطون بهذا تستراً عليه ومعرفة به، ليس لأن (حمد) هو الممول الأول للمركز، ولكن لأن الاعتراض على ذلك لا يقدم ويؤخر في الأمر شيئاً. وفوق هذا وذاك، هذه أمريكا بكل نظامها الجليل الذي يبرع في حفر قبره كل يوم بكلتي يديه، بينما أغلبية الناس تلتزم الصمت خوفاً من القانون الذي ترك لهم حرية التعبير عن أتفه ما فيهم. يااااا هذه الدنيا التي قذفتني إلى بئرٍ لا قرار له. لم أترك سوريا كمهاجرة ولا كلاجئة ولا كهاربة، وها أنا أتذوق المر مثلي مثلهم).

معسكر غازي عنتاب

مثل البندول الرقاص الذي يروح يميناً وشمالاً، عَملَ عقل (عمر) بعد لقائه (بأحمد) الصغير على ناصية يبيع الخبز في مدينة غازي عنتاب التركية. حاول السائق أن يفتح حديثاً مسلياً، أو أن يقول أي كلام، لكن (عمر) كان يجيب بشكل مقتضب ثم يعود إلى أفكاره من جديد. شعر بأول وخزة دبوس في صدره من دون أن يصل حتى إلى نهاية مطاف رحلته، ولا حتى لمنتصفها. طلب من السائق التوقف على جانب الطريق لشعوره بضيق في تنفسه، فمالت السيارة في الحال، وركنت فوق تلة صغيرة من الرمل. خرج (عمر) بسرعة وكأنه استنفذ الأوكسيجين من صدره، وأخذ شهيقاً قوياً كمن يُخرج رأسه من تحت بحر عميق. قال للسائق إنه يريد أن يبقى لوحده خمس دقائق قبل أن يستكمل الرحلة. وافق هذا الأخير مستغرباً. مرت الخمس دقائق، وبعدها العشر. مرت نصف ساعة، و(عمر) واقف يتطلع باتجاه الأفق بينما السائق يرنو إليه بطرف عينه من مقعده متعجباً. بعد ثلاثة أرباع الساعة، دخل (عمر) إلى السيارة وصفق الباب وراءه قائلاً "لنتكل على الله". تنفس السائق الصعداء، وانطلق مسرعاً من دون أن يتجرأ على التفوه بكلمه.

في المقعد الخلفي؛ مكاني دائماً. سوف يشعر (عمر) بيدي الخفية من وقت لآخر تجر قدميه إلى الأمام وإلى الوراء بحسب قانون البقاء، إذا ما استطعت لذلك سبيلاً. سوف يحس بأنفاسي أيضاً تدفع أشرعته هنا وهناك، فلا يعرف بحرَه السكينة طويلاً. دعوني أعترف الآن، هنا، بأنني لست الساردة فقط وإنما المتورطة الأولى في هذه المعمعة.

بانت طلائع المعسكر من البعيد بخيمه الرمادية، وخط نهر الفرات الأخضر الأفقي من ورائه. ناول السائق (عمر) ناظوراً وقال له: تفرج. انظر إلى رفاقك كيف يتدربون. هناك سوف تتحضر للذهاب لملاقاة المجاهدين إن شاء الله في سوريا. لا تقلق سيكون كل شيء على ما يرام. أعرف أنك مضطرب التفكير، لكن حالما تصل سوف تجد نفسك في المكان المناسب. لا تقلق. ربّتَ السائق على ساق (عمر) بطريقة لم تعجبه، فحركها بعيداً من دون أن ينبس بكلمة.

وقفت السيارة أمام نقطة تفتيش قبل العبور إلى المخيم. تبادل السائق كلمات ترحيب مع رجلين مسلحين بلحى طويلة يقفان أمام غرفة خشبية صغيرة، طرفاها محاطان بأسلاك شائكة تلف قسماً كبيراً من المخيم. أخذ أحدهم أوراق (عمر) وجواز سفره وتطلع فيهما من وراء نظارته الدائرية الصغيرة، ثم أعادهما وسمح لهما بالمرور. غدت أصوات المجاهدين الذين يتدربون في الباحة الرئيسية للمخيم أقرب، وصرخات العزم وهم يقفزون ويتعاركون تشق الفضاء في هذه المنطقة البعيدة عن المدينة. لاحت أيضاً صحون التقاط بيضاء بالقرب من المعسكر لزوم التواصل والترفيه.

من لوس أنجلس ومكتباتها ومقاهيها وطرقاتها السريعة ومنازلها البديعة وحركة ناسها، إلى مخيم لتدريب المقاتلين في غازي عنتاب، نقلة لا يقوى الكثيرون عليها مهما كان اختراق الهدف لعقولهم قوياً. يكفي تغيير المكان لكي يعرج المرء نفسياً. يكفي تغيير اللغة والعادات. يكفي تغيير الوجوه التي يفتح الواحد منا عينيه عليها كل صباح. يكفي تغيير الطعام! هل الأهداف الكبيرة بحاجة لهذا الذبح الروحي الأخرق! أسئلة كثيرة عادت تلعب في عقل (عمر)، وتلف حوله مخلفة عاصفة كثبان حارقة. سأتفرج عليها، قلت في نفسي، وأنتظر الفرج.

أعطوا (عمر) يوماً واحداً لكي يرتاح قبل أن يبدأ تدريباته. حين تمدد على سريره المعدني في الخيمة، أغمض عينيه ونام في الحال في ثياب السفر والحذاء، ليصحو بعد عشر ساعات كاملة لم يعرف إن كان نائماً فيها، أم مغمى عليه. كان الظلام قد حل، وبعض المتدربين قد خلدوا إلى خيمهم بينما تجمع آخرون في خيمة أخرى يتفرجون على أحد الأفلام الأمريكية ويأكلون "البوب كورن". أما هو، فقد جعله فرق الوقت والساعات الطويلة التي نامها نشيطاً متيقظاً، فخرج إلى الباحة الفارغة إلا من ضوء القمر لكي يتمشى ويستكشف المكان، بعد أن وضع غطاء سريره الصوفي على كتفيه، حامياً نفسه من برودة الخريف الليلية. اقترب (عمر) من شاطئ النهر حتى لامس طرف حذائه السميك ماءه المزبد الذي يروح ويجيء بهدوء ورتابة. جلس على حجر مرتفع، وأخذ يحدق بعقل مُطفأ في الظلام الهاجع فوق سطح الماء اللامع إثر انعكاس ضوء يشع من بعيد.

ظهر رجل ملتحٍ في العقد الخامس من عمره من قلب ظلام الليل، واتجه إلى (عمر). عرف عن نفسه بأنه رئيس المعسكر. جلس بالقرب منه على كتلة حجرية، وابتسم حانياً رأسه، وكأنه يعرف ما يدور في خلده. قال من دون مقدمات "إن الأيام الأولى هي الأصعب في المعسكر خصوصاً على الأجانب الذين لم يتسَنَّ لهم القتال في أي مكان من قبل. لكن كل شيء سيمر بسرعة، ولن يكون هناك متسع من الوقت للمجاهد لكي يتأمل في حاله وأحواله. سوف يستنفذ القتال منه القوة والتفكير، وهذا أفضل". ظل (عمر) صامتاً يهز رأسه بالموافقة. لكن الرجل أكمل بتدفق واضعاً قصة حياته بين يدي هذا القادم الجديد.

- اسمي (طارق العرباوي)، ومعروف للقاصي والداني باسم (أبو بكر). لا تتطلع إلى ثياب القتال والتدريب التي ألبسها ليل نهار. أنا رجل فاهم، تربيت على كتب "سيد قطب" ووفيّ لتعاليمه. حاربت في أفغانستان، وطردت "الروس" مع الأخوة هناك، "السوفييت" أعداء الله. منذ تلك الأيام، أخذت شبكتنا تكبر يوماً بعد يوم. ما قمنا به أبهَرَ الدنيا، فقام أهل الخير بإرسال المساعدات والأموال لنا. لقد ذقت طعم الجهاد لأول مرة في تلك البلاد، كما ستذوقها أنت إن شاء الله في سوريا حتى ننظف كل دولنا من الكفرة.

نهض (أبو بكر) من مكانه وأكمل متطلعاً إلى سطح النهر:

- من سخرية القدر أن نجد أنفسنا والأمريكيين في القارب ذاته. كانت تصلنا أموالهم بطرق شتى. لقد حاربنا عدواً مشتركاً آنذاك، وها نحن اليوم نحارب عدواً مشتركاً آخر. انظر إلى هذا الجهاز المعقد

في يدي. إنه صناعة أمريكية متقدمة، يمكنك أن تتصل عن طريقه حتى مع الله إن أحببت.

أطلق (أبو بكر) ضحكة خبيثة، ضارباً على كتف (عمر) الذي كان يستمع دون أن يتفوه بكلمة.

- إنني أحدثك عن هذا لكي تفهم كيف بدأ كل شيء، و كيف كبرت مجموعتنا، وجعلت الدنيا تقف على قدميها تأهباً. ارفع رأسك عالياً لأنك سوف تجاهد من أجل أنبل سبب في العالم: أن تطلق كلمة الله، الذي لا إله إلا هو، عالياً في سماء ليس الدول الإسلامية فقط، وإنما في كل دولة على وجه هذه الأرض. اجعل نَفَسَكَ طويلاً، وصبرك بلا حدود لأن مهمتك ستكون صعبة وهامة حالما تنتهي من التدرب على القتال هنا. والله، إنه ليجن جنوني، وتصعد الدماء إلى رأسي عندما أرى كيف تحولت شواطئ سوريا إلى مكان لاختلاط النساء والرجال شبه العراة. لقد وصلنا إلى أسفل السافلين حيث لا مكان أبداً للمزيد من تحمل هذا الكفر المستفحل. لقد شردتْ سوريا عن الطريق الصحيح، ولقد آن الأوان لكي نرجعها إلى الصراط المستقيم. إننا نعتمد على أمثالك يا (عمر).

كان الوشم على ساعدي (أبو بكر) واضحاً تحت ضوء القمر. كأنه حاول في الماضي التخلص منه من دون أن يفلح. بدا (لعمر) متعجرفاً عنيداً وذا تاريخ معقد لا يعرف أحد قراره أو طبيعته. تركه يكمل بَوح المزيد عن نفسه:

- بعد أن عُدتُ من أفغانستان ألقوا القبض عليَّ. لم تنفع أيام السجن الطويلة في الأردن في ترويضي. أنا رجلٌ وفيٌ لما أؤمن به

الحمد لله. لقد عرفت "القاعدة" قدري جيداً، وفهمت قدراتي. كلفوني بتدريب المقاتلين في "هرات"[23] غرب أفغانستان، واليوم أنا أفعل نفس الشيء. انتظرني هنا وسأعود بعد دقائق.

انطلق (أبو بكر) إلى إحدى الخيم، وعاد بسرعة ومعه مجموعة من الكتب قدمها (لعمر):

- هذا كتاب "لاهوت الجهاد" (لأبو عبد الله المهاجر). خذه. مد يدك. مدها وخذ الكتاب. وهذا كتاب آخر بعنوان "إدارة التوحش" (لأبو بكر ناجي). خذه أيضاً. هما لك. عندما تنتهي من التدريب في النهار، اقرأ في هذين الكتابين وسوف تفهم لماذا نفعل ما نفعل. لا يكفي أن تتدرب، وإنما عليك أن تتثقف لكي تكون يداً واحدة مع الإخوة.

يفتح (عمر) فاه فتخرج كلمة "حاضر". يشعر بها (أبو بكر) تتكدس عند قدميه مثل بقعة زئبق. يخطف أحد الكتابين من بين يدي (عمر)، ويقرأ بصوت مرتفع:

- "إنّ القسوة في قطع الرؤوس أمرٌ مطلوب وحيوي لأنه مرحبٌ به من الله ونبيه". هل سمعت؟

يخطف الكتاب الثاني من يده ويقول:

- اسمع اسمع ماذا يقول (ناجي)... هم.. هم أين تلك الصفحة

---

(23) **هرات**: مدينة أفغانية في محافظة هرات الأفغانية تقع غربي أفغانستان. وهي مدينة أثرية ذات مبان تاريخية ضخمة وقد تعرضت للتدمير الجزئي والكامل خلال الحروب الأخيرة. وتعتبر هرات من مراكز الإخوان المسلمين في العالم لوجود عدد كبير من المنظمات الإخوانية فيها والتي تملك فيها الكثير من الصحف والمجلات والفضائيات والجماهير.

اللعينة...! ها.. إنه يقول إن علينا أن نقوم بالمجازر تماماً كما حصل لبني قريضة. هل تفهم ماذا يعني هذا! علينا أن نتبنى سياسة لا ترحم نقتل خلالها الرهائن بقسوة إذا لم يلبوا مطالبنا. خذ الكتابين واقرأهما، ولا أريد ان أرى هذه النظرات الشاردة في عينيك مرة أخرى. هذه الدنيا لا ترحم.. أو بالأحرى أمريكا لا ترحم. بعد أن انهار البرجان في نيويورك، جنت أمريكا، وأخذت تقصف أفغانستان رامية التهم كلها على "القاعدة"، بينما أبعدت "طالبان" عن مرمى نيرانها، فاختفى (ابن لادن) تحت الأرض، وهرب (الزرقاوي)، أما المجاهدون فقد فر كل منهم إلى جهة. كان يجب علينا أن نبحث عن أرض أخرى لكي نقاتل أعداء الله. الأمريكيون الأغبياء قدموا لنا هذه الأرض على طبق من ذهب: العراق. لقد كنا محظوظين. قالوا إنهم دخلوا العراق لأن (صدام حسين) يمتلك أسلحة دمار شامل ويدعم الإرهابيين، فتبين أن كل هذا غير صحيح. لم يكذبوا فقط، وإنما فتتوا كل الدولة وخصوصاً هيكلها الأمني، وأرسلوا آلاف الجنود والضباط "السنة" إلى بيوتهم، قاتلهم الله، لقد خلقوا حالة من التوحش والفوضى العنيفة في البلد. سوف تقرأ كتاب (أبو بكر ناجي)، وستعرف أنه لم يتحدث إلا عن هذه الفوضى العظيمة من أجل الجهاديين لكي تزدهر أعمالهم فيها وممارساتهم. لقد قلبنا المعادلة لتصبح في صالحنا.

نعم، ما فعلته أمريكا في العراق هو الذي أوصلنا إلى هذا الدرك. أنا وأنت نجلس ها هنا أمام هذا النهر الكبير. تركيا ليست وطني ولا وطنك، لكننا أتينا إلى هنا لكي نقاتل هؤلاء. كانت لنا قوة

أيام (صدام)، صحيح كنا أقلية، ولكن كان لنا حظوة. خلال أشهر قليلة، أتانا (أبو مصعب الزرقاوي) الذي أخذ يضرب أهدافاً أمريكية في العراق، ومعهم "الشيعة". نعم صار هناك فوضى كبيرة. فُتح باب جهنم على مصراعيه، خصوصاً منظر السجناء في سجن "أبو غريب". أردنا أن نقتلع جذور جذورهم. كانت تصعد الدماء إلى رؤوسنا كلما استرجعنا منظر المساجين عراة ومكومين فوق بعضهم البعض. قالوا عنا إننا "القاعدة" في العراق. اللهم لا اعتراض، هذا شرف لنا، لكن كان لنا طريقتنا وكتبنا أيضاً. نعم نحن أكثر دموية. اقرأ الكتب التي أعطيتك إياها وستفهم. بعد شهور قليلة، استشهد (الزرقاوي) بعد أن تمكنوا منه. تأكدنا من موته بعدما رأينا الوشم على الجثة. كنت أنا من بين الحلقة الصغيرة التي يأتمنها ويثق بها. حلفنا أن نكمل من بعده بنفس الطريقة. بعد أن توفي الرجل، رحمة الله عليه بأشهر قليلة، أعلنا الدولة الإسلامية في العراق. كان لا بد من هذا. أردنا أن نجمع كل فروع القاعدة معاً. لم نكن نعرف أن الأصعب كان في انتظارنا؛ لقد زادت أمريكا من عدد جنودها في العراق حتى قارب المئتي ألف. لم يكتفوا بهذا، وإنما أخذوا على عاتقهم بناء الجيش العراقي على طريقتهم. راحوا يُغرون القبائل "السنية" في "الأنبار" لكي يُوقفوا دعمهم لنا. قالوا لهم تحالفوا معنا، ووعدوهم بأن يحموهم، وأن يقدموا لهم فرص عمل. زدنا نحن أعدادنا بالمقابل. كان كل شيء يسير من تحت الطاولة بالنسبة لهم، أما نحن، فَكُنا نتحرك على رؤوس الأشهاد إلى أن استشهد (أسامة) و(الزرقاوي)، رحمة الله عليهما، فوجدنا أنفسنا محشورين في زاوية

ضيقة. لكننا لم نستكن طويلاً. وَلّيْنَا علينا رجلاً آخر، (أبو بكر البغدادي)، وها هو بعد ست سنوات كاملة يصبح أمير المؤمنين وزعيم دولتنا الإسلامية. رجل ورعٌ وقبضاي، حاصل على أعلى الدرجات في العلوم الإسلامية. هل رأيت! أنت لم تأتِ إلى لا شيء. إننا قوة كبرى اليوم، وستكون جزءاً منها إنْ شاء الله.

سأله (عمر) كيف التقى (بالبغدادي) وأين، فرد قائلاً:

- لقد كنتُ محظوظاً أن ألتقي به في معتقل "بوكا" في العراق. لقد فتحه الأمريكيون ونقلوا إليه سجناء "أبو غريب" بعد الفضيحة التي هزت العالم فيه. "بوكا" ليس معتقلاً، وإنما جامعة. لقد قضيت فيه أجمل أيام حياتي. فيه حفظت القرآن، والمئات من الأحاديث النبوية والتقيت بكبار شيوخ الجهاد. تعلمت على يدهم المسائل الشرعية، وما هو حرام وما هو حلال. لقد كانوا يعذبوننا جسدياً في هذا المعتقل لدرجة اعتدت على ذلك، وأصبحت رجلاً لا تنزل لي دمعة. لقد التقيت بالكثيرين هناك، ضباط من الجيش والمخابرات، مسؤولين عن منظومة التصنيع العراقية، موظفين من "منشأة تموز النووية العراقية"، وكذلك الكثير من "البعثيين"، ومن المقاومة الوطنية العراقية. عشنا معاً في هذا المعتقل أياماً طويلة وليال أطول. جمعنا شيء واحد: كره أمريكا.

ثلاثون عاماً تقريباً، وأنا أنتقل من مخيم إلى آخر، ومن معسكر إلى معتقل، أُدرّب المجاهدين. لا تستخف بهذه المخيمات لأنها الجامعة التي تخرّج كل مقاتلينا وتدرّبهم على ممارسة العقيدة. أريدك أن تكون صلباً. أنا أعرف أنك مؤمن ورع، ولكن الحياة في بلد

الكفار، والعياذ بالله، لابد وأن تجعل قسماً منك رخواً وسريع العطب. هنا، سوف يقسو هذا القسم حتى لتظن أنك ولدت هكذا. تحمّل واصبر.

ارتسمت مسحة تصميم وألوهية خاطفة على وجه (أبو بكر). رأى (عمر) أن الرجل يؤمن بكل كلمة يقولها، وينفعل من أجلها. استغرب كيف وصل إلى هذه التركيبة النفسية العجيبة، وإلى هذه التوليفة من العقائد والأفكار! أكمل (أبو بكر) حديثه بحمية وجدية رصينة:

- كان (البغدادي) يرتل لنا القرآن بصوته ويعلمنا التجويد. قالوا لنا عندما دخل المعتقل إنه "مدني" وليس جهادي. كان هادئاً يؤُمنا أثناء الصلاة ويخطب فينا. الحمد لله، كل سجين كان يدخل عادياً، ليخرج مثل النار المتقدة من الحماس والرغبة في الجهاد مع الإخوة في أي مكان يطلب منهم. لقد شد من أزر المعتقلين، وكان يرى حتى في الإخوان المسلمين اعتدالاً لم يتحمله ولم يتطابق مع أفكاره. الرجل معجزة. انظر، هناك عشرات الدول التي تحاربه وتطلب رأسه. اليوم، وبعد أن دخلنا الموصل بحمد الله ورضاه، غدونا أقوى من قبل. لقد أصبحنا جيشاً وأعلنا دولتنا، "الدولة الإسلامية"، أمام كل أمة لا إله إلا الله وبقية الدول الكافرة، لتعلم إننا لن نكتفي بسوريا والعراق، وإننا سنكون في كل بقعة يمكن أن نصلها على هذا الكوكب بإذنه تعالى. شد عودك وتماسك، وثق بوعد الله لك ولنا ولا تترك نفسك فريسة للشك. سفك دماء! قتل! نعم، لكن لم نصل إلى هنا من دونها. لا شيء يكون من دون دفع ثمن باهظ.

ترك (أبو بكر) (عمر) مذهولاً بينما كانت قدماه تغوصان في الرمل وتقبان من جديد وهو عائد أدراجه إلى الخيمة. سوف يقدم الكتابان (لعمر) غطاءً وتبريراً لكل خيار قتلٍ يجد نفسه في المستقبل أمامه. إن الطريق إلى إرضائه تعالى، كما يقول هذان الكتابان، هو طريق الدم.

تمدد (عمر) على سريره المعدني في خيمة على طرف المعسكر، وأخذ يقرأ تحت لمبة صغيرة كيف يمهد الطريق إلى الخلافة الإسلامية. لقد عثر في كتاب (ناجي) على الوحشية المثالية لفتح الدول، وعلى خرائط الدروس المستفادة من حروب أفغانستان لاستفزاز الغرب كله لكي يتدخل، الأمر الوحيد، كما يقول الكتابان، الذي من شأنه أن يزيد من حشد المسلمين إلى الجهاد وهكذا "ينهار" العدو نهائياً.

وقف شعر (عمر) وهو يقرأ. فكر أنه لم يأت لكي ينفذ ما يقوله هذان الكتابان العجيبان، مع ذلك فهذه الخرائط لا تمزح. لقد انهار الاتحاد السوفييتي عن بكرة أبيه بعد خروجه من أفغانستان بعامين. لم تتحدث الخطب التي كان يسمعها في جامع مدينة "أنهايم" في لوس أنجلس عن هذه الكتب. ربما خافوا من "الإف بي آي" التي تضع عيونها في كل مكان! إذن، أين هو الإسلام الذي يبحث عنه، وكم من إسلام هناك؟ هكذا كان يفكر حتى طلع عليه الفجر من ثقوب في الخيمة، وانتشر إلى دوائر صغيرة بحجم ربع الدولار الفضي.

حين فتح عينيه، رأى (أبو بكر) يقف بالقرب من سريره. قال له

إن الساعة قاربت العاشرة صباحاً، وإنهم يتوقعون منه أن يبدأ التدريب حالاً. ألقى الرجل نظرة على الكتابين بالقرب من سرير (عمر)، وابتسم ابتسامة طفيفة ثم خرج. بقيت أنا و(عمر) في الخيمة. رأيته يتطلع إلى وجهه في مرآة جلبها معه كانت بين أغراضه. مسح على ذقنه النامية، وتأمل ملياً في عينيه، فكر، "ثمن باهظ! يا الله ليس هذا ثمناً باهظاً، وإنما إبادة! إبادة للجميع بما فيهم نحن، بل نحن أولهم". كأنه علق ولامجال للعودة أو التراجع. سوف لن أحرك ساكناً، وإنما سوف أدعه يخوض هذه التجربة حتى النهاية لعل وعسى.

بدأ (عمر) دورته بالتعلم على الصلاة والدين الصحيح في خيمة مخصصة لذلك مع مبتدئين آخرين. لقد تعرف على رفاق أتوا مثله من دول "كافرة" لتحرير إخوانهم، والذود عنهم كما يقولون. وبالإضافة لهذين الكتابين، عثر (عمر) على كتاب بعنوان "مقاتل وليس قاتل"، وكتب أخرى (لابن تيمية)، وأقراص نسخ عليها بعض السور المرتلة من القرآن، وعظات مسجلة لشيوخ لم يَسمع بأسمائهم من قبل.

مرت أيام عشرة قبل أن ينهي (عمر) المرحلة الأولى، وينتقل إلى الثانية حيث التدرب على الأسلحة الخفيفة وقتال الشوارع. كانت بنيته قوية، وعضلات جسده ظاهرة من التدرب اليومي في أحد المنتجعات الصحية في مدينة "أنهايم". كنت أتفرج عليه وهو يصوب باتجاه دريئة منصوبة أمام شط النهر، فيهتز كتفه من قوة الرصاص المنطلق، أو متسلقاً جدراناً حجرية عالية مبنية لغرض

التسلق على الحبال، أو متعاركاً مع متدرب آخر على القتال بالخنجر. أما في المساء، فكان يجلس مع آخرين ليتفرج على الأفلام الأمريكية ويأكل "البوب كورن"، مترجماً لزملائه الشتائم التي تترجم عادة إلى العربية بكلمة "تباً لك"، بينما هي في الواقع أفجر بكثير. كانوا يضحكون كشباب يلتقون في قهوة أو ملهى، متناسين لساعات قليلة ضغط الواقع وسفالته. لقد خرج (عمر) عن صمته وهدوئه خلال هذه الجلسات، وبدا أكثر إبداعاً في تسلية من معه، بل حتى في إحدى المرات تجرأ وأطلق نكتة جنسية هزت الخيمة من الضحك الصاخب لرجال هدت أحلامهم السرية صور الحوريات العذارى وفراشات الليل في "جنة" صممت من حجارة خيالهم البحت.

حين بدأ التدرب على الأسلحة الثقيلة، قال (أبو بكر) لعمر إنه حالما ينتهي من هذه المرحلة بنجاح، وقبل أن ينطلق إلى سوريا، فإن مفاجأة ستكون بانتظاره. ابتسم (عمر) الذي لاح أكثر اندماجاً مع جو المعسكر كلما تقدمت به الأيام في التدريب والاختلاط والقراءة. أصبحت أخاف من أن تنزلق قدمه أكثر، أخاف من أن تضيع اليقظة الأولى التي شعرها كوخزة في صدره يوم وصوله إلى المعسكر. أخاف من أن تجد هذه الكتب ممراً منطقياً إلى عقله، وهو يرى المئات حوله يرددون محتواها وكأنها منزلة. أخاف من انتباه (أبو بكر) المتواصل له، وتشجيعه وإشرافه الشخصي على تدريبه العسكري والديني. ما العمل؟

استيقظ (عمر) في الثالثة صباحاً على كابوس مخيف. لقد رأى والده ميتاً في ساحة قتال شرسة بينما الأعلام السوداء والكتابات

الدينية تنتشر مثل الفطر في المكان. انقطع نفسه وهو يستحضر المشهد، وأخذ يلهث مثل كلب. إنه ليس في غرفة نومه في "أنهايم"، وإنما في معسكر تدريب في غازي عنتاب التركية. هكذا كان عليه أن يذكر نفسه لكي يستعيد إحساسه بالواقع، ويتمسك باللحظة، ليفيق من هول ما شعر وما رأى. قلت في نفسي هذا يكفي للآن.

عاد (عمر) إلى النوم على جنبه بعد أن أخذ وضعية الجنين. لن تغمض له عين من الآن فصاعداً، وسوف تتكاثر هذه الكوابيس في لياليه، وتحوم حول رأسه مثل الأشباح الخلبية، أو صورة الحبيبة حينما يبلغ الهيام بها ذروته.

مارد القهر الغافي

كلما أغلقت عيني، أرى (حمد) يتمايل على موسيقا الجاز بينما لف صديقه يده حول خصره. أشعر بالعري كلما تذكرت اللحظة التي التقت فيها عيناي بعينيه المدهوشتين. الدنيا تتوقف عن الدوران، ويخفق قلبي بسرعة وأحس بالدوران وكأن أحدهم ضربني بقضيب معدني على رأسي. منذ أن هلَّ ظلام هذا "الربيع" وكشف الغطاء عن علبة القمامة العربية، فاحت رائحة غريبة لم نكن نلحظها كثيراً من قبل. لقد شعر المثليون أنه الوقت المناسب لكي يدمجوا حريتهم وحقوقهم بهذا السيل الهادر من الشعارات التي انطلقت مثل النار في الهشيم. تعجبت من سرعة ظهور مواقع إلكترونية خاصة بهم، من بينها موقع سوري أُطلق مع بدايات الحرب على البلد. موقعٌ، حالما تتصفحه، تعرف أن هناك "دنيا" كاملة لا تعرفها تعيش في قلب دنيانا، وعالم مشروخ أعرج لأناس يتعذبون لم يستطيعوا التغلب على هذه الميول التي طالما أخفت نفسها بغطاء الليل والعتمة. لقد رأيت الحياة تتغير أمام عيني، وتتكور، وتأخذ أشكالاً عدة مثل خليه حية تنمو من دون سيطرة أو توقف. ليس الموضوع سهلاً عند العرب. ليس سهلاً عند الكثيرين.

فتحت غطاء ديني وأخلاقي، رفضنا أن نواجه العدد الحقيقي لهؤلاء، رفضنا أن نناقشهم، وأن نرى مشكلتهم. لقد غضضنا الطرف، ليس لأن لا حقوق لهم، ولكن لأن موقفنا من موضوع حقوق الإنسان كله غير واضح. في سوريا، وقبل أن تقوم دول كثيرة بتمزيقها والتكاثر عليها مثل الكلاب الهائجة، كنت تعثر أحياناً على مثليّ يسير في عتمة الشوارع الضيقة، تاركاً العنان لميوله التي جاهد طوال النهار في إخفائها عن العيون. كنت تسمع بقصص هنا وهناك من دون أن تراها. كان الأمر يظهر على سطح الحياة اليومية بشكل طفيف، وفي فترات متباعدة. كأن أريد له أن يحيا تحت الأرض في عفونة النكران وعدم التصديق. لكن، وكلما تقدمنا في "الجهاد"، كل منا على طريقته، كلما كبرت فتحات الأبواب الموارية على هذه الأسرار، وبانت مشاهدها أكثر فأكثر.

يعتقد العرب أنهم إذا أحكموا إغلاق الغطاء على أمر ما لا يرغبون فيه، فإنه يختفي. ليس هم فقط من يعتقد هذا، وإنما الأطفال في مرحلة عمرية مبكرة والحيوانات الصغيرة. لقد توقف عقل الكثيرين من بيننا ها هنا ولم يعد يرغب في النمو. وإذا ما كانت سوريا اليوم واقعة تحت سكاكين الإخوة والأهل والجيران، فلأن هذا البعض منا قد فتح، بلهوه الأعمى، بوابات الجحيم على مصراعيها لكل هؤلاء لنفنى.

إنني أؤمن بأن لكل إنسان حقه في العيش الكريم، ولكني بيني وبين نفسي كامرأة، أشعر بالبعد عن هذا العالم المثليّ ولا أفهمه. كل ذرة فيَّ تميل إلى الرجولة كفكرة وواقع، وكذلك كل ذرة في عقلي.

حين أتطلع إلى المرآة لا أرى نفسي فقط كما هي، وإنما كما أريد "له" أن يراها. عندها فقط، أعرف بأنني جاهزة للخروج إلى الدنيا من دون المزيد من العناية. في داخلي ميل خفي صامت حميم لكي أرضي نظرته، هذا الذي ربما لا أعرفه، والذي أتوقع لقاءه كل لحظة).

* * *

حين دخلت (أميرة) ذلك الصباح إلى مكتبها مرت بالقرب من غرفة الدكتور (فاضل)، رئيس المركز. فكرت باجتماعها معه والذي يُفترض أن يحدث خلال دقائق. رتبت أبحاثها في ملف واحد سميك وضعته تحت إبطها، وقرعت بابه. انتظرت دقيقة ثم قرعت مرة ثانية. قررت الدخول بهدوء وحذر بعد أن انتظرت طويلاً. ما إن شقت باب الغرفة حتى هجمت عليها رائحة خمر بائت وقديم. كان مكتب (فاضل) فوضوياً وكأن عاصفة قد مرت عليه، بينما امتلأت طاولته بزجاجات ويسكي فارغة وكؤوس. سمعت أنيناً وحشرجة قادمة من الحمام. قربت أذنها فميزت صوت (فاضل) يئن ويتمتم. قرعت الباب فلم يرد. زاد خوفها وقلقها. قرعت أكثر فعاد الأنين. ذهبت في الحال لكي تستدعي (كاثي) التي تركت كل شيء وهرعت معها إلى غرفة (فاضل). أخيراً، تجرأت الامرأتان على فتح الباب. كان (فاضل) قد وقع على بلاط الحمام فوق برازه من دون ثيابه الداخلية التي لم يفلح كما يبدو في ارتدائها، وهو شبه غائب عن الوعي بسبب السكر الشديد. صرخت (أميرة) و(كاثي) بعفوية الخائف من هلع المنظر. أغلقتا الباب في الحال واستدعيتا (سام موريسون) الذي

صدف مروره من أمام الغرفة. حاول (سام) رفع (فاضل) عن الأرض لكنه لم يقوَ على ذلك من شدة الرائحة وثقل الرجل. قال إن الأفضل أن يتم استدعاء الإسعاف، فلربما يكون مصاباً. أمام كل موظفي المركز، حمل رجلان (فاضل) على نقالة بعد أن اعتنيا به وقاما بتنظيفه وإيقاظه. تطلع هذا المسكين بعيون مطفأة ذليلة بوجوه مرؤوسيه الواقفين على جانبي الممشى الطويل باتجاه باب المركز الرئيسي، ثم أغمضهما تجنباً للحرج الكبير وشعور الذل. عندما اقترب من (أميرة) أمسك يدها وطلب برجاء خجول أن تذهب مع (كاثي) إلى منزله لإحضار ما يلزم من ثياب داخلية وأشياء أخرى. وضع مفتاح بيته في عمق كفها وضغط عليها. هزت (أميرة) رأسها بالموافقة وابتمست بشكل طفيف.

(أتتني فرصة الدخول إلى منزل (فاضل) على طبق من ذهب. أخذت (كاثي) تحضر ما طلبه منها بينما كنت ألفّ المكان الذي بدا كشقة صغيرة في مبنى جميل، كثير الأشجار، يحتوي على بركة سباحة وغرفة للتمارين الرياضية. لو لم أكن أعرف (فاضل) لقلت إن هذا البيت هو لرجل آخر. كانت سجادة الصلاة موضوعة بالقرب من أريكة غرفة الجلوس، وكذلك نسخة مذهبة قديمة من القرآن الكريم. واضح أن (فاضل) يستعملها باستمرار. لم يكن هناك أثر للكحول في المنزل، وإنما عدد لا يحصى من الأقراص المضغوطة منتشرة في أرجائه لمطربين عراقيين ماتوا ولم يبق إلا نواحهم على العراق. كتب كثيرة كانت أيضاً مرمية في أكثر من زاوية، وكذلك صور بأحجام مختلفة لأناس لا بد أنهم أقارب وأصدقاء حميميون.

هذا المنزل لم تدخله امرأة. هكذا فكرت وأنا أتجول فيه بفضول. عالم صغير خاص لرجل وحيد. شعرت بغصة في قلبي وشيء من التعاطف معه رغم صورته في الحمام التي لم تبرح خيالي. كيف يجمع هذا الرجل كل شيء على سطح واحد! وكيف لا يجمع! وكأني عثرت على كائن منسجم مع نفسه طوال حياتي الممتدة لخمسة وأربعين عاماً. كأني عشت في وطن من دون أخطاء! كأني يا الله...، هذا كوكب الأرض وليس جمهورية أفلاطون!).

أغلقت (أميرة) و(كاثي) باب مصيبة (فاضل) وراءهما وتوجهتا إلى المستشفى. كان بعض الزملاء قد سبقوهما إلى هناك وتجمعوا أمام باب غرفته. أخذت (أميرة) من (كاثي) الحقيبة الصغيرة التي جمعت فيها أغراضه ودخلت بمفردها إلى الغرفة. حالما رآها (فاضل)، استقام في سريره وشكرها. اعتذر بصوت شبه مسموع ثم أخذ يدها وقبلها.

- هذه أول مرة أقبل فيها يد امرأة عربية منذ أن أتيت إلى هذه البلد. سامحيني يا (أميرة). سامحينا كلنا. أمران لم أقوَ أن أتخلى عنهما في هذه الغربة المجرمة؛ الشراب والصلاة! لا تستغربي. هناك أمور أخرى لو عرفتيها ستكتمل الصورة أكثر...!! ابتسم (فاضل) فضحكت عيناه بسهوله. فهمت (أميرة) باقي الصورة. فهمتها بسهولة. استطاعت أن تغفر قليلاً لهذه التوليفة تناقضاتها العنيفة. لقد انكسر حاجز بينهما اليوم ليس بسبب تفهمها فقط، وإنما لأن التواطؤ المحبب يبدأ من كشف نقاط الضعف وينتهي بها. لقد قام (فاضل) أمام (أميرة) من عمق فضلاته، بدا حقيقياً وآدمياً.

(لكن ليس الجميع يرى (فاضل) كما رأيته أنا للتو، بعيون الأم والممرضة، وإنما يرونه بعيون التحدي الذكوري والتشفي. لقد تحدثت أنا و(سام) في الكافتيريا التابعة للمستشفى لساعتين كاملتين. قال بأن (فاضل) رفض التدخل لمساعدته في العثور على ابنه بالرغم من كل ما يملك من اتصالات وعلاقات. شتمه بحرقة بعد أن حل "البيبون"من حول عنقه ورماها جانباً . قال عنه أنه داعشي أصلي، وجاسوس يخبئأسراراً مرعبة. قال عنه إنه لوطي، وإن مغامراته النسائية مجرد كذبة أخرى في سلسلة كذبه التي لا تنتهي. قال عنه إنه يقبض من عدة دول نفطية، وإنه لم يكن يوماً يسارياً كما يدعي. قال حتى الشعر الذي يرتجله ليس من تأليفه وإنما سرقه من شعراء مغمورين لم يسمع بهم أحد لسوء حظهم. قال أشياء كثيرة كمن يخرج مارد القهر الغافي في صدره لقرون طويلة. تذكرت سجادة الصلاة في منزل (فاضل) وزجاجات الويسكي على مكتبه عندما كان (سام) يفور وينسكب أمامي مثل الحليب المغلي، رامياً شتائمه على الرجل في كل الاتجاهات. حتى زوجته (نانسي) كما قال غاضباً ، حين قامت بإخبار "الإف بي آي" عن قصة هروب (عمر) لم يعترض خوفاً من اتهامه بالتعاطف مع ابنه.

قاسية هذه المدحلة العملاقة التي وجد نفسه تحتها وبين فكيها. لقد كان يكثر من زياراته لزوجته السابقة (هداية)، ليتحدثا في أمر (عمر) كل يوم. كانا يبكيان، يندمان ويصمتان ليخرج بعدها لخف وزناً وأكثر راحة. من غيرهما يعرف هذه المصيبة؟ من

غيرهما يشعر بتبعاتها، ويتألم لهذا الفقدان الكبير لوحيدهما؟ قال لي إنه لم يطق أن ينام في نفس السرير مع (نانسي) منذ تلك الحادثة. كان يخلق ألف عذرٍ كل يوم لكي يبقى وحده. حتى أنفاسها، شكلها وهي غافية، رائحة قميص نومها تشعره بالغثيان والقرف. هدَّهُ رحيل (عمر)، وجعل حياته تتأرجح على طرف هاوية. حتى ابنه من (نانسي) عندما عرف بالأمر، جل ما فعله هو إطلاق عبارة استغراب، وشتم بالإنكليزية، ثم أدار ظهره وعاد إلى أموره. لم يكن الأخَوَان صديقَين في أي مرحلة من مراحل حياتهما، إذ كان كل منهما متطرفاً فيما يفعله، فحين كان (عمر) يقضي يوم الجمعة في الجامع، كان ابن (نانسي) يقضي الأحد في الكنيسة، بل إنه أحد أكثر المراهقين الناشطين فيها والمدافعين عن عدم السماح بالمزيد من "الغرباء" القادمين إلى أمريكا على هواهم، متناسياً أن والده منهم. غريب! كلما تقدمت بي الأيام في هذا البلد، كلما غاصت قدماي عميقاً في وحل عرب أمريكا الطري وذي الرائحة النفاذة).

وحلُ أمريكا التي أخذت تغوص فيه (أميرة) ليس وحلاً وطنياً. صحيح أنهُ قذر، لكن ليس فيه رائحة زواريبنا ولا حاراتنا ولا تلك الأصوات المتألمة التي تخرج من وراء الجدران. مشاكلهم في الغربة تختلف عن مشاكلنا. في أوطاننا تكون عذاباتنا قضاءً وقدراً. قد نتمرد عليها، ولكن نعرف عميقاً في نفوسنا أنها باقية لأنها جزء من طبيعة الحياة فيها. لن أدع (أميرة) بعيدة عن مشاكل عرب أمريكا، وإلا ما قيمة كل حضورها إلى هذا البلد، وسأكون مثل "جان

دارك"[24]، أحميها متى تطلب مني الأمر ذلك، لكني لن أحل مكان القدر كثيراً، خصوصاً إذا ما هبت رياح الحب وعصفت بنوافذ حياتها الموارية والمطلة على الاحتمال!

(24) **جان دارك**: بطلة قومية وقديسة فرنسية.

المدن المتعالية

(أوصلني (سام) بسيارته إلى باب المبنى الذي أقيم فيه، وودعني وهو يشد على يدي بامتنان.شكرني كثيراً ، وقال لي إنني أخت حقيقية له. طلب مني أن أناديه من الآن وصاعداً باسمه الأصلي (سمير). هززت رأسي مبتسمة وذهبت. لقد ظهر لي إخوة وأخوات كثر في هذا البلد العجيب، كانت المصائب فيها هي أمنا وأبانا المشتركين. مع ذلك، في سوريا لم تجمعنا المصيبة، وإنما فرقتنا بقوة، ونبت شارب الخصام الأسود فوق وجوه الجميع. لقد اختلفت كثيراً فيما مضى مع آخرين لكن لم يكن الفاق مهولاً كما حصل مع من كُلت معهم خبزاً وملحاً لسنوات طوال! حرب سوريا رفعت الغطاء عن طنجرة الخلاف العملاقة، وبان حقد كثير على السطح. بانت النوايا كما هي. بانت شريعة الغاب أول ما لاح شبح المال والاستفادة من بعيد لست ملاكاً - من يدّعي أنه كذلك في هذه الدنيا الفانية - ولكني لن أغير قيد أنملة في موقفي مهما كان الثمن. كان صوت والدي هذا الصباح متهدجاً على الهاتف بكى كثيراً هذا الرجل الحبيب وأبكاني معه. قال إن (أم علاء)، سلوته في هذه الآخرة، لم تعد قادرة على الحضور كل يوم من ريف دمشق

بـ"الميكروبـاص". تعبـت المـرأة الطيبـة مـن المـرور علـى عشـرات الحواجز لكي تصل إلى القيمرية. لم يعد سنها يحتمل إنهاك الذهاب والإياب والانتظار. كانت تشعر أنها تنتقل بين دولتين. تخرج بطاقتها الشخصية كلما أشار أحدهم للباص وتتنظر. كل حاجز هو عبارة عن برميل وعلم وعناصر تنتمي لجهة أمنية أو سياسية ما. لا مكان للمزاح أو مجرد الابتسام. لا أحد يعترض "الكلاشينكوف" بين يدي عناصـر الحـاجز، وهـو جـاهز للاسـتعمال عنـد أول ريبـة. رأت المسكينة قصصاً يقف لها شعر الأبدان وهي تروح وتجيء كل يوم من الريف إلى العاصمة. على طرفي الطريق، هناك دائماً شباب بلباس خاكي يحملون مسدسات على خصورهم. هم في كل مكان يمسحون المدينة شبراً شبراً. قالت لوالدي شاكية إنها تعبت من منظر البلد من وراء زجاج الباص. الزبالة صارت أكواماً، والنازحون إلى العاصمة من الريف الدمشقي ضاعفوا عدد سكان المدينة فانتفخت بهم. كل عائلتين أو ثلاثة تقطن في بيت واحد، محتملين قلة الماء والكهرباء والغلاء الذي أصبح غولاً يفوق دماره دمار الحرب ذاتها. كل هذا بينما القذائف لا تتوقف. صار قاسيون مصدراً لهذه الحمم المرعبة، وصار الدمشقيون خبراء يعرفون نوعية السلاح من صوته. هذا صاروخ وتلك قذيفة هاون، وهذا رصاص، وتلك سيارة مفخخة. أحياناً، في نفس الباص الذي يقل (أم علاء) إلى الريف، كانت تعثر على تجار يحملون الخضار من سوق الهال في دمشق إلى هذه المناطق "المعادية". تعبر هذه السلال من الخضار كل الحواجز الأمنية لتصل إلى "حدود" هذه المناطق فتفرغ حمولتها. هذا ليس

اتفاقاً ضمنياً صامتاً بين السوريين لكي يعيلوا بعضهم البعض في الأزمات مهما كانت اختلافاتهم، وإنما هي الحسابات الدقيقة "لتجار الدم" الذي لا مصلحة لهم أبداً في تغيير الواقع. حتى "ربطة الخبز"، كان هناك من يقبض عمولتها على هذه الحواجز. كلما لاحت مصالحة في الجو تنزل الصواريخ على بنود الاتفاق فتمزقه إرباً. تعرف هذه الصواريخ طريقها جيداً وبدقة. لقد رسمت خريطة المدن المتعالية وسوتها بالأرض. جعلت مئات الآلاف يهربون منها لكي يعيشوا بين الرماد. كل يوم تضرب (أم علاء) على رأسها أمام والدي وهي تميل يميناً وشمالاً نادبة، "ماذا حل بنا؟ كيف وصلنا إلى هنا؟ كانت حياتنا مقبولة بل جيدة؟ هذا غضب من عند الله.. غضب كبير، كبير جداً".

لقد قسمنا السماء والأرض فيما بيننا. أنفاق ليس لها آخر تحت الأرض، ومقاتلات الجو تحرث الفضاء بينما امتلأت أطلال المواقع التاريخية بالأسلحة والمقاتلين وغرف العمليات السرية. دويلات كثيرة ظهرت في هذا البلد تفصل بينها عشرات الأمتار ومئات العائلات وآلاف القلوب والأحلام. صفقات الحبوب والقطن هي الأخرى تعبر الحواجز ويقبض كل منها عمولته، لتصل أخيراً إلى يد مستوردها الأوروبي. الجميع موافق على هذه التقسيمات والتفاهمات، كل ما يلزم هو وثيقة سفر بين هذه الدويلات أو هذه العواصم الكثيرة التي حملت أسماء غريبة، مثل "عاصمة الخلافة"، كما سموا مدينة "الرقة"، أو "عاصمة الكفر"، كما سموا دمشق المقدسة، بيت الياسمين والحب الأبدي. "كرهت حياتي، قالت الحجة (أم علاء)

لوالدي، خذلتني الدنيا، ولم تراعي شيبتي ولا آخرتي. سوريا التي أحب ذهبت إلى غير رجعة. من يرجعها بمال الدنيا كلها. من يعيد رائحتها القديمة وحلاوة روحها وطيب عيشها. من يعيدهاااااااااا!").

* * *

الجواب ليس لدى (عمر) حتماً ولن يكون. مع ذلك، فقد كافأه (أبو بكر) بطريقة لم يكن يتوقعها لأنه قَبِل التجنيد والمشاركة في القتال. في اللحظة التي أنهى فيها تدريبه، شد على يده وهمس في أذنه أن يرتاح ويأكل جيداً. كان عمر يتوق لكي يرحل إلى سوريا في الحال، لكن (أبا بكر) استمهله ليومين آخرين لأنه يريد أن يوفي ديناً له عليه. ارتاح (عمر) طويلاً لدرجة الضجر في الخيمة المخصصة لمشاهدة الأفلام قبل أن ينطلق هو والرجل في عصر ذلك اليوم إلى وسط مدينة غازي عنتاب، بينما كانت الشمس تسقط أشعتها في النهر. كان (أبو بكر) يقود سيارة "نيسان" حديثة بنفسه بعد أن لبس جينزاً نظيفاً وقميصاً شبابياً ملوناً، وحذاءً رياضياً أبيض. فاجأ (عمر) بهيئته الجديدة وموقفه المتغير وابتسامته العريضة المرتاحة. كان يدندن لحناً بدوياً وهو يقود سيارته مبتهجاً. تطلع (عمر) إليه من طرف عينه وابتسم. فكر أن هذه النظافة ليست من أجل الذهاب إلى الجامع لكنه لم يسأل وترك نفسه للمفاجأة.

غازي عنتاب مدينة جميلة بمبانيها ومآذنها الكثيرة المشرئبة باتجاه السماء، وصناعة البقلاوة العريقة فيها. لكن قربها من المناطق التي سيطرت عليها "داعش" في شمال سوريا جعلها العاصمة التركية الصامتة لهم. منها ينطلقون في تجنيد المقاتلين بخطاب ديني

من صنع اللحظة، خطاب يترك أثره سريعاً في المدمنين والعاطلين عن العمل. منها أيضاً يتم التخطيط والتدبير للتفجيرات هنا وهناك، وكذلك إنشاء معسكرات تدريب في الضواحي. حتى المقاتلين المحليين والأجانب ينطلقون إلى سوريا من هذه المدينة التي يغلي باطنها ويفور وينسكب إلى خارج حدودها. إنها محجة لعائلات الشبان الذين تركوا منازلهم وذهبوا للقتال، ولأمهات وآباء يبحثون عن أبنائهم في كومة قش، ويشتكون لطوب الأرض. أما في المساء، مثلها مثل العديد من المدن التركية الأخرى، تتحول غازي عنتاب إلى مرتع للهو. أكثر من مئة ألف فراشة ليل تنتشر في طول البلاد وعرضها، بعضها "مرخص" و"شرعي"، والبعض الآخر تغض الدولة نظرها عنه وأحياناً تعمل على إغلاقه لأي سبب كان. لم تعد السلطة مقتنعة كثيراً أن الدعارة هي باب للفرج الاقتصادي، إذ هناك شيء آخر ينمو في عقول سياسييها الذين طاب لهم إقامة شرع الله فوق هذه الأنقاض المتألمة. مع ذلك، يأتي السائح إلى هذا البلد، فيرى فيها غاية قلبه من طعام ونساء وتسوق. في النهار، تلبس المدينة الجبة العثمانية القديمة والطربوش وتحمل السبحة وتبسمل، وفي الليل، يظهر عريها وراء غلالة الإبهار الصاخبة، بينما يسرح ويمرح فيها السكارى والساقطات حتى الصباح. أما في أنفاقها، فيقوم رجال بلحى طويلة بفرد الخرائط والتخطيط لعمليات الموت المتنقل.

(أبو بكر) يعرف كل شبر في المدينة. له عين تمسح المكان الذي يقف فيه بدقة تشبه دقة آلة تصوير. يعرف نوايا الناس حوله من أول حركة. تحت ثيابه الرياضية الحديثة، هناك سيف في غمده

مسنون للتو. تطلع إلى (عمر) وضرب بقوة رجولية على كتفه داعياً إياه للنزول من السيارة وهو يبتسم بنشوة. كانت الساعة قد قاربت على السابعة مساء، الوقت الذي تبدأ المدينة فيه بتغيير "حلاسها"، ويجوب فيها قوّادو الشوارع مثل الكلاب الضالة حيث يقفون قرب الفنادق والأماكن التي يتواجد فيها العرب أو السواح، عارضين عليهم فراشات بأسعار يمكن المبارزة فيها على هوى البائع والمشتري. هناك بضاعة لكل راغب مهما كانت نقوده قليلة، يتحكم في هذه البورصة نسبة الجمال، نظافة الغرفة، السن، وأمور أخرى يعددها البائع ليزيد من الرغبة في بضاعته، كأن يهمس للمشتري بأنها "مرنة وتقوم بكل ما تريدها أن تقوم به، جربها ولن تندم"! في فترات الكساد، يهبط السعر من 200 ليرة تركية إلى 20، أو حتى يكون المقابل وجبة غداء إذا كانت لاجئة أو تعمل من دون ترخيص.

ما إن دلف (أبو بكر) و(عمر) من الشارع شبه الضيق الذي ركنا سيارتهما فيه حتى قدم رجل باتجاههما. قال لهما بتركية رخوة من البعيد "200 ليرة فقط من أجل ليلة عظيمة مع أجمل "قحبات غازي عنتاب". دفعه (أبو بكر) من دون أن يرد وأكمل سيره مع (عمر). لكن الرجل صاح فجأة "كلهن عربيات". جمع (أبو بكر) قبضته، وبان الحنق الشديد على وجهه مكملاً سيره من دون أن ينبس بكلمة، دافعاً (عمر) برفق من ساعده لكي يحثّا الخطا.

دخل (أبو بكر) مع (عمر) إلى "صالون تجميل" من بابه الموارب في آخر الشارع. تعرفت عليه صاحبة الصالون في الحال وهرعت بابتسامة كبيرة للترحيب به واحتضانه. استغرب (عمر)

وبانت على وجهه ريبةٌ لا يمكن تجاهلها. أخذ (أبو بكر) يضحك عالياً ويقرص المرأة من مؤخرتها ويقبلها مداعباً. قال لها بتركية ضعيفة وهو يشير إلى (عمر) "اعتني جيداً بهذا البطل"، ثم ضرب مرةً ثانية على كتف (عمر) قائلاً "هيا.. اذهب معها ولا تعد إلي إلا مهدوداً وإلا فجرتك!"، ثم ضحك بحرية فالتة لم يألفها منه أيام المعسكر.

تَركتُ (عمر) يذهب مع المرأة من دون أن يعترض بكلمة رغم توتره واستغرابه مما يحدث. لقد عرف ما هي المفاجأة التي أعدها (أبو بكر) له. فراشة ليل طيبت نفسها هذه الليلة خصيصاً له. إذاً سيذوق طعم الحوريات قبل أن يكرمه الله بالشهادة! هكذا فكر بخجل وهو يمشي وراء المرأة في ممشى ضيق طويل يؤدي إلى عدة غرف على جانبيه، بينما أخذت تقفز صور (مارغو) أمام عينيه وهي تختنق تحت ثقل جسده الضخم وعرقه الذي كان يتصبب فوقها بغزارة.

مارغو وأمينة

حين تخرج (عمر) من جامعة "يوسي إل أي" في لوس أنجلس، كان ما زال "بكراً" لم يلمس امرأةً إلا في خياله. ليست هذه حال حتى الفتيات الصغيرات في أمريكا، إذ عليهن، كنوع من التقليد، أن يفقدن عذريتهن خلال دراستهن الثانوية أو قبل حفلة التخرج بساعات مع أي طالب، إذا لم يكن قد فعلنها خلال سنوات الدراسة. أما الشبان فغالباً ما ينسوا أسماء الفتيات اللواتي عاشروهن لكثرتهن. (عمر) بقي "بكراً". لم يكترث أو يلتفت لأحد. كان يتدبر أموره لوحده. عثر على فتاوٍ كثيرة من هنا وهناك جعلته يرتاح فيما يفعل. كان صامتاً في هذا الموضوع، فمنذ حادثة تحطيم زجاجات الويسكي في مكتب والده قرر أن لا يفصح عما يفكر أو يعتمل في نفسه. بنى جدراناً من فولاذ في داخله وأقام خلفها إلى يوم طرقت بابه "مصيبة" جميلة تقطن في البيت المقابل لمنزله. ليست الجيرة ما دفع (بمارغو) الشقراء لكي تتقدم إليه بدلال وهي ترتدي سروالاً قصيراً بينما كان منشغلاً في مرآب المنزل، وإنما الإغواء الذي كانت تشعر به يشع من عيني (عمر) الشرقيتين، وتمنّعه المستمر كلما حاولت التحدث إليه. هذا الطعم

"الإكزوتيكي" للحب، هذه "الفانتازيا" الشرقية للغرام، هذه الغواية التي تلوح من البعيد تقترب ثم تنأى بنفسها، كلها كانت تدفع بقدمي (مارغو) تجاه المرآب بكثير من التصميم وقلة الصبر. هذه المرة، لن تتراجع حتى لو اضطرت إلى تقييده في مكانه.

انهار (عمر) بعد خمس دقائق من وصول (مارغو). لم تكن بحاجة لأي حركة إقناع. لقد اغتصبها بعنف عدة مرات من دون أن تعترض وكأنه يهد جدران الفولاذ في داخله كلها دفعة واحدة. بعد أن انتهى، لم يطق التطلع في وجهها. هرب إلى داخل المنزل وأجهش في البكاء. لم يرَ (مارغو) ولا بالمصادفة من بعد هذا اللقاء على الرغم من تقابل المنزلين. اختفت الفتاة ورحلت هي ومصيبتها الجميلة. بقي (عمر) لسنوات كثيرة يتذكر ما حصل قبل أن يخلد كل ليلة للنوم. عادت جدران الفولاذ إلى سابق عهدها بعد أن أمعن في الدين، لكن حدساً شبحياً داخلياً كان يقول له إنها هي الأخرى يمكن أن تُهد عن بكرة أبيها إذا ما لاحت "مصائب" شبيهة أخرى في الأفق.

من جديد، في إحدى غرف غازي عنتاب السرية، عاد (عمر) يتلمس سخونة هذه الجدران القوية وذوبانها البطيء. رأى نفسه مصلوباً عليها مثل المسيح. استجمع قوة دهرية لكي ينتزع نفسه منها ويقبل بـ "الهدية" لكنه لم يفلح. حين دخل الغرفة وجدها جالسة مثل تمثال أمام مرآتها تنتظر في عريها الرخامي الحزين، كما هو الحال مع فراشات الليل في فنادق تركيا. جفل ثم تراجع خطوة. اعتقد أن الأمر سوف يبدأ بحديث ما، بكلمة ما. صدمته هذه الفظاظة. ما زال

يعتقد أن في الأمر، حتى مع العاهرات، طيفاً من ود قبل أن يقتحم عالماً اخترقه ربما آخرون قبله مئات المرات. تطلعت إليه المرأة بعيون زجاجية، وطلبت منه بالعربية أن يخلع ملابسه. هل عرفت بحدسها أنه عربي؟ السحنة لا أحد يخطئها، ولا البنية أو لون العينين، أو لعلها الخبرة وكثرة العرب الذين قضوا أوقات فراغهم في غرفتها! الله أعلم!

ارتبك (عمر) كثيراً. قال لها وهو يغض بصره خجلاً إنه ليس بمستعجل، ثم جلس على طرف أريكة مطرقاً. لو كانت المرأة أجنبية لهان عليه كثيراً هذا الأمر، ولكن مع العربية وجده مُحرجاً. شعر بالعار وكأنه أمام أخته. طلب منها أن تضع شيئاً عليها وليتحدثا قليلاً. بسرعة لبست المرأة ثيابها كاملة بل حتى وضعت غطاء على رأسها وتطلعت إليه بقلق تريد أن تعرف من هو. أخيراً، تجرأ (عمر) ونظر إلى عينيها الكبيرتين، وفي الحال رأى شعاع البراءة والحزن الدفين يشع منهما. كان تبرجها رخيصاً، وطلاء أظافرها البراق شبه ممحي. رأى ندوباً شبه زرقاء على سطح قدميها وساعديها بينما صبغت بعض خصلات شعرها الأسود بالنحاسي المحمر فبان الفرق غير متسقٍ ولا منسجم. كل هذه القذارة لم تقتل البراءة في بؤبؤ عينيها. الروح تعرف من دون براهين أو مقدمات. لا يحتاج المرء لاستجواب الآخرين لكي "يحس" بكنههم. أول انطباع هو الأصدق. أول إحساس هو الأدق. كل ما على المرء أن يفعله هو أن يبني فوقها الباقي وينطلق. في بلاد الشام تتعدد اللهجات وتختلف بشكل طفيف فيما بينها. لكن ما إن يعرف المرء

أن الآخر من بلد مجاور له في الوطن الكبير، حتى يدرك أنه يتحدث إلى ابن بلده. نكاتنا تتشابه، أطباق طعامنا وكذلك شعورنا المزمن بالكآبة.

سألها عن اسمها فردت (أمينة). قدم نفسه إليها كسائح من عرب أمريكا، من أب فلسطيني وأم أردنية. قال لها إنه أتى مع صديق، وإن هذه لم تكن فكرته وكأنه يعتذر منها عن حضوره. لم تثرْ هذه المرأة أي جزء من جسده. لم يشعر حتى بميل للمسها. قتله خاطر أن يعرف من هي بينما كان يجاهد لكي ينزع نفسه عن صليب جدرانه الفولاذية التي أخذت تميع وتذوي.

- اسمي (أمينة). هذا اسمي الحقيقي، أما هنا فينادوني (روجين)، ومعناه شمس الحياة. أنا من حلب. تعلمت التركية وأتحدثها بطلاقة بسبب هذه المهنة. رأيت الكثير من العرب، ولكن كان هناك أتراك أيضاً وأجانب. اجتزت الحدود هاربةً مع أختي بعد أن توفي والداي وهما في السوق إثر تفجير أحدهم نفسه بين المارة والمتسوقين. ذقنا المُرَ قبل أن نجتاز الحدود وبعد أن اجتزناها. قالوا لنا إن تركيا نصبت عشرات الآلاف من الخيم للاجئين وإن الطريق سالك بقدر كبير، لكن اكتشفنا أنه كان علينا أن ننتظر أياماً بلياليها في البرد القارس قبل أن نصبح على الطرف الآخر من الحدود. حتى رحلتنا من حلب إلى غازي عنتاب كانت رقابنا فيها على حد السكين. الطريق كان مليئاً بنقاط تفتيش وكذلك دبابات يعتليها جنود، ومدافع نصبت في مواقع محددة قرب التلال ووجهت سبطاناتها على تقاطع الطرق والنقاط الضعيفة. كنا نسير

باتجاه معبر "باب الهوى"[25] الذي قالوا لنا إنه بيد المجاهدين. كانت المسافة تقارب الستة كيلومترات من الجحيم. الموت كان أقرب لنا من أنفاسنا! لم يكن علينا أن نترك حلب مهما كلف الثمن. كانت حياتنا كريمة ونعيش في بحبوحة. كان والدي يملك معملاً صغيراً لصناعة الجوارب الصوفية في المدينة الصناعية، وكان يكفينا لنعيش بكرامة طوال حياتنا. أنا درست التمريض ومارست هذه المهنة. أختي أيضاً متعلمة مثلي وأتت معي هي ورضيعها ابن الثلاثة أشهر. حين ودعنا زوجها قال إنه سوف يذهب للقتال مع المجاهدين. قال لنا في تركيا ستكونون بأمان، وسوف ينمو الصغير ويترعرع في دولة مسلمة وصديقة، وإننا سنعود قريباً حالما يتم القضاء على الكفار وإعلان دولة الخلافة. جلب لنا مُهرباً ماهراً قال إنه يعرف كيف يوصلنا إلى ما قبل الحدود بسيارته، ومن هناك سوف نمشي قليلاً حتى نصل إلى أول نقطة تفتيش تركية حدودية. لم يكن هذا صحيحاً. مشينا كثيراً. قطعنا مئات الحواجز خلال أطول يومين في حياتنا. على أحد هذه الحواجز التابعة للحكومة، سألنا الضابط الذي يتفقد الهويات إذا كنا نفكر بالهروب إلى تركيا، وعرض علينا مكاناً آمناً في سوريا. يا

(25) **معبر باب الهوى**: هو شريان النقل البري بين أوروبا وسوريا والأردن والخليج العربي. يصنف بالمعبر رقم (1) بالنسبة لحركة عبور البضائع والمسافرين من حيث المساحة الجغرافية. جغرافياً: معبر باب الهوى يبعد عن مدينة إدلب 33 كم، ويتبع إدارياً لمحافظة إدلب في الشمال السوري، وهو البوابة السورية الأكبر مع تركيا يقابله معبر جلفاغوز التابع لولاية هاتاي التركية (إسكندرون السورية سابقاً). تاريخياً: يقع على الطريق الروماني القديم (طريق الحرير) بين أنطاكيا وحلب، ويعتبر الطريق الرئيسي للحج.

ريتنا قبلنا... يا ريتنا! ثمان ساعات كاملة مشيناها قبل أن نصل إلى الحدود. قال لنا المُهرب هنا سأترككم ولن تجدوا حافلة توصلكم إلا أقدامكم، الكل يفعل هذا! كان الرصاص ينزل علينا مثل زخ المطر. بعد ساعات، وصلنا إلى جبل كبير انتهى الطريق عنده. كدت أنهار لكن صوتاً ورائي قال أن علينا أن نجتازه الآن. كان الماء قد نفذ، وبين يدي أختي رضيعها الذي لم نعرف إن كان صمته إغماءً أم موتاً. أعان أختي رجلان على المضي قدماً بينما كنت أجر قدمي المتسلختين وراءها وأنا أبكي. كانت المجموعة التي اجتزنا الحدود معها تردد آيات قرآنية من دون توقف لكي تعيننا على المضي والتحمل. كنت أندم في كل خطوة لأني تركت حلب. كان علي أن أموت أو أحيا فيها.

- وماذا حدث بعد ذلك، كيف وصلت إلى هنا؟

- حالما وصلنا إلى الحدود، سمعنا مشادة كبيرة بين لاجئين آخرين وضابط تركي من حرس الحدود. عرفنا أن الدخول لم يعد سهلاً. فيما مضى، كان التركي يتساهل فلا يكلف الفرد منا أكثر من عشرة دولارات ليصبح على الطرف الآخر. بقينا على الحدود أكثر من أربعة أيام بلياليها في برد جليدي. مات ابن أختي. دفناه في الأراضي السورية وعبرنا. عندما وصلنا إلى غازي عنتاب، قالوا لنا إن ثلث سكان المدينة أصبحوا من اللاجئين. جعلونا نقف في أرتال أمام أحد المقار التابعة "للجندرما" التركية ليتم أخذ بصماتنا ومنحنا هوية تعريف باللاجئ. بعد ذلك، أخذونا إلى المخيم. حالما أعطونا أنا وأختي خيمة لكي نرتاح فيها، انهرنا من شدة التعب، ونمنا لأكثر

من سبعة عشرة ساعة متواصلة. خلال أقل من شهر، وجدت نفسي متزوجة من رجل قال إنه رآني أعبر الحدود، وإنه يريد أن يرتبط بي على سنة الله ورسوله، ويريحني من حياتي في المخيم. أسكنني في شقة جميلة في وسط غازي عنتاب. ظننت أن الدنيا قد أخذت تبتسم لي، لكن لم تمر عشرة أيام حتى طلب مني أن أعاشر صديقاً له جلبه إلى المنزل. جُننت، وأخذت أصرخ وأشتم. رأيته بارد الأعصاب يتطلع إلي بابتسامة ساخرة قائلاً: إن لم تفعلي حالاً، فسوف يكون مصيرك الشارع وربما السجن أو حتى رجل آخر مثلي قلبه أكثر قسوة! لم يكتف بهذا، وإنما جعل صديقه يغتصبني في غرفة نومنا. في اليوم التالي، هربت ولجأت إلى صالون التجميل هذا بحثاً عن عمل. قلت في نفسي على الأقل أكون بين نساء. أعطوني غرفة خاصة بي تقع وراء الصالون، هي هذه الغرفة التي نحن فيها الآن، ثم طلبوا مني الاستحمام وقدموا لي طعاماً ليومين. في اليوم الثالث، دخل علي رجل. عرفت أنهم ظنوا أنني أريد أن أعمل في الدعارة. لم أعرف إلى أين أذهب. لم يكن لدي ليرة واحدة في جيبي ولا هاتف نقال ولا حتى كنت أجيد التكلم بالتركية بشكل جيد. استسلمت. أنا هنا منذ عامين لا أعرف شيئاً عن أختي. أطلب من الله أن تكون على قيد الحياة، وتعيش بكرامة. آخر مرة رأيتها فيها كانت يوم زواجي.

بكت (أمينة) بعد هذا الحديث الطويل بحرقة وهي تردد "والله العظيم أنا بنت عيلة.. والله العظيم أنا بنت عالم وناس!".

ابن البلاد

(لوس أنجلس تشبه مدينة معدنية "بتريليونات" الأطنان ضائعة في الفضاء. بينما هي طائرة بضجيجها الصاخب الفولاذي وثقلها المهول، شاقة ظلام الأبدية اللانهائي، يفور في داخلها عالم هش من دون وزن. سنة في هذه البلد جعلتني أفهم طعمها، وأرى كيف يتأرجح عربها بإرباك فوق عجلاتها الصدئة المسننة التي لا تتوقف عن الدوران. بعضهم عرف كيف يتمسك بها ويتجذر ويعيش بذاكرة الخمس ثوان، وكأن فيروساً أصاب أدمغتهم، والبعض الآخر ما زال "قدم هنا وقدم هناك"، مثل هندي فقير عالق بباب حافلة مأهولة منطلقة.

قال لي (سام) في واحدة من جلساتنا الحزينة بعد هروب (عمر)، إن الحنين يضخم الأمكنة في عقولنا، ويلقي عليها بريقاً ليس فيها. فالبيت الصغير الذي ترعرعنا فيه يصبح قصراً، والجامعة التي ضمتنا بين جدرانها تتحول إلى صرحٍ ضخم، والزقاق الذي لعبنا فيه حيث تتقابل المنازل لدرجة التلاقح، يغدو جادة ضخمة عريضة. لكن ما إن نعود ونرى كل هذا بعيون سنوات الغربة والابتعاد، حتى ينهار كل شيء دفعة واحدة، مدركين كم نحن مدمنون في البلد الثاني على نظام حياة لطالما كرهناه. لقد ذكرتني كلمات (سام) بكلمات والدي. قال لي مرة إنه

حين زار جامعة "روبرت كوليج"[26] في إسطنبول التي تخرج منها في أواخر الخمسينيات، لم يصدق الحجم الصغير لمبنى الجامعة وصفوفها مقارنة بالحجم الذي كان مسجلاً في ذاكرته. جلس على أحد المقاعد في إحدى القاعات الفارغة لمدة نصف ساعة يفكر ثم غادر المكان إلى غير رجعة. غريب! كأن إبقاء الأمكنة محفوظة بملح الحنين الأبدي يقيها من التلف والتقلص ويضفي عليها هالة ما. كأن له قدرة على الإبداع وإعادة التشكيل. يتسرب الخيال إلى قماشة الحنين فيغرقها بحلاوة وألوان ليست فيها، إلى أن يأتي هذا اليوم ويشعر الواحد منا أنه بحاجة لكي يلمس بيديه موضوع حنينه، عندها تنهار الدنيا كلها فوق رأسه، ويقف مدهوشاً من صغر ما يرى!

ما زالت ذاكرتي طرية، ولم أتحول بعد إلى واحدة من عرب أمريكا بالمعنى الحقيقي للكلمة. ساعدني على ذلك قصر المدة التي قضيتها ها هنا، وكذلك الوجع الكبير الذي في داخلي على سوريا، فهو يوقظني كل لحظة ويضعني على سكة الواقع بحدة من جديد. في دمشق، ندور في فُلك صغير تتموضع فوقه حاجاتنا وأحلامنا ورغباتنا الصغيرة. الحب عندنا خجول وأحيانا مأساوي، والفرح نلحقه بتعاويذ لفظية لكي يبقى ويدوم، أما الطموح، فهو مكسور الخاطر إلا إذا أتته ضربة الحظ الإلهية عندها ينفجر مثل الألعاب النارية في السماء. سوريا صورة مكبرة عن دمشق مع اختلافات محددة لزوم الجغرافية

(26) **جامعة روبرت كوليج في إسطنبول:** هي أقدم الجامعات الأمريكية (154 عاماً) خارج الولايات المتحدة الأمريكية. هي جامعة خاصة تقع في القسم الأوروبي من مدينة إسطنبول بين الجسرين الواقعين على مضيق البوسفور. تخرج من هذه الجامعة العديد من الشخصيات العامة من بينها الكاتب التركي (أورهان باموق) الحائز على جائزة نوبل للآداب.

والتطرف. أما في مدينة مثل لوس أنجلس، المدمنة على بناء الصروح الدينية وصناعة الأفلام الإباحية في آن، المدمنة على الفن من غير قيود والإبداع فوق قدرات العقل، المدمنة على القوانين الصارمة التي لا ترحم، وكذلك على الانفلات غير المفهوم, على المطاعم الخرافية والقصور الباذخة، وكذلك على شوادر الفقر التي رأت ملاذها تحت جسورها. في هذه المدينة، كل شيء وارد حدوثه رغم نظامها الذي ضبط بسلاسل خفية لا يُسمح لأحد بتجاوز خطوطه الحمراء الكثيرة والضمنية. مجلات وصحف كثيرة بالمئات تفترش أرصفة ورفوف المكتبات تتحدث عن فتيات "البلاي بوي"[27] التائبات، وكذلك عن مراهقين يبدؤون حياة الإدمان والجنس مبكراً، عن إبداعات الكتاب الحقيقيين الذين يملؤون المقاهي ويعملون بهدوء وتؤدة على حواسيبهم الشخصية الصغيرة، عن أخبار رجال الأعمال ذوي العقول الإمبريالية المتضخمة، والذين يتطلعون لحكم البلاد يوماً ما من البيت الأبيض، عن حوادث الطرقات اللانهائية السريعة، حيث الكل ينتظر ساعات وراء متراس مقوده، بينما يلتمع سطح آلاف السيارات الراكدة تحت شمس المدينة اللاهبة وأمطارها، عن مشاكل الناس العاديين المرهقين من الكدح ليل نهار لكي يدفعوا ضرائب وفواتير العيش، عن البدانة الاكتئابية، والطعام السريع الرخيص، والإعلانات التي تمهد الطريق إلى جهنم بالوعود التي تنتهي صلاحيتها بأيام قليلة. في هذه المدينة الاستعراضية المنهكة، يعيش قسم كبير من عرب أمريكا؛ يتحابون، يتحاربون، يتكارهون، يتحفظون تجاه بعضهم البعض، وأيضاً يبرعون

(27) **مجلة البلاي بوي**: مجلة أمريكية للرجال، تظهر فيها العارضات عراة أو نصف عراة. تأسست هذه المجلة عام 1953 ولعبت دوراً كبيراً في الثورة الجنسية في أمريكا.

في نقل صراعاتهم في الوطن الأم إلى المكان الذي يتواجدون فيه بأدق التفاصيل. العرب يشكون في بعضهم البعض في هذا البلد، يخافون من الاقتراب كثيراً من الغريب الآخر "ابن البلاد"، إذا كان قادماً جديداً أو بحاجة للمساعدة أو المال. في الوقت نفسه، هناك من أُعجب بالثقافة الشعبية الأمريكية حيث، في قسم منها، يعمد الناس إلى جمع التبرعات ومساعدة الفقير ومد يد العون لمن يحتاج، والبكاء بسهولة أمام كاميرات التلفزيون إذا ما استدعى موقف إنساني ما ذلك.

لقد رأيت الهويات المتداعية الموجوعة للعرب الأمريكيين الذين أتوا شباباً أو في منتصف العمر إلى بلدٍ خالٍ من حميمية زواريب الوطن، وألوان منازله، وأصوات الباعة، وآذان الفجر، كما رأيت هذا الاندماج الكبير للجيل الجديد، أبنائهم، الذين ولدوا على أرض "كولومبوس" وأصبحوا يضعون أيديهم على قلوبهم كلما سمعوا النشيد الوطني للولايات المتحدة أو رأوا علمها مرفرفاً.

حين أتطلع إلى تاريخنا العربي من علِ، أراه مثل الجزر المعزولة؛ حوادثٌ هنا، وحروبٌ هناك. قصيدةٌ هنا، وخطابٌ هناك. زعيمٌ هنا، وأتباعٌ هناك. لا مقدمات، لا نتائج، لا صيرورة مكانية أو زمانية، وإنما كل شيء يحدث بمرسوم ويتوقف بمرسوم. في أمريكا، لم يعرف العرب أين يحشرون توليفتهم الروحية الخاصة، وإلى أية جهة على عباد شمسهم أن يتطلع. لقد تاهوا، تاهوا كثيراً ولمدة طويلة قبل أن يقرروا استنساخ ما يروه مناسباً ومريحاً لهم، وهكذا وقف الصراع عند هذه الحدود. ربما هذا أيضاً ما حدث لآسيويي ومكسيكيي وهنود هذا البلد، أو حتى لكل قادم من حضارة اختلفت جذورها عن حضارة الدخان والمجاملات هذه).

قصر مرام

(فوق بقعة صغيرة قد لا ترى بالعين المجردة على هذا الصرح المهول الهائم في الفضاء، يقع قصر (مرام). في تلك الليلة التي لا تنسى فتحت هذه المرأة بوابة منزلها الجديد لضيوفها الذين دعتهم إلى قضاء "ليلة من العمر"، كما كتبت على بطاقة الدعوة. كنت مترددة جداً في الحضور، لكن هزم هذا التردد خاطر أنها امرأة من بلادي، تجمعنا الغربة وتفصلنا مسافات كبيرة عن الوطن. قررت أن أُحضرَ (كاثي) معي حيث رحبت بالأمر بابتسامتها العريضة الدائمة).

بدت (أميرة) امرأة كاملة بتكوينها الجسدي الناعم، ورقة نظراتها وزيها البسيط. حلقٌ ماسي صغير مصنوع في حلب، وخاتم مثله في إصبعها جعلها تبدو أكثر حقيقية من الكثيرين حولها الذين أفرطوا في أزيائهم وعطورهم وهرجهم وضحكهم العالي، وبدوا على صورة (مرام) ومثالها. في الحفلات المكلفة الصاخبة، تضيع الأشياء الصغيرة إلا إذا كانت هناك عين بين الحضور تمسح بذكاء وهدوء هذه الفوضى الإنسانية السعيدة، وتنتقي الأصلي من بينها.

هجمت (مرام) على (أميرة) واحتضنتها بشدة مرحبة بها. كانت

تشبه لعبة "الجبصين" الخارجة من علبتها للتو. سحبتها من يدها وأخذت تدور بها في أرجاء "الفيلا" الخرافية، غرفة غرفة، وزاوية زاوية، وهي تشرح وتتحدث كاشفةً عن سعر كل "نجفة" أو تحفة وقطعة أثاث في المنزل بسعادة طفلة صغيرة. لم تكتف بهذا، وإنما أمرت الفرقة الموسيقية التي تعزف على طرف حمام السباحة بالتوقف، ثم التقطت "الميكرفون" بنفسها وقدمتها أمام الجميع، "الدكتورة (أميرة زين الدين) من سوريا". ارتبكت (أميرة) من شدة الخجل. أرادت أن تكون غير مرئية في هذه الحفلة. أرادت أن تتفرج من بعيد على مشاهد ربما لا تحضر مثيلاً لها أبداً، لكن كل شيء أتى على عكس ما أرادت، إذ جعلتها (مرام) تقف تحت ضوءٍ باهر لتلقي كلمة أمام الضيوف، هكذا فجأة من دون مقدمات، وبعفوية جاهلة.

رمت (أميرة) أحجار النرد في الهواء عالياً. راهنت على أن يكون، ربما، بين الحضور من لديه القدرة على الانفصال عن هذه الاحتفالية، والإصغاء لكلمات أرادتها من القلب. راهنت على السوريين الحاضرين وعلى بقية العرب. شعرت بوخزة دبوس الأمل في روحها، وكذلك بلمسة يدي على كتفها. لبستها شجاعة هادئة، ويقين نادر أتى من غامض علمه.

(أنا أستاذة جامعية. أُدرس العلوم السياسية في جامعة دمشق. أتيت إلى هنا بموجب عقد عمل لمدة ثلاث سنوات، وحالما تنتهي مدته، سأعود إلى بلدي).

اخترق رجل كان بين الحضور الحشد المتحلق أمام (أميرة)،

ليقف على بعد مترين منها، بعد أن أيقظته نبرة صوتها، وأخذ يصغي إليها بانتباه، وعلى وجهه ابتسامة صامتة ونظرة عميقة. انتبهت (أميرة) إليه بسرعة وشعرت وكأنها تعرفه. أكملت:

(في الوقت الذي تحتفلون فيه الآن، وتطلقون الألعاب النارية في السماء، وتتحلقون فيه حول "البوفيه" الشهي، وتصغون إلى الموسيقا الصيفية الخفيفة التي تلعبها الفرقة الموسيقية، وتدردشون مع بعضكم البعض، في الوقت الذي تتردد فيه النساء إلى الحمامات للثرثرة، وإعادة رسم الكحل أو تثبيت أحمر الشفاه، بينما الرجال يناقشون أمور الساعة ويسرقون نظرات عابرة على نساء غريبات، في مثل هذا الوقت الذي يرفل بالدعة والانشراح، هناك، في كل بقعة من سوريا، إما صاروخ ينطلق، أو طفل يجوع، أو لاجئ يغادر بيته، أو امرأة تموت بتفجير انتحاري. لا توجد منطقة وسطى بين هنا وهناك أو وسيط بينهما إلا نحن، إلا كلماتنا، قراراتنا، وجهات نظرنا، قبولنا أو رفضنا، معارضتنا أو تأييدنا. نحن فقط! بكلمة منا ينطفئ هذا اللهب القاتل الذي أتى على الأخضر واليابس، وبحركة من أيدينا التي تحمل الأطباق والكؤوس الأنيقة، تتوقف حمم النار التي تقع على أهلنا من كل حدب وصوب، وبوقفة عز قوية، يصبح الألف فصيل محارب فصيلاً واحداً محباً للبلد، ويخرج المتطفلون. لا أعرف لماذا أقول هذا لكم، لكن إن كان هناك أي شيء أريد أن أتحدث به على الإطلاق أمامكم، وحتى أمام نفسي، فهو هذا الهاجس. لا أعرف إن كان ما أقوله يعني البعض، أو إذا ما كانت اللغة التي أتحدث بها مفهومة! منذ أول يوم وصلت به إلى هذا

البلد، شعرت بحزنكم وفهمت هواجسكم. أعرف أن منكم من هو غاضب على وطنه لأنه تركه يرحل. تقولون في أنفسكم لو كان في وطننا مكان لنا ولطموحنا، لما رحلنا وذقنا المر في الغربة، ولما ربينا أطفالنا الذين تحولوا فيه إلى غرباء بالنسبة لنا. أطفالكم أمريكيون بينما أنتم مازلتم عرباً، تستفيقون كل يوم على صوت "فيروز"، وتجترون ذكريات قديمة جعلها الحنين جنة مفقودة. أعرف هذا، وأعرف أنكم تذكرون أنفسكم بقصة الضياع هذه كلما لاح يأس في الأفق. كلمة "لو" هي صديقة العربي في هذا البلد. تقتله هذه الكلمة كل يوم لأنها تعميه عن اللحظة الحاضرة وعن المستقبل. يجتر تأسفه في كل مناسبة. لا تفعلوا هذا بأنفسكم! فإذا لم تستطيعوا العودة الآن، فعلى الأقل احفظوا كرامة هذا الوطن المتبقية. لا تكونوا أنتم وبقية "الأهل والجيران" عليه مثل السكاكين التي تنهش في لحم حيوان مصاب. انظروا إلي! انظروا إلي ملياً. لقد عشت أربع سنوات في الحرب، وأنا عائدة قريباً. هذا ليس خياراً أو قراراً، وإنما أمر منته لا يستدعي التفكير).

أطبق صمتٌ غريب على الحضور. الكل همد ولم يقدر على التفوه بكلمة، وكأن على رؤوسهم الطير. أسرعت (أميرة) بالاعتذار والقول إنها لم تقصد أن تحيل هذه الحفلة الجميلة إلى أخرى حزينة. لم يكن هذا مرادها. اعتذرت بابتسامة لطيفة، وتركت الميكروفون جانباً، لكن صرخة مدوية لامرأة من داخل القصر أجفلت الكل، وجعلتهم يتحركون متتبعين مصدرها. رأوا (مرام) جاثية على ركبتيها مذهولة. كانت تبكي وتهز رأسها يميناً وشمالاً مثل الدراويش، بينما

ماع الكحل الكثيف حول عينيها وسال مختلطاً بدموعها. كانت تردد وهي تضرب على فخذيها "ابني مات، قتلوه، "قوصوه ولاد الكلب"... ابنـي الوحيد اللـي ما عندي غيرو مات.. مات.. مات، يا الله وينك! آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه!!".

كأن (مرام) ختمت خطاب (أميرة) بالدم، جعلته حقيقياً، جعلته فاقعاً من شدة الوضوح، جعلته مثل الوشم فوق جباه الجميع مهما كان انتماؤهم أو وجهة نظرهم.

* * *

بينما كانت (أميرة) توجه كلمتها العفوية للمدعوين، رن هاتف (مرام) النقال. الرقم تعرفه. إنه رقم زوجها السابق. قرع قلبها بشدة حتى كاد أن يتوقف. عرفت أن هناك أمراً ما، لكنها لم تتوقع أن تسمع صوته يبكي بحرقة. لم تفهم ماذا كان يقول. ميزت شتائم ووعيداً وبكاءً وألماً صاعقاً ساحقاً، وأخيراً وصلها خبر الفاجعة من بعد كل هذه الفوضى الصوتية الصادمة.

كان ابن (مرام) يعمل في لجان الدفاع الوطني في منطقة وسطى ضبابية في ريف إدلب، تقع بين الأراضي التي استولى عليها المسلحون والأخرى التي لا تزال مع الحكومة. كانت المعركة حامية الوطيس، وناس المنطقتين لم يناموا لليال طوال من أزيز الرصاص ودوي الانفجارات. وقع (حسن) مضرجاً بدمائه بين البيوت المنهارة والأعلام السوداء وشعارات التكفير، تماماً فوق أرض وسطى بين منطقة ترفع الرايات السوداء وأخرى ترفع العلم الوطني لسوريا. لم تسعفه الآيات القرآنية التي ملأت الجدران شبه المثقوبة والمتداعية.

وقع فوق الخطوط التي رسمت حدود دولة الخلافة ودولة الكفار. هناك حيث القناصات وضعت تحت الأرض وفوق المباني، لترش رصاصها حتى على الهواء الذي يعبر. وصلت جثته إلى والده بدمائها الطرية والعيون شبه المفتوحة، وكأنها تتطلع إلى السكينة أخيراً.

تحولت "الفيلا" بمدعويها وعازفيها وخدمها وأضوائها إلى مكعب يتدحرج يميناً وشمالاً مؤرجحاً الكل معه.

الطريق إلى الشام ومصر

قضت (أميرة) ليلتها إلى جانب (مرام) المنكوبة. فبعد أن تمكن البعض من تهدئتها قليلاً، مددوها على سرير عزلتها في قصرها الجديد، ثم أعطوها دواءً كان في جيب أحدهم لكي تستوعب ما حدث. حين غادروا جميعاً، وتم إعادة الآلات الموسيقية إلى علبها وترحيلها وإغلاق البوابة الكبيرة للمنزل وراء آخر ضيف، وقع صمت مطبق في المكان الكبير كانت تقطعه (مرام) بصراخها وبكائها كلما استفاقت من تأثير مخدرها المؤقت. مع ذلك، لم يبرح هذا الرجل الغريب مخيلة (أميرة). تتذكره كيف كان ينصت إليها كلما عادت (مرام) للنوم. غريب كيف تعيد الحياة تشكيل نفسها بهذه التوليفة السريالية غير المفهومة. ليس كل شيء حزيناً ومأساوياً، ففي الوقت الذي ينوح فيه أحد على عزيز، أو يُقتل رجل تحت الأنقاض، أو تقع طائرة بركابها في المحيط، أو يضيع وطن لأن أحدهم قرر أن يبيعه بثلاثين فضة، في ذلك الوقت عينه، تنفجر براعم السعادة الخفية لتعمي هذه المشهدية البائسة بنيرانها الملونة الجميلة.

(حين طلع الفجر وأنا شبه غافية على الأريكة الوثيرة بالقرب من سرير (مرام)، شعرت بأن كابوس الليل قد ولى. كنت مرهقة من

حدة الانفعال والنوم المتقطع. بحثت عن حذائي فلم أعثر عليه. خرجت من الغرفة حافية أمشي على السجاد الناعم باتجاه الشرفة. فتحت بابها، وفي الحال اخترق عيني الشعاع الأول للشمس من بين أشجار النخل الباسقة للحديقة الرائعة المحيطة بالمنزل. تنفست الهواء الصباحي المثلج بجوع وملأت رئتي حتى الثمالة، وفي الحال ظهرت عينا ذلك الرجل تتطلعان إلي مبتسمتين من وراء وميض الشروق البرتقالي. من هو! وكيف سأعثر عليه؟ أين سأجده؟ ما اسمه؟ وكيف كان من بين مدعوي (مرام)؟ هل هو صديقها؟ أنا أيضاً كنت من بين المدعوين! مستحيل أن يكون رجلاً سطحياً. أستطيع أن أعرف ذلك بنظرة واحدة إلى الرجل. لقد فقدت أثره خلال هذه الجلبة إثر وقوع (مرام). كنت أرى عبارة واحدة في عينيه، "أين كنت كل هذا العمر الذي مضى؟" رأيتها في عينيه وابتسامته الصامتة. هذا ليس حباً من أول نظرة، وإنما بدا وكأنه قضاء وقدر!

جعلني أنين (مرام) أفيق من هذه "الفانتازيا" الفالتة من عقالها، وأعود إلى الواقع. هرعت إليها فرأيتها متيبسة تتطلع إلي بعيون منهكة. سألتني بصوت ضعيف إن كان فعلاً ابنها قد مات، وإن هذا ليس كابوساً أسود! لم أرد، فعادت تنتحب وهي مستلقية على ظهرها شبه ميتة. قررت أن أبقى يوماً آخر عندها، فكل هذا الحشد الذي كان البارحة يملأ المكان بصخبه وضحكه رحل، وكل العشرين عاماً التي قضتها المسكينة هنا لم تترك لها صديقاً وفياً واحداً! بقي هاتف سوريا الوحيد الذي يرن في المنزل ليطمئن عليها. كانت ابنتها تتصل عدة مرات في اليوم بعد سنوات طويلة من الجفاء والابتعاد. عادت

المشاعر القديمة المنسية إلى سابق عهدها، أحيتها المصيبة وجعلت علامات الطريق القادم واضحة. قالت لأمها "عودي، بيتي بيتك. عودي وعيشي معي. لدي طفل، حفيدك. تعالي لكي نربيه معاً، وانسي كل أمريكا ومن فيها!". وصلت هذه الكلمات (لمرام) مثل أوكسجين اللحظة الأخيرة قبل الموت. قالت لي: "سأرحل وسأترك كل شيء وأعود إلى الشام مهما كانت النتائج. لن أنتظر مصيبة أخرى لكي أقرر الرجوع. لم تعد الدنيا تهمني هنا. سقطت هالتها مثل الزجاج وتناثرت على قدمي. انتهينا. إني راحلة".

بعد يومين، رحلت (مرام) على أول طائرة مغادرة إلى بيروت، ومنها سافرت بالسيارة إلى دمشق. أخذت معها حقيبة واحدة فقط لزوم الطوارئ، وحزناً عظيماً، وذكريات لعشر نساء في حياة واحدة. أما أنا فركنت نفسي مثل مركبة قديمة في غرفة مكتبي، أعمل على هواي بعد أن ترك لي (فاضل) كل الحرية كي أقدم أبحاثاً برؤيتي ومن خلال مراجع أختارها أنا، وليست فقط تلك التي يعتمدها المركز حصرياً. لم تأت هذه السماحة من لا شيء. فلقد انكسر حاجز الخوف والتردد لدى (فاضل) عندما ولد من عمق برازه أمام الجميع. لم يعد هناك مجال للتورية أو التمثيل أو لاعتماد أسلوبيّ حياة، واحد علني والآخر في الخفاء. انتقلت سجادة الصلاة إلى المكتب، وكذلك شرائط مطربي العراق القدماء، ومسبحة عاجية بخرزات كبيرة تكرج طوال اليوم بين أصابعه، بينما ما زالت كأس الشراب في مكانها على رفٍ صغير تحت طاولة مكتبه، يرتشف منها كل قليل متى عجزت بقية الأشياء عن تجميل الواقع وجعله أكثر رحمة عما هو. قال إنه

سيشرب كما شرب بعض أجداده وهم على ذمة دينهم، وأن حَده هو السُكر، فلا يعتبه أو يخطو فيه. استطاع (فاضل) أن يستقر أخيراً على توليفة حياته السعيدة ويرتاح. قال لي، "لا تلقي بالاً (لحمد)، هو لا يقرأ، وكل المقالات التي يكتبها، كتبتها الأصابع التي تحمل هذه المسبحة والكأس أمامك. الرجل متفرغ لحياته الشخصية مع صديقه. قد يأتي في يوم ويتطلع بك ولا يعرفك. إنه غير موجود. كل ما يهمه هو أن يرى كل دول العالم مخترقة بالفتح الإسلامي الواحدة تلو الأخرى. حتى أخبار سوريا، يتابعها كما يتابع لعبة كرة قدم بين "فريقه" وفريق الحكومة السورية. الحديث مع هذا الرجل عبث. هو لا يفهم في السياسة ولا الدين، وإنما ابتلعه حوت الطائفية منذ زمن وانتهى أمره. انسيه. لا يجب على سوريا أن تقلق من أمثاله إذا كان السوري بخير. فهمت علي يا (أميرة)؟

- فهمت!

فَرجَني حديثُ (فاضل). شعرت بضوء خافت في نهاية النفق. يمكن للناس أن تفهم. يمكن لها أن تستفتي عقلها. يمكنها أن تعود إلى رشدها وصوابها، ويمكن للدنيا أن تهدأ في نصف ثانية مثل بحر هائج انطفأ وراقَ بعد أن مد نبيٌ يده فوقه بسلام. يمكن لكل هذا أن يحدث وأكثر. هناك إذن أمل!).

مرت الأيام اللاحقة أخفَ وطأة على (أميرة). كان الكل يدخل إلى غرفتها ويخرج وكأنها مرجع. حتى والدها قال لها إن القذائف على دمشق قد هدأت قليلاً بعد أن استطاعوا تقفي أثرها والقضاء على بعض قواعدها وراء جبل قاسيون، لكنه ما زال هناك ما يكفي

من الإرهاب الأصفر المتربص بالبلد من أقصاها لأقصاها. أما (أم علاء) فقد قبلت أن تعيش في الطابق الأول من منزل العائلة في القيمرية بعد إلحاح من (أميرة). مع ذلك، هناك من لم تهدأ مصائرهم بعد، وهم ممسكون بالعصا من منتصفها، يقودون خطاهم على حبل مشدود، وكلهم ثقة بتوزان هش قد لا يحتمل نسمة ريح صغيرة أخرى. (إمام) واحد منهم، (إمام) الذي لا يتوقف عن لفظ كلمة "ربنا" و"إن شاء الله" ويدندن "لعبد الحليم" حين يكون مزاجه رائقاً. لكنه اليوم، يعد العدة لكي يعود إلى مصر، مستسلماً كجندي سقط عند أول طلقة. فبعد أن قبل على مضض وبانكسار ذكوري عظيم أن تعيش ابنته (شيرين) مع صديقها في الاستديو الملحق بمنزله، وأمام عينيه، متخطياً مئات السنوات من وجهات النظر حول العفة، أقول بعد كل هذا، ما زال القدر يخبئ له المزيد.

(أصبحت أطلق اسم "المستحي" على (إمام) من كثر ترديده لعبارة "حا خبي وشي فين من الناس!". كان يدخل ويخرج إلى غرفتي مثل الملتاع القلق، يرمي كلمتين عن ابنته وما تفعل ثم يخرج. قال لي إنه أصبح قليل التركيز وهو يتخيلها بين أحضان (دايف)، "هذا اليهودي الذي يضع وشم "نجمة داود" على باطن كفه، ويريد مصافحتي في كل مرة يراني فيها. هذا الصعلوك الذي يسكن بيتي، ويشاطر ابنتي السرير، يريد أن يحطها على عيني"!! هذه آخر الدنيا يا (أميرة).. آخر الدنيا!!". صور كثيرة تلعب لعبة الكراسي الموسيقية في عقله الشرقي الحزين، يلف ويدور إلى أن يهده الإنهاك فلا يصيب الكرسي الأخير، وإنما يجد نفسه ملقياً على

الأرض من شدة الضربة. كان (إمام) يتحدث كثيراً عن تفاصيل يكتشفها كل يوم عن ابنته و"صديقها"، إلى أن انفجر أمامي مرة من شدة الغضب، لدرجة خلته سيموت بالسكتة القلبية. قال إن شوكته انكسرت هذه المرة إلى غير رجعة. حين استوضحت الأمر منه، لملم نفسه وقال بصوت مهدود، "ابنتي حامل. أتت هذا الصباح لتقول لي "دادي" أنا حامل... أنا آسفة! أنا أفكر أن أتخلص من الطفل لأن أمامنا الكثير من الدراسة والعمل!". تصوري قالت لي هذا بكل بساطة. لم أعرف ماذا أرد. وقفت مثل المخبول أتطلع إليها وهي تبتسم بحياء وتتطلع إلي برأس شبه منكس. كابوس كبير أن يكون حفيدي من صلب هذا الـ (دايف) الصعلوك. أخذتها في الحال إلى طبيب لكي يجهضها. لم تخبر صديقها، ولا أنا فعلت. أصلاً أنا لا أطيق التطلع في وجهه. حين عدنا كانت (شيرين) مرهقة. لم أعد أستطيع أن أطبطب عليها، وكأنها ابنتي الصغيرة. رأيتها غافية على سرير نقاهتها مثل امرأة أكل الدهر عليها وشرب. خرجت وصفقت الباب خلفي وقلت في نفسي انتهينا. لن أبقى لحظة في هذا البلد. سمه هروباً، سمه ما شئتِ. لن أبقى ثانية واحدة. طالما هي قادرة على الحب والحمل، إذا هي قادرة على العمل والعيش بمفردها. أنا لم أربّها وإنما أمريكا فعلت. فليهنأ هذا البلد بها وبخلفتها. مصر أرحم بكثير، الناس أرحم، الأماكن أرحم يا عالم، كل شيء فيها أرحم. حتى القوانين السافلة أرحم. لا، ليس الحنين، ولا الفقدان، ما يجعلني أقول هذا، ولكن لأني قبلت أن أترك وطني كما تركني هو! إنني أبصق على شرفي كل طالع شمس في هذا البلد".

رحل (إمام) بعد أقل من أسبوع، لملم أوراقه وحقائبه، وترك مبلغاً مالياً كافياً لدى ابنته، بعد أن ودعها من دون أن يصافح (دايف) الذي كان واقفاً، وعلى وجهه علامة تأثر اجتماعي لزوم اللحظة. قال (لفاضل) إنه سوف يكمل العمل مع المركز من مكتب مصر دون أن يشرح لأحد غيري أسباب هذا الرحيل المفاجئ.

حزنت لسفره كثيراً، ولكن عندما يقول لي أحدهم إنه عائد إلى الوطن، لا يمكنني أن أثنيه عن ذلك مهما كانت الظروف حتى ولو بكلمة مجاملة واحدة. أول صورة وصلتني منه على هاتفي كانت في مطار القاهرة وقد رفع إصبعيه بعلامة النصر والوصول، وابتسامة منهكة على وجهه.

(مرام) و(إمام) اختفيا من حياتي في هذا البلد، ليظهر بدلاً منهما آخرون هنا وهناك. هذا المصدر الإنساني للقلق والشغف لا ينتهي. كأنه نهرٌ جارٍ متدفق، كلما فتحت قناة صغيرة لكي يجري فيها، أراه يتدفق إلى حد الطوفان ويغمرني. كل كلمة مرحبا، كل هزة رأس صغيرة، كل حركة باليد، كل ابتسامة، تفتح الأبواب الموارية على مصراعيها، و يبدأ هذا النهر بالتدفق والانسكاب. في لوس أنجلس، أقل إصغاء لكلمة عربية فالتة من أحدهم تجعلك تدير رأسك لترى من المتحدث، وحالما تفعل، يفهم المصدر أنك عربي مثله فيُفتح باب قد يؤدي إلى صداقة فورية، أو نفور لحظي لا تعرف سببه. الناس هنا تتطور "جوانيتها" بطريقة "موزاييكية" غريبة. فإلى جانب شعورها أنها في حلم مستمر، تفعل الضربات والإرهاق فعله في تشويه كل قدرة لديها على العيش. بهرتني المظاهر الجميلة لدى

البعض، بهرني الغنى الفاحش، وأسلوب الحياة الذي أخذ أجمل ما في هذا البلد، بهرتني أشياء كثيرة، لكن على قفا غطاء "الدانتيل" الجميل هذا، عثرت على كل الخيوط المشربكة والوصلات والعقد!).

مارك عبدالله

لم يتعب (مارك عبد الله) من البحث عن (أميرة) بعد أن رآها تتحدث في حفلة (مرام). كان من المستحيل الوصول إليها عن طريق هذه الأخيرة، بعد أن وقعت في مصابها ورحلت إلى الشام، وأغلقت كل خطوطها. عثر على اسمها على "الانترنت"، وعلى مكان عملها، وكذلك على العديد من أبحاثها. قضى وقتاً طويلاً يقرأ عنها، وعن مؤلفاتها، وكل كلمة كُتبت عنها أو كتبتها هي بقلمها، قبل أن يتجرأ، ويفكر بقرع باب مكتبها في المركز.

في ليلة القدر هذه، أطبق (مارك) غطاء "كومبيوتره" الرقيق، وأرجع رأسه إلى الوراء، وأخذ يفكر كمن تربص به حزن لم يكن يخطر على بال. مسحة الهم الطفيفة هذه لا يمكن لأحد أن يخطئها في بداية الوقوع في الحب . مسحة نورانية لذيذة لا يريد المرء الفكاك منها، وإنما يبحث عن العزلة لكي ينفرد بها ويستمتع بسوداويتها على مهل وبهدوء. سجل على ورقة صغيرة عنوان المركز ووضعها في جيبه. ليس سهلاً عليه اختراع حجة للوصول "إليها" لكنه، مع ذلك، سوف يضع السيناريوهات العديدة لكي لا يمس مشاعرها، أو يقدم نفسه بشكل خاطئ إليها. المرآة العريضة في غرفة نومه شهدت على

"مونودراما"[28] تقديم نفسه لها بنسخ مختلفة. إنه ليس مراهقاً يدعو صديقته للمرة الأولى إلى مطعم "بيتزا" بعد أن وضع له والده ثمنها في جيبه، وإنما رجل راشد، متعلم، طحنته الغربة وطحنها بكبريائه، ونظرة السخرية في عينيه. (مارك عبدالله)، سوري من الساحل التاريخي للشام الذي يطل بخَضَاره وجباله على البحر المتوسط. الساحليون يملكون صدوراً بعرض البحر، وقدرة على تقبل الاختلاف والمسامحة. الوجوه الغريبة التي يكبها البحر في هذه المدن المفتوحة، جلبت معها ثقافاتها وعاداتها، وكذلك نسخها من الحرية والتسامح، فغدا الساحلي أقل صرامةً وتشدداً، وأكثر تقبلاً للاختلاف والخلاف الذي بسببهما فُسخت سوريا إلى نصفين، مثل رجل يتعرض للتعذيب بعد غزوة أو معركة.

راهن (مارك) على اعتدال (أميرة). فهم من كلماتها في الحال أنها تملك عقلاً واضحاً، ورؤية صائبة لما يجري حولها. عرف أنها ستفهمه وستفهم كل كلمة سوف يقولها لها، وحتى تلك التي لا يجرؤ على البوح بها. وثق بها من دون مقدمات. سمح له بذلك ليس فقط التقدم في السن في وسط غريب، أو تراكم الخبرات، وإنما ميل شخصي عميق للفهم والتعلم. إذن، فليتقدم باتجاه هدفه مثل طفل صغير عثر أخيراً على طريق البيت بعد ضياع طويل.

كانت (أميرة) منكبة على عملها في المركز حين دخلت (كاثي) لتقول لها إن هناك من ينتظرها في غرفة الاستقبال. أعطتها بطاقته

(28) **مونودراما**: فن درامي، وأحد أشكال المسرح التجريبي . وهي مسرحية تقوم على ممثل واحد يتحدث خلال مشهد مطول.

لكنها لم تتعرف على الاسم. طلبت منها أن تقول له إنها ستحضر خلال دقائق. في تلك الأثناء، زادت ضربات قلب (مارك) حتى شعر أنه سيقفز من مكانه. ذكّر نفسه بأنه ليس مراهقاً يافعاً، وأن عليه أن يهدأ. مسح العرق الغزير البارد الذي عام فوق باطن كفيه، وكذلك عرق جبهته، ثم عدل من هندامه، وأخذ ينتظر. عشرة دقائق بدت له أبدية. بعد خمسة وثلاثين عاماً، ها هو ذا مرة ثانية يقع في حب امرأة "من البلاد". نسي كلمات الغزل العربية التي تقال. نسي كلمة حبيبتي التي استبدلها بـ "سويت هارت". نسي كيف يجب أن يقاربها وكيف يبدأ حديثه معها. آخر مرة أحب فتاة سورية، كان وهو في السادسة عشرة من عمره، في مدينة اللاذقية. تعرف إليها في أحد "معسكرات الفتوة المدرسية" المختلطة في بداية الثمانينيات، وهو في سنته الأولى من المرحلة الثانوية. رآها منبطحة تصوب "البارودة" باتجاه دريئة وُضعت على مسافة أمتار منها. أحبَ حجمها الصغير مقارنة بالسلاح الذي لم تعرف كيف تضبطه فلا تجرح كتفها. تعارفا بسرعة. كان ينتظرها صباح كل يوم على ظهر الشاحنة المنطلقة بهم خارج المدينة للتدريب. كان يساعدها لكي تقفز منها في الوصول والمغادرة. أحب ملمس يدها الصغيرة الناعمة المرتبكة. كان يضغط عليها فتعرف أنه يريد أن يقول لها إنها خاصته. بعد انتهاء المعسكر، لم يعد يراها. سافر إلى أمريكا وبقي وجهها الطفولي عالقاً في خياله إلى فترة طويلة. لم تفهم والدته معاناته. في المطار نزلت دمعته وهو يودعها، لكنها همست في أذنه، "الحب للراشدين وليس لكم. أنت لك مستقبلك وتحصيلك العلمي. لا تلتفت إلى الوراء..

انطلق، وعندما تعود سأزوجك أفضل فتاة في المدينة". لكن (مارك) لم يعد. علق في الغربة، في مدينة لوس أنجلس الطاحنة للأحلام وصانعتها في آن. تزوج من ابنة عميد الجامعة التي أكمل فيها دراسة هندسة الطيران، وأنجب منها ولدين، هما اليوم في سن الجامعة، ويعيشان مع والدتهما بعد طلاقها منه. حين رأى (أميرة) في حفلة (مرام)، خاف أن تضيع منه لحظة أخرى من عمره الذي راح هدراً مع "أجنبية". ذاب قلبه، وشعر بالحنين في عمق كلماتها. وقف يصغي إليها كمن يصغي إلى إنجيلٍ مرتل لحظة تأمل. حديثها عن سوريا جننه. لولا العيب، لانحنى وقبل يديها قائلا بلهفة، "وأنا أيضاً مثلك.. أنا مثلك...!" في عمق وجدانه، عرف أن الصداقة مع (أميرة) أمر مستحيل، فهي إما حب، أو عليه أن ينسحب إلى غير رجعة. رآها مثله هادئة، راقية، وطنية، شغوفة وتفهم "ع الطاير". شعر أنه يعرفها منذ زمن بعيد، وينتظرها منذ دهور. سيسميها "ابنة بلدي"، المقابل الحقيقي لكلمة حبيبتي. إنها من لحمه ودمه، كأنه أنجبها، كأنه تزوجها، كأنها كانت ابنته أو شقيقته في حياة سابقة. حِملٌ عاطفيٌ ثقيل لن يعرف كيف يداريه أو يخبئه حين يلتقي بها. الانتظار الطويل جعل أفكاره مثل الألعاب النارية لا تهدأ...!!

دخلت (أميرة) إلى غرفة الاستقبال معتذرةً، لكنها تسمرت حينما رأت (مارك) أمامها. ارتبكت للحظة، ثم مدت يدها للمصافحة. عرف عن نفسه باقتضاب خجول. قالَ لها إنه أراد أن يشكرها على كلمتها في حفلة (مرام). شعر بالفرح العميق في بؤبؤ عينيها فلم ينتظر ثانية، دعاها في الحال إلى العشاء "لأنني أريد ان أسمع منك المزيد

عن سوريا!". وافقت (أميرة) بسرعة على عكس طبيعتها. لم تستطع أن تميز إن كان هذا "حلماً أم علماً" بسبب مباغتة اللحظة. قال لها إنه سيمر عليها بسيارته في المساء. كتبت له عنوانها على ورقة صغيرة بيد مرتجفة. أخذها بابتسامة عريضة ثم ودعها وغادر.

إذن، هذا كل ما يلزم لكي تقوم الحياة بانعطافة كبرى. لم يكن وجودي ضرورياً خلال هذا اللقاء، فبعد أن دفعت (مارك) بين الحشد لكي يقف أمام (أميرة) وهي تتحدث، تركت الباقي على كاهل الحب لكي يقوم به. منذ هذه اللحظة، سوف تبدأ طيور الدوري بالتحليق فوق رأسيهما من دون توقف في حلقات، وكأنهما ضُربا بهراوةٍ ثقيلة، وسوف أكون معهما في كل خطوة، كما هو حالي مع كل أبطالي ها هنا. سوف أشحذ كل أسلحتي، و أشد من عزيمتي، وأبقي روحي صاحيةً، فلا تضيع مني لحظة هاربةً. لست القدر، وقد لا يسمح لي البعض أن أتجرأ على مجرد التفكير في أن أكونه، ولو من خلال كتابة رواية، ولكني سأحاول من أجل سوريا.

(طالما حضرَ إلى مكتبي، إذن فقد شعر بما شعرت به تماماً. (مارك عبدالله)! لم أتخيل أن أقع في حب رجل مسيحي. ليس الأمر مستحيلاً في سوريا، فهناك المئات بل ربما الآلاف ممن يرتبطون بعلاقات مع أفراد من غير دينهم. تكون الأمور صعبة في البداية، ولكنهم يتدبرون أمورهم لاحقاً، وتسير الحياة بقدرة قادر. مع ذلك، ضجيج الآراء لا يتوقف حولهما، ولا تنقطع النصائح، ولا النظرات العاتبة واللائمة، ولا حتى الأسئلة التي تقطع نفس الحب في مهده وتحيل العلاقة إلى عملية ترقيع وإصلاح. حتى التزاوج بين الطوائف

من الدين نفسه، يعتبر أمراً صعباً على بعض العرب المسيحيين. مازلنا نتوارث الخلافات القديمة جيلاً بعد جيل. ما زال تضارب وجهات النظر منذ أكثر من ألف عام يقض مضجعنا إلى هذه اللحظة، ونحن في بيوتنا في النصف الأول من القرن الواحد والعشرين. مازلنا منقوعين في بول الجمال التي تناطحت وتصارعت ثم سقطت صرعى فوق رمال الكثبان الحارة منذ قرون. مع ذلك، لن أثور الآن على هذا التاريخ المرصع بخيباته، ولكني لن أصغي له، وسأكتفي بتقديم حياتي مثالاً على ذلك).

هل يكفي هذا الحب الصامت لكي يخفف من وطأة الحرب على سوريا لدى (أميرة)! نعم، هذا ما حصل. لقد شع وهج الأمل على روحها وعقلها، وغدت أكثر تفاؤلاً. راحت تفكر بأن الحل لكل مصائبنا هو الحب، وأن فقدانه هو وراء كل ما يحدث. وقعت في رومانسية تفكير المراهقين البسيطة الجميلة حيث الحلول لكل شيء تكون بعصا الحب السحرية، متناسية واقعاً وسخاً صلباً قُدَّ من النوايا الجهنمية للبعض. حين تحدثت مساء ذلك اليوم نفسه مع والدها شعر بنبرة مختلفة في صوتها، كأن قطرات ماء أخذت تتقافز فرحة فوق سطح بحيرة ساكنة. عرف بحدسه أن هذا التغيير وراءه رجل ما. لم يسألها، وإنما اكتفى بالاطمئنان عليها.

(نعم هناك شيء اسمه العصا السحرية للحب. لقد مستني منذ أول لحظة وقع نظري فيها على (مارك). هذا الشعور الأولي بالسعادة والحزن الجميل لا يميز إن كان الشريك من دين مختلف أم لا. إذن، لمَ علي أن أخالف الطبيعة التي أوجدها الله لكي أمشي

بهدي قوانين أوجدها البشر؟ إنني أحزن على وطني لأنه يخاف من كل تغيير، من كل تنفس جديد، يخاف من تعريض سجادة تاريخه للنور ونفض الغبار عنها!).

غطت كل تبريرات الدنيا على رأس (أميرة) مثل فراشات ملونة واستقرت. اختُزلَ الكون كله بهذا اللقاء المرتقب مع (مارك). استراحة المحارب هذه أتت وسط زحمة الاقتتال والحروب والموت وانهيار العائلات حولها.

* * *

(جلستُ بالقرب من (مارك) في سيارته وكأنني أرتكب فعلاً فاضحاً. خجلتُ من سرعة قبولي بعرضه. لم يكن لدي القدرة على الرفض. كان شديد التهذيب والدماثة، الأمر الذي خفف من وطأة إحساسي بالذنب في لحظتها. اقترح أن نذهب إلى مطعم يطل على مدينة لوس أنجلس من علٍ، قال لي: "هناك سوف ترين المدينة مشعة من فوق و كأنك تحلقين في طائرة". وافقت بابتسامة وهزة رأس خجولة. انطلقنا إلى منطقة "بربانك" التي تبعد عشرين دقيقة عن "باسادنيا" التي أقيم فيها، وانطلقت معنا الدنيا كلها، وذاكرة معطوبة إلا من تسجيل اللحظة! في الطريق، كان يشرح لي كل ما أراه حولنا. بدا مثل دليل سياحي يأخذ الأمور بجدية. اهتمامه وتركيزه المتوتران كانا مطعمين بموزاييك خشب الحب الشامي المشغول باليد. يا الله، من أين لي القدرة أن لا أمرر يدي على سطحه وألمس هذه المهارة العريقة التي تسلب اللب!).

كانت (أميرة) تلبس فستاناً طويلاً، وتضم ساقيها إلى بعضهما

البعض بقوة، بينما وضعت حقيبتها في حضنها وتمسكت بها. كان واضحاً (لمارك) أنها مرتبكة. فقدت المسكينة قدرتها على تمثيل أنها طبيعية. هو مثلها أيضاً، كان مرتبكاً في سترته الصيفية الزرقاء وبنطلون الجينز .بدا لها غامضاً وواضحاً في آن؛ الخلطة الخلبية التي لا تراها إلاالعيون التي وقعت تواً في الحب.

(طلبنا الجلوس في الخلاء المطل على المدينة، وليس في المطعم الداخلي. كان هناك موقد مشتعل حوله مقاعد منخفضة وثيرة. حمل كل منا كأسه وأخذنا نتطلع إلى المدينة تتلألأ بأضوائها الملونة في الأسفل سألني عن سوريا وعما يحدث فيها فعلاً ، وما رأيي بكل هذا. قال إنه يريد أن يسمع من أحد ما كان يعيش هناك. أراحني هذا الحديث اللاشخصي. جعلني أبدو أكثر طبيعية وأقل ارتباكاً . مع ذلك، كنت أرى نظرات (مارك) تتغرز في أعماق قلبي وأنا أتحدث. كأنه كان يصغي ولايصغي. كأنه كان مهتماً وغير مهتم. رأيته مثل فكرة، خيالاً غير حقيقي، أو حتى حلماً تحقق بضربة حظ. بعد أن قلت كل ما لدي، أخذ يتحدث عن نفسه، عن ظروف مجيئه إلى البلد، عن دراسته وعمله، عن زواجه وطلاقه وأولاده. شعرت أنه يريدني أن أعرف كل شاردة وواردة في حياته. أليست هذه الاعترافات دليلاً قوياً على وقوع الرجل في الحب! بل إنها لكذلك. أما لدى المرأة فالأمر مختلف. إنها ترد أن تُظهر أفضل ما لديها أمامه، الأفضل على الإطلاق. ليس هذا كذباً ، وإنما تجميلاً بالنسبة لها يستدعيه الحب متى حضر. أما أنا، فأردت بكل قوتي أن أبدو حقيقية، حقيقية حتى آخر زفرة. قلت في نفسي، ليس لدي لحظة واحدة أهدرها في المجاملات. ربما نشأت في

وسط علمني بشكل غير مباشر أن أكذب لكي أبدو جميلة، أن أكذب لكي أحظى بزوج، أن أكذب لكي لا يُرمى علي يمين الطلاق، أن أكذب لكي أخبئ ما يكفيني لليوم الأسود. قالوا إن هذا ليس كذباً، وإنما طريقة للبقاء على قيد الحياة. لكن والدي كان واعياً لكل ذلك، وكان يعيد في كل مرة الأمور إلى نصابها في عقلي مردداً، "كذبة واحدة وتفقد الدنيا ثقتها فيك، وعندها فقط يكون يومك الأسود. الرجل الذي يقبل أن تكذبي عليه هو ليس رجلاً وإنما نصاب. قمة الجاذبية عند المرأة صدقها. لا تكذبي!".

عرف (مارك) أنني مختلفة من أول مرحبا. واليوم، ونحن نتطلع إلى الأفق الكحلي الحالم أمامنا كرر ذلك:

"أحب المرأة الناضجة. طريقي إليها أنا شخصياً ليس معدتي، وإنما عقلها. بعد ذلك، أذهب إلى أي مكان فيها ومن خلالها! أشياء كثيرة تغيرت في منذ أن قدمت إلى هذا البلد. صرت أرى الناس بوضوح أكبر لأني تعلمت أن أصغي لهم، أن أعطي وقتاً لكي ينهي الآخر كلامه. لم يكن هذا متاحاً في بلدنا، كما تعرفين، إذ إن الكل يتحدث في وقت واحد، ولا أحد يصغي لأحد، وفي نهاية المطاف يطلقون على هذا اللقاء "جلسة من العمر"! أنا تغيرت في هذا البلد، تبدلت بعض قيمي الاجتماعية والشخصية. رغم كل الضغوط، أصبحت شخصاً أكثر هدوءاً، وأقل ميلاً للمحاكاة. أريد سلتي من دون عنب. في وقت فراغي، أنزوي في ركن من المكتبة، وأقرأ أو أحضر فيلماً جديداً لوحدي، أو حتى أصغي بشغف إلى "محمد عبد المطلب" يغني "ساكن في حي السيدة وحبيبي ساكن في الحسين".

أحياناً أبكي من شدة الشوق لأشياء قديمة تقفز إلى عقلي من بين ركام حياتي هنا، أبكي بحرقة، لأشعر بعدها بالانفراج والقدرة على المواصلة. أنا أيضاً حقيقي، مثلك يا (أميرة). عرفت سفالة الحياة، فعفتها وتركت الحروب لأصحابها. ما يهزني هو أشياء أصغر من أن تلفت انتباه أحد، لكنها بالنسبة لي عظيمة. تعلمت أن أقدِّر المتع الصغيرة. أشعر من الداخل أنني كونٌ كبير بحجم الذرة حينما تنشطر. كل شيء لدي قليل، بسيط ومكثف. لست بحاجة إلى حياة استعراضية لكي أشعر بالاكتفاء. كلماتك في حفلة (مرام) جعلتني سعيداً لأسابيع. فهمت علي؟ "نعم، فهمت كل حرف تفوه به (مارك). لم يعد هناك مجال للمماطلة أو اللف والدوران. إنه هو").

أخذ (مارك) و(أميرة) يلتقيان كل يوم. حالما تنتهي من عملها في المركز، تجده في انتظارها داخل سيارته "الجيب" العالية. أخذها إلى كل مكان سمعت عنه في هذه المدينة الكبيرة؛ "ديزني لاند"[29]، "يونيفرسال استديو"[30]، "بفيرلي هيلز"[31]، "هوليوود"[32]...إلخ.

---

(29) **ديزني لاند:** مدينة ألعاب افتتحت لأول مرة في 17 يوليو 1955 في ولاية كاليفورنيا وتملكها شركة والت ديزني الأمريكية. تقع ديزني لاند في أماكن كثيرة في العالم منها كاليفورنيا وفلوريدا وطوكيو وباريس وهونغ كونغ.

(30) **يونيفرسال استديو:** وهي أشهر و أقدم الاستديوهات الهوليودية للتصوير السينمائي في أمريكا.

(31) **بفرلي هيلز:** مدينة أمريكية تقع في الجانب الغربي لمقاطعة لوس أنجلس بولاية كاليفورنيا. فيها تقطن العائلات الغنية ونجوم السينما. يعتبر شارع (روديو درايف) واحد من أرقى الشوارع في العالم حيث يحتوي على أكثر المتاجر شهرة مثل لويس فويتون وأرماني وسانت لورانت.

(32) **هوليوود:** منطقة في مقاطعة لوس أنجلس في ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية. تقع في الغرب والشمال الغربي لمركز مدينة لوس أنجلوس. سبب شهرتها وجود استوديوهات السينما والنجوم العالميين فيها، تعد المركز التاريخي للسينما الأمريكية والممثلين الأمريكيين.

جلسا في كل المقاهي، وضحكا حد الثمالة، تناولا طعاماً إثنياً متنوعاً، وزارا الكثير من المكتبات والمتاحف، يداً بيد، من دون أن يبذلا أي جهد في اعتراف كلاسيكي بالحب.

في الوقت نفسه، وبينما يبنى حب من الطراز الرفيع "صنع في الوطن" بين (أميرة) و(مارك) فوق صخرة راسخة، كان هناك حب آخر "صنع في الغربة" يتداعى بين (سام) و(نانسي) فوق ركام مصيبة (عمر) الذي ضاع أثره في زحمة المتدفقين للقتال في سوريا.

معبر «باب الهوى»

كان الروس قد أرسوا مراكبهم في سوريا وانضموا إلى القتال منذ أشهر. جلبوا معهم أسلحتهم الثقيلة، وجنوداً لاحت فوق وجوههم سيماء الواجب، وملاحة واضحة، وإرث سوفيتي من المعاهدات والأحلاف. كل الجبهات كانت تقوي من عدتها وعتادها، وتجند رجالاً ونساءً كي يخوضوا حرباً أعطاها كل طرف لقباً يناسبه. لاهوت القاتل كان واضحاً للجميع، وكذلك لاهوت القتيل، والتاريخ الذي يعيد نفسه يقول إن القاتل ليس بسبع أرواح، وإنما نفسه قصير وينتهي بأغبى غلطة. هذه أمور قد لا ينتبه لها شباب متحمس تفور الطائفية من عقولهم وتنسكب كنهر حمم حارقة على أقرانهم. و(عمر) قرر أن يكون واحداً من أولئك، أكان يعي هذه الحقيقة أم لا.

حين وصل إلى "الريحانية" براً، شعر أنه على بعد قاب قوسين أو أدنى من هدفه. أنزل حقائبه في بهو فندق "كنت" المعروف في المدينة بعد أن تم تأمين حجز غرفته مقدماً من قبل "الإخوة". وقبل أن يستلم مفتاحها من مسؤول الاستقبال، وضع رجل يده على كتفه مرحباً به:

- أخ (عمر)! الحمد لله ع السلامة.. أنا (أبو الغيث).

ذاع صيت (أبو الغيث) في معسكر التدريب باعتباره الرجل الذي

يرتب وصول "المجاهدين" إلى الريحانية، ويؤمن شراء بزات القتال والأسلحة من أسواقها، ثم إرسالهم إلى الحدود حيث يكون آخرون بانتظارهم على الطرف الثاني لكي يرشدوهم إلى المكان الذي سيباشرون فيه "عملهم". لقد رتب (أبو الغيث) لقاء مشتركاً بين (عمر) ومجاهدين متدربين مثله في الفندق نفسه تلك الليلة، تعارفوا فيها وتصافحوا وتعاهدوا على اللقاء في الجنة "بإذن الله"، بعد أن يوطدوا شرع الله في سوريا "الكافرة"، كما كانوا يرددون أمام بعضهم البعض.

لم تغمض عين (عمر) تلك الليلة. تقلّب في سريره مثل المحموم. شعر بحرٍ ناشف كاد يخنقه بعد أن فشل في إشعال المكيف وبرمجته. فتح النافذة المطلة على المدينة، وأخذ نفساً عميقاً. صلى بصوتٍ مسموع من أجل أن يكون قراره صائباً. لقد مات قسم من هذا الحماس الكبير لديه منذ أن غادر لوس أنجلس. ركع ركعتين من أجل أن يكون ما بقي منه كاف ليجعله يعبر ويصل.

غداة ذلك اليوم، وفي الطريق باتجاه الحدود في حافلة خاصة دبرها (أبو الغيث) لنقل المجاهدين، أخذ هذا الأخير يشرح لرجال أعمى بصريتهم الهوى الجهادي وأصاب منهم مقتلاً تقلب الأحوال على جهتي الحدود والمحاذير والعوائق التي تنتظرهم:

- اليوم، وبعد 4 سنوات من القتال، غدت البوابات على الحدود أصعب للعبور وأكثر مراقبة. لكننا نستعمل دائماً المعابر البديلة إذا لم نستطع أن نقوم بذلك بشكل طبيعي. سوف تجدون مئات اللاجئين بثيابهم الملطخة بالوحل عند محطة الحافلات، محاولين الوصول إلى مكان ما، بعد أن مشوا في الحقول لساعات وربما أيام من أجل

الهرب. هذا طريق مأهول يعبر منه كل يوم أكثر من ثلاثمئة شخص. ستجدون المغادرين يملؤون المكان، بعضهم يحمل بطاقة لاجئ، والبعض الآخر ليس لديهم شيء، لكنهم يتدبرون أمرهم ليلاً ويعبرون بعد أن يدفعوا مبلغاً مضاعفاً. هناك دائماً من يقبض، ولهذا نحن في أمان. لكن مع الأسف، من بين هؤلاء هناك مقاتلون تركوا المعركة وفروا من الجهاد. حين يُستجوبون من قبل ضباط الحدود، يدعون أنهم مواطنون عاديون رغم الجروح البادية على وجوههم والإصابات على جسدهم. يكذبون ويمرون، لعنهم الله!

ازداد قلق (عمر) إلى حد لم يعد قادراً على تجاهله. لم تخطر كل هذه التفاصيل والفوضى والتعقيد على باله. ظن أنه حالما يصل إلى تركيا سوف يرسلونه في غمضة عين إلى ساحة القتال، وهناك يستشهد بعد أن يحرر ويقتل ويبيد أعداء الله، ليرتقي بعد ذلك إلى من "هنّ" بانتظاره. لم تسمح له ثقافته ولا حتى دراسته في أرقى جامعات العالم، أن يقاوم هذا الفكر الماورائي الصلب. لربما أحبه بقوة وأدمن عليه، خصوصاً حين كان يضطر إلى تدبر أمره بنفسه من دون امرأة بدافع التدين، فكان يجمع هذا الحشد من العذراوات في فانتازيا احتلامه العقلية ويقذف بسرعة مرتاحاً من عبء يهد كاهله. غرفة نومه في لوس أنجلس شهدت على هذه الليالي الحمراء التي كانت تغص بالحوريات والأشباح. كان يرسم صورهن في عقله ويتخيلهن في وضعيات مختلفة. حشد كبير من الفاتنات الشفافات والعذراوات المستعدات للقيام بأي شيء يريده بهزة صغيرة من رأسه. أية مكافأة كبرى تقدم لجسد فان، وأي ثمن يدفع مقابل هذا، أمر لم

يخطر على بال (عمر)، ولا مرت هكذا أسئلة حقيقة في خياله الشبق المتعب والمحتشد بنساء يعجز كل ليلة عن لمسهن.

في سوريا، سوف يتحقق كل هذا بلمح البصر حين "يطرطش" دمه على جدران شبه منهارة، كُتب عليها آيات قرآنية باللون الأسود، ويسقط جسده إثر الرصاص المتطاير والتفجيرات التي لا تتوقف. لا يوجد تجريب أو إعادة نظر في هذا الأمر. فالعودة من الموت مستحيلة، ونيران "الروليت" الروسية موجهة إلى رأس جميع من معه من الحالمين. ميتة واحدة وينتهي كل شيء. فإذا لم تكن حور العين بانتظاره في آخر النفق، فهنا الطامة الكبرى، وهنا صرير الأسنان والإحساس بالغدر والغش. تحدث "مجاهد" تونسي عاد من القتال في سوريا أمام "تلفزيون" وطنه عن رؤيته للحوريات وعن جمالهن! رآه مئات الآلاف يهذي بعيون شبه مفتوحة، وشعر طويل فوضوي مُغبر، وابتسامة مخبولة. تحدثَ رجل دين أمام الملايين عن حوريات لسن بحاجة لاستعمال "النيفيا"، كما قال، من أجل تنعيم أجسادهن الشفافة. تحدث كثيرون بشكل جدي عن هذه الأمور الاحتلامية أمام ملايين الناس من دون أن يرف لأحد جفن. البعض صدق بدافع الشعور بالذنب، وآخرون لم يفعلوا علناً، ولكنهم ظلوا بينهم وبين أنفسهم "يضربون ويطرحون" لعل وعسى!

حين وصلت حافلة "المجاهدين" إلى الحدود، رأى (عمر) كل ما تحدث عنه (أبو الغيث) وأكثر. كان معبر "باب الهوى" مُسيطراً عليه من قبل "قوات المعارضة". رآهم من وراء الحدود، بعضهم ببزات عسكرية نظامية، والبعض الآخر بثياب القتال السوداء،

وعصباتٌ حول رؤوسهم وأسلحتهم جاهزة عند أول نسمة. كانت سيارات الهلال الأحمر التركي وسيارات إغاثية أخرى تروح وتجيء مثل النحل، والجرحى واللاجئون يحثون خطاهم باتجاه "الجنة التركية الموعودة" رغم التشدد الكبير في السماح لهم بالدخول. أما الفارّون الأكثر إحباطاً ويأساً، فكانوا لا يترددون في الاتفاق مع مهربين متخصصين في الاتجار بالبشر والدعارة. عرف ذلك من بعض الرجال المنتظرين على الطرف التركي، والذين يضعون أيديهم على خصورهم ويتطلعون بعيون صقر بالقادمين، وكأنهم يريدون أحداً بعينه أو يبحثون عن أكثر اللاجئات جمالاً "لإنقاذها"!

قال (أبو الغيث) لرجاله في الحافلة المنتظرة على المعبر أنه لا يكلف تهريب الشخص إلى سوريا اليوم أكثر من خمسين دولاراً. هناك شبكات كثيرة تعمل مثل الطواحين في العواصف من دون توقف. فهي لا تهرب المقاتلين فقط، وإنما تهرب معهم المخدرات والسلاح عبر حدود يصل طولها إلى قرابة الألف كيلومتراً. حتى السيارات المسروقة الغالية الثمن كانت تمر عبر الحدود، لتباع في أسواق الرقة وغيرها في سوريا لزوم القتال، بأسعار بخسة. لقد اختلط الحابل بالنابل على هذه المعابر والحدود، وغدا الأمر فالتاً من عقاله، إذ كل عربي أو غربي يعبر هذه البوابات التركية إلى سوريا، الله وحده يعرف إن كان في نيته الالتحاق بالجهاد، أم زيارة أسواق إسطنبول، أو شراء فراشة ليل لمدة ساعة! لهذا، كل واحد من بينكم اليوم عليه أن يحافظ على نفسه، ويعتبر ذاته رجلاً مقابل عشر رجال، بل وأكثر...

سأل (عمر) (أبو الغيث) فجأة وقبل أن يبدو على هذا الأخير

أنه قد أنهى حديثه، "إذا استعاد جيش النظام المنطقة الحدودية كلها، ماذا ستفعل تركيا بكل هؤلاء المقاتلين ضمن حدودها؟".

استدار (أبو الغيث) استدارةً كاملة باتجاهه، وتطلع إليه باستنكار كبير. كأن السؤال صعقه، ليس لأنه غير وارد، ولكن لأنه خرج من فم "مجاهد"، المفروض أن لا يَرِدَ في عقله مثل هذا الاحتمال. رد عليه بغضبٍ مكبوت قائلاً: لن يستعيدوا شيئاً إلا في أحلامهم!

بعد نصف يوم من الانتظار، عبر رجال الحافلة إلى الطرف الثاني من الحدود؛ الأرض السورية التي أتوا جميعاً لكي "يقذفوا" فوقها كل احتلاماتهم الجهادية. لوح لهم (أبو الغيث) بقبضته مودعاً، ورفع علامة النصر بإصبعيه مبتسماً ثم رحل. كان العرق الغزير يتصبب من جبهة (عمر)، والتعب قد أخذ يفتك بقواه، ليس بسبب الانتظار أو الجوع، وإنما القلق الكبير. أخذ حافلة ثانية مع الرجال الذين معه بمرافقة مرشد كان ينتظرهم، وانطلقوا إلى قرية "أطمة"[33] التي لا تبعد أكثر من كيلومترين عن الحدود.

في الطريق باتجاه سهول إدلب الزيتية، تنفس (عمر) هواءً سورياً ربيعياً جافاً بينما أخذ يراقب طبيعة خلابة من وراء زجاج الحافلة المتسخ. كانت القرية واقعة بيد "الجيش الحر"، وكان مخفرها مركزاً لتجمع اللاجئين المنطلقين إلى الحدود التركية. حين وصلت الحافلة، رأى جلبة الناس حول المكان، وقرقعة الأسلحة الخفيفة، ورجالاً ببزات مبرقعة يروحون ويجيئون. استقبل ضابطٌ شاب بثياب

(33) **قرية أطمة**: هي قرية صغيرة تابعة لمحافظة إدلب، قريبة من مدينة الريحانية التركية. يتراوح عدد سكانها بين 5 - 6 آلاف نسمة. تشتهر بزراعة الخضار والزيتون. معنى الاسم هو القلعة أو المكان المرتفع.

شبه عسكرية وجهاز لاسلكي حول وسطه الرجال المترجلين من الحافلة وقادهم إلى المخفر، ثم طلب منهم الانتظار قليلاً بعد أن قدم لهم الشاي الساخن. جلسَ (عمر) على كرسي بلاستيكي غير متوازن في زاوية من المخفر بينما وضع حقيبته في حضنه. مالَ برأسه على الجدار وأغمض عينيه من شدة الإنهاك. كان الكرسي يتأرجح قليلاً تحت ثقله، مانعاً عنه الإغفاء لدقائق مما زاد توتره وقرب صبره من النفاذ. قال للضابط الشاب إنه يريد أن يعرف إلى أين سيرحلون. فرد عليه ذلك الأخير بابتسامة من نام عشرة ساعات متواصلة:

- "طوّل بالك، خلّي نَفسَك طويل يا أخي، الآن سوف يأتي (أبو خالد) ويخبركم كل شيء، ولكن على الأغلب لن تبقوا في القرية الليلة".

كبت (عمر) غضبه. لم يعد يستطيع الانتقال. تعب إلى ما فوق طاقته على الاحتمال. شعرَ بالخدر في جسده وقدميه، وبنزق مزاجه وعصبيته. لم يعد لديه أية وسيلة اتصال، لا هاتف خليوي، لا كمبيوتر شخصي، لا شيء. أخذوا منه كل الأجهزة الخاصة به، وقالوا له إنه سيُعطى أخرى أكثر تقدماً لزوم القتال. قالوا له اصبر، اصبر فالفرج قريب. لكن الشاب تعب، وهذه الحياة كما يبدو، لا تمت بصلة لحياته التي اعتادها في لوس أنجلس. شعر بروحه تمرض، حتى أنه خاف أن يجن بعد قليل. مسك رأسه بكلتي يديه وعاد ليتمتم بصلاة قصيرة ويردد ذكر الله! صور والدته ووالده لا تبرح مخيلته. لا، لم يندم ولكن، "ربما أنا مرهق قليلاً، سأتماسك، سأصلي، سأكمل ما أتيت من أجله!"، هكذا أخذ يردد بينه وبين نفسه بينما ما زال الكرسي يتأرجح من تحته كلما قام بحركة ما.

* * *

(سام) أيضاً لم يتوقف عن التفكير (بعمر)، لدرجة أهمل ابنه من (نانسي). لم يعد يأتي إلى المنزل إلا في ساعة متأخرة من الليل بعد أن يكون التعب قد هده في المكتب. أما (هداية)، والدة (عمر)، فلم تكن اتصالاتها (بِسام) تتقطع طوال اليوم وكأنها زوجته، حتى إنه أخذ يقضي بعض الليالي في منزلها من دون أن تعترض. في أول مرة، حين قرر أن يبيت عندها، أخرجت خفه القديم من خزانه جانبية ووضعته قرب السرير، وكَوَت بيجامة نومه التي تركها قبل أن يغلق الباب وراءه ويرحل منذ أربعة عشر عاماً، ووضعتها فوق المخدة المنشّاة ذات الرائحة الزكية، كما كانت تفعل تماماً حين كانا زوجين. رأى كل هذا وتنهد. لما عليه أن يقع من جديد في حب زوجته المتدينة؟ خاطرٌ هزه وهو يحضّر نفسه للنوم. خاف أن يكون هو الآخر مدعياً، يعيش مع برعم التدين النائم في عروقه. خاف أن تكون أفكاره التي تبناها في أمريكا ليست سوى غطاء رقيق تخفي تحتها مسلماً متطرفاً مكابراً. لقد ضبطَ نفسه يتأمل زوجته وهي تصلي فوق سجادتها في إحدى المرات في غرفة نومها من خلال الباب الموارب. شعر بالألفة والحب تجاهها. أحب سجودها وغطاء رأسها. أحب سكونها وطاعتها لله. رأى أنوثتها من خلال كل هذا. خاف مما شعر، كأنه ليس هو، أو ربما كان هذا هو تماماً. مع ذلك، عاد للمكابرة وانتقدها عندما انتهت قائلاً:

- ظننتُ أنكِ تغيرتِ!

تطلعت إليهِ وقالتْ:

- لا، لم أفعل..! أنا لم أقصد أن أربي (عُمر) ليصبح متطرفاً!

- لكنه أصبح!

* * *

دائماً من رَحِم المصائب تخرج الحلول، وتومئ الواحات الخضراء الصغيرة برأسها. هكذا قال لي (سام) في ثرثرة لنا متأخرة في المكتب مساء ذلك اليوم. كان الجميع قد رحل، وبقيت لوحدي أنتظر (مارك) لكي يمر علي. رأيته يتأملني وهو يقف على باب غرفة مكتبي. حين تطلعت إليه مستغربة، قال لي: الحب يليق بك يا (أميرة)! يليق بك كثيراً. خجلتُ من ملاحظته وابتسمتُ بحياء، لكنه تقدم أكثر إلى منتصف الغرفة وقال: "كلنا نحبُ أفراداً نظن أنه من المستحيل أن يجمعنا شيء معهم. الحب مثل ورقة الكشاف يزيل الغطاء الخارجي بلمح البصر، ويجعلك ترين البناء "على العظم" كما يقولون. الغربة تفعل فعل الحب تماماً؛ تكشف لك ما تحت الغطاء. ما كان صعباً في الوطن، يصبح ممكناً في الغربة، وما كان مستحيلاً هناك، يصبح هو الممكن والمعقول هنا. المشاعر تنمو بطريقة مختلفة في الغربة. تُفتَح أبوابها على مصراعيها. تزول الحواجز، يموت الخوف، تهتز القناعات القديمة، ينهار كل شيء، وهذا أمر جيد. لكن البعض، مع ذلك، يعتقدون أن التغيير خيانة، فيعودون منصاعين لينحنوا أمام هذه الحواجز، وذاك الخوف، وتلك القناعات. في تلك الزاوية الضيقة، يشعرون مرة ثانية بالدفء والألفة، ويشمون "رائحة الوطن" الغالي. أنا منهم يا (أميرة). اليوم تأكدت من ذلك. مصيبة (عمر) جعلتني أعود إلى الوراء. شعرتُ بالحب مرة ثانية تجاه (هداية). رأيتها تصلي على سجادتها. أردت أن أركن إلى إيمانها وهدوئها. أردت أن يكونا لي وملكي. أردت أن أستبقيهما لدي طويلاً، وأن أمنعهما من مغادرتي. (نانسي) ليست زوجتي، ولم تكن يوماً. أنا

حتى أخاف منها ولا أثق بها. إن ولاءها ليس لي! (هداية) كذبت علي، لكن حتى كذبها أقبله، أفهمه وأعرف مصدره!.. أشعر بالفوضى داخلي، فوضى كبيرة، كأني أقف في منتصف جسرٍ واه، معلق فوق واد سحيق، إن تقدمت أموت، وإن تراجعت أموت".

أتت رنة رسالة (مارك) على هاتفي يعلمني أنه وصل في وقتها. اعتذر (سام) مني على طول حديثه، وتمنى لي ليلة طيبة وغادر. أما أنا، فكنت أستجمع أغراضي بسرعة قصوى وأهرول خارج المركز حيث من أهوى بانتظاري.

حين جلست بالقرب من (مارك) في سيارته السوداء العالية، احتضنني طويلاً وتنفس بعمق وقال "اشتقت لك كثيراً كأني لم أرك منذ دهر". كانت موسيقا أوركسترالية احتفالية تصدح من مسجل السيارة وليست أغاني "محمد عبد المطلب" القديمة. سألته باستغراب ممازحة:

- لا أعرف أنك تحب هذا النوع من الموسيقا...؟

أجابني بابتسامة عريضة:

- ليس كثيراً، ولكن هذه أحبها... إنها موسيقا "بروكوفييف"[34] و"باخ"[35]، تعزفها الآن فرقة "مارينسكي" الروسية في المدرج التاريخي لتدمر.

- ماذا!!!!!!

- اسمعي!

---

(34) **بروكوفييف**: سيرجي سيرجفتش بروكوفييف، مؤلف موسيقي وعازف بيانو روسي. توفي عام 1953.

(35) **باخ**: يوهان سباستيان باخ، عازف أورغن ومؤلف موسيقي ألماني ولد في 1685 ورحل في 1750م. يعتبر أحد أكبر عباقرة الموسيقا الكلاسيكية في التاريخ الغربي.

باخ في تدمر

بينما كان الظلام يرخي سدوله على مدينة لوس أنجلس، ويغمر (مارك) و(أميرة) برومانسيته، كانت الفرقة السيمفونية الروسية تعزف بكل هدوء وتؤدة تحت سماء انطلقت فيها لبرهة سهام الجاهلية العمياء. ليس الحدث عادياً بالمطلق، وإنما بدا للجميع تقريباً سريالياً غريباً. كان أكثر من عشرين موسيقياً بلباسهم الأسود يعزفون فوق منصة مسرح بُني في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي. وكما بدا الزمن "الفصائلي" الذي اجتاح سوريا خلال حربها الأخيرة غير قابل للتصديق، كذلك كان الرد عليه أيضاً غير قابل للتصديق. لقد حملت مروحية روسية صحفيين من كل أصقاع الأرض إلى قاعدتها البحرية في سوريا، ومن هناك إلى تدمر المحررة كي يشهدوا كيف تكون الصلاة على شهداء الإرهاب، وكيف تُؤدّى التحية إلى الجدران العتيقة، كما قال منظّموه.

تَركتُ (أميرة) و(مارك) بلمح البصر وغططت فوق أحد العواميد المرمرمية في تدمر، أتطلع إلى الحشد الجالس على المدرجات تحت شمس أيار الدافئة. من علٍ، رحت أمسحُ بعين أدمعت من متعة النظر، التاريخ الغرانيتي المكابر. رأيت المسرح

الكبير والطريق المستقيم ومعابد المدينة؛ معبد بعل وشمين ونبو وأرصو ومعبد اللات الذي نُك أسده الحجري الرابض على مدخله بعبارته الأبدية "يبارك اللات كل من لا يسفك الدم في المعبد". رأيت هيكل الموتى ذا الواجهة المثلثة البديعة، وكذلك أعمدة ملوك تدمر؛ "أذينة وزنوبيا". رأيت المذابح الحجرية النذرية المُكرسة لإلهِ الشمس. رأيت كل مجد المدينة القديم يردد صدى الموسيقا الأوبرالية التي أرادت أن تبخّر المكان مرة أخرى لا بالعطور وإنما بالنوتات المرتبة بتناسب مذهل فوق دفاتر مؤلفيها. مر الكثيرون على هذه المدينة إلى أن بقي منها ما بقي. مر الأمويون والعباسيون والأيوبيون والمماليك ولم يضربوها بحجر إلى اليوم الذي جُن فيه "مسلمون" قرؤوا كتبهم المقدسة بالمقلوب، وأخذوا يبيدون ويحتلمون فوق الإبادة!

(كان (مارك) يمسك بيدي ونحن نستمع إلى "باخ" يصدح في فضاء التاريخ السوري القديم المنهك. أطفأ أضواء سيارته فوق هضبة تطل على "داون تاون لوس أنجلس"[36] وأغمض عينيه وأخذ يستمع معي إلى عشرات الكمنجات تداوي بنعومة جروح المدينة المفتوحة. قال لي "كأنني أحلم! أحداث حياتي تتسارع إلى درجة لم أكن أتوقعها". تطلع إليوأكمل مبتسماً "أنت أتيت وجلبت الخير معك. هل يأتي يوم وأعود فيه إلى سوريا؟" أجبت "سنعود معاً ". ردَ بعد أن حرك رأسه ُ متطلعاً إلى المدينة أمامه "صعب! أنا أعيش هنا منذ رأبعين عاماً، لم تغادرني البلد يوماً واحداً . كنت أسافر إلى سوريا

(36) قلب مدينة لوس أنجلس ومركزها.

كلما سنحت لي الفرصة. أعيش فيها كسائح لمدة شهر. أفرح بأهلي، أمي وأبي وشقيقتي، أفرح بأصدقائي القدامى. في دمشق أتغدى في مطعم "النارنج"[37] وأتعشى في "بيت جبري"[38]، ثم أذهب في المساء إلى دار الأوبرا. في اللاذقية، أقضي أيامي مستلقياً على الرمل الدافئ في منتجع "الشاطىء الأزرق"[39]. كانوا يجلبون لي العصير وأنا في الماء، فأشعر بالدلال والتغيير. لقد رأيت حتى امرأة تسبح بلا حمالة صدر من دون أن يتجرأ أحد على التحدث معها. لم أعتبر الأمر فُسقاً أو انحلالاً، وإنما حرية شخصية. وقبل أن أعود إلى أمريكا كنت أملأ حقائبي بالمكسرات والفاكهة المجففة وقمر الدين والزعتر. كانت البلد قد تغيرت كثيراً وتحسنت مرافقها، ولم أكن منتبهاً إلى ورطة هذه الفورة الاقتصادية إلامتأخراً. منذُ ثمانية أعوام، طلب مني والدي الحضور في أقرب إجازة لي. خفت من نبرة صوته الضعيفة. وصلت إلى اللاذقية بعد أقل من أسبوع على اتصالنا. كان والدي مريضاً جداً، ولقد أراد أن يقوم "بما علي القيام به وأنا حي"، كما قال لي. لقد أراد أن يمنحني بيت العائلة الكبير بعد أن وزع بقية الأملاك على شقيقتي. حين باشرت في المعاملة رأيت العجب العجاب. صحيح أنني أنهيت الأمر كما أراد، و لكن بعد أن دفعت

(37) مطعم النارنج: موجود في حي القيمرية في دمشق القديمة، بالقرب من الكنيسة المريمية. يعتبر من أعرق مطاعم الشام.

(38) مطعم بيت جبري: يقع مطعم بيت جبري في منطقة القيمرية، في مدينة دمشق القديمة. كان في الأصل بيتاً شامياً تقليدياً بهندسته، ثم تحول إلى مطعم مثل بعض بيوت تلك المنطقة.

(39) منتجع الشاطئ الأزرق: منتجع بحري رائع في مدينة اللاذقية يقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

مبالغ مضاعفة إلى كل من "هبّ ودبّ". كرهت نفسي والدنيا حولي. منذ ذلك الحين، لم أعد للبلد إلا مرةً واحدةً حين توفي والدي، ومن بعده أمي بأيام قليلة. حين عدت من الدفن، أغلقت باب البيت الكبير بالمفتاح، بعد أن أرسلت كل أصص الزرع إلى منزل شقيقتي، ووضعت عازلاً حديدياً موزازياً للباب الخشبي، ورحلت!

حين بدأت الحرب على سوريا بقيتُ أياماً طويلة في حالة ذهول. مرت أفكار كثيرة في رأسي. أصبحت كالمصفوع لا يعرف من أية جهة تأتيه الضربات. أخذت إجازة طويلة من عملي ولازمت المنزل. أردت أن أبكي بحريتي. أولادي فهموا ما يمر بي، فتركوني أهدأ على مهل من دون منغصات أو طلبات، أو حتى اتصالات من دون داع. اليوم، لا أدّعي أنني شفيت، فالبلد ما زالت مريضة، ولكني عرفت كيف أترك مسافة بيني وبين هذه الحروب، وأن أختزل حياتي بأشياء قليلة بسيطة. العودة إلى سوريا مؤلمة إلى ما فوق طاقتي على الاحتمال يا (أميرة). في داخلي غضبٌ وعتبٌ وغيرة وحب وأشياء أخرى لا أعرف كيف أصفها، كلها قد تخرج دفعةً واحدة وأنا لا أريد هذا".

هبطَ سكون كبير عليَّ بعد أن أنهى (مارك) كلامه. كنت أُمني نفسي بأشياء كثيرة حلمت أنها ستحصل. كنتُ أراه معي، يداً بيد في شوارع دمشق، أو حتى في اللاذقية، نعمل ربما في مكانين متقاربين، أو حتى في نفس المكان. كل أفكار الدنيا الجميلة هجمت علي دفعة واحدة عندما عرفت (مارك). لكنه كوكب الأرض وليست الجنة، إذ كلُ صعود يليه هبوط، وكل هبة فرح حقيقية تليها نكسة حزينة، وكل حبٍ مشع قد تنزل مرتبته في يوم إلى حدود التعايش المفروض. شد

على يدي مرة ثانية قارئاً هذا السكون بذكاء كبير. قال بعد أن التفت بكامل قامته إلي "لمَ لا ننسى الآن كل هذا ونستمتع باللحظة الحاضرة. ألم أجلب لك خبراً بمليون دولار الآن! استمعي إلى هذه الموسيقا التي ترد الروح وتشفي شيئاً من جروحنا". صدق (مارك). لا يوجد أهم من بلد يتماثل للشفاء شيئاً فشيئاً، خصوصاً إذا كان هذا البلد بلدي. ابتسمت له وهززت رأسي علامة التفهم، لكن حزناً، مع ذلك، بدأ يملأ هذا القلب الذي ما زال يقول: يا هادي!).

* * *

شعر والد (أميرة) بهبوط في نبرة صوتها عندما تحدثت معه مساء اليوم التالي على الهاتف. لم يشأ السؤال، إذ بعد أكثر من سبعين عاماً من العيش في هذه الدنيا يعرف تقلبات الحب وهذه الطلعات والنزلات التي تميز الشغف والاهتمام. حدثها عن البلد، عن الغلاء المهول، عن الزحمة الخانقة، وعن الكفاح اليومي للناس من أجل البقاء على قيد الحياة. قال لها بحنق "يجب أن تُعلقَ مشانقُ أولئك الذين أوصلونا إلى هنا كائناً من كان". شتمَ كثيراً. غَضِبَ. ارتفع صوته لأول مرة بحدة لم تألفها فيه، لدرجة لم تفلح بتهدئته أبداً خلال الربع ساعة التي امتد حديثهما فيها. فقد المسكين هدوءه وطبيعته المتأملة. أصبح عصبياً يثورُ لأي نسمة. حتى (أم علاء) أصبحت تتجنبه وهو يدور في كُرسيه المتحرك حول البحرة في"أرض الديار"، كمن يبحث عن شيء فقده. العالمُ أطبق على صدره مثل حجر ثقيل، وفقد قدرته على كتابة الشعر أو المزاح. صار ينام كثيراً ويصحو غاضباً. "الحياة غدت صعبة معه يا بنتي"، هكذا كانت

تقول (أم علاء) (لأميرة) في كل مرة تتحدث فيها معها. طلبت منها العودة أو إيجاد حل، إذ "لا يوجدُ شيء يرضي والدك أو يجعله يبتسم، كأني لا أعرفه! البارحة طرد (أبو جميل) جارنا. أتى المسكين لكي يخفف عنه ويلعب معه "طاولة الزهر"، لكنه غضب منه فجأة، وقال له "انقلع من هون". أصبح يقضي وقته في الغرفة تحت السلم التي وضعنا فيها أغراض والدتك القديمة. رأيته مرة من النافذة البرانية يشم ملابسها ويبكي. انفطر قلبي عليه المسكين!"

في لحظة ما تتطابق مشاكلنا الشخصية الصغيرة مع مشاكل الوطن الكبرى. تضعف هذه لتقوى تلك في دورات تناوبية لا تتوقف. أحياناً، تغمرنا مشاكلنا الصغيرة إلى ما فوق قدرتنا على الانتباه لمشاكل الوطن. نَدورُ مثل الدراويش على وقع طبول الاثنين. نعود إلى رُشدنا تارة، وندوخ تارة أخرى. في لحظات التجلي الذاتية، تتملكنا حُمى الوعظ، وفتنة الخطاب، فنتدفق فاتحين كل الأبواب الموارية في داخلنا ليخرجَ مِنها عسلُ الخبرات الماضية وقدرة على الغفران والمسامحة أتت من غامضِ علمه. أما في لحظات الهبوط، فتتجمع كل الغيوم السوداء فوق رؤوسنا وتُمطرُ علينا وعلى هذا الوطن الحزين. بيوتنا تشهد على هذا، شوارعنا، مدارسنا، مستشفياتنا، مقاهينا، وحتى رؤوس جبالنا العالية والوديان تردد صدى هذه الهموم التي فتكت بالصغير قبل الكبير.

ليست مشكلة (إنعام زين الدين) أصغر من مشكلة وطنه، ولا مشكلة (أميرة) أصغر من مشكلة وطنها، ولا حتى (عمر) الذي يغفو ويصحو على كرسي بلاستيكي غير متوازن، ينتظر في مخفر

"للمعارضة" في قرية تبعد "شلفة حجر" عن الحدود، أصغر من وطنه، وإن بدت كلها تافهة مقارنة بهذا الوطن العملاق الذي يطيح بمن حوله حين يرضى، أو حين يتمطى أو يتعكر مزاجه فجأة!... في جزء نادر من الثانية تتطابق كل هذه المصائب وتتحد. كلها تدور في مدار مغلق يتحرك بدورات أبدية لا تنتهي، متغذية من أثداء بعضها البعض بطريقة طفيلية محكمة. طاحونة ضخمة تفرم الجميع من دون توقف. مدحلة تروح وتجيء المرة تلو الأخرى لتتأكد من أن الأنفاس تحتها خمدت إلى غير رجعة. وحين يتمكن البعض من التملص والهروب، تلاقيه بجبروتها المخيف على مفرق الغربة، متخفيه بلباس نساء الشوارع المغريات، فتزين له جنة "الآخرين" وكأنها نهاية النفق والراحة الأبدية المنتظرة ، وهناك ينهار "بلده الثاني" فوق رأسه بضربة واحدة قاتلة. أما ردة فعله الفورية فهي عتب كبير على الوطن لأنه تركه يرحل!

لا أحد يهرب من هذه الدورة، لا أحد! وصلت (أميرة) إلى هذه القناعة بسهولة. أنضجتها بسرعة إقامتها القصيرة في أمريكا. جعلت الصورة تكتمل في عينيها. "نتفة" الواقعية هذه هي ما كان ينقصها لكي تعرف أن الأنشوطة التي تلف كل واحد منا في وطنه، مرنة لدرجة تستطيل وتمتط حتى لو اختار العيش في آخر أصقاع الأرض. إنه في داخلها، ولن يخرج منها أبداً مهما فعل، وكأنه محكوم دهري باللاانفصال، وباللااستقلال، وباللاابتعاد! مرة مثل العلقم هذه المرونة، وحلوة مثل العسل. رحم الوطن لا يلفظنا إلا ساعة الموت!

* * *

(فتحت هذه الموسيقا أبواب الذاكرة المغلقة لدى (مارك). ألقى رأسه على مقعده في السيارة، وراح يتحدث كمن يعترف أمام طبيب نفسي أو رجل دين. قال كل شيء. أراد أن تكتمل صورته في عقلي. رأيته صادقاً لدرجة لم آلفها في الرجال الذين عرفتهم وعشت معهم طوال حياتي. هذا رجل عربي لكنه لا يكذب ولا يلف ولا يدور. يعترف بخطئه بسرعة ويسامح بسرعة. كان يشكرني على كل لفتة لطيفة مني دون أن يشعر أن هذا يؤذي رجولته أو يقلل من كرامته. لقد عرفت رجالاً من بلدي يكابرون لدرجة العمى. يرون الشكر والاعتذار هدراً للكرامة خصوصاً أمام المرأة. يخافون من أن "تستوطي حيطهم"، وأن يبدوا أقل تماسكاً وقوة أمامها. من أين أتت كل هذه المغالطات في تربيتنا وثقافتنا؟ كيف تشوهنا إلى هذه الدرجة؟ كيف مازلنا قادرين على العيش بهذه التوليفة الفولوكلورية من الجنون؟ أليست هي ذاتها من أوصلنا إلى هذا التذابح السافل فيما بيننا!

"نعم هي بعينها، ولا شيء غيرها" رد (مارك) مجيباً على كل هذه الأسئلة التي تفور في عقلي. "عندما أتيت إلى أمريكا، وكنت مازلت في الثامنة عشرة من عمري، لم أجد فرقاً كبيراً بين تربيتي وبين العيش هنا. لم تستفزني الصلبان التي كانت تعلو الكنائس الكثيرة، ولم أستغرب من سهولة التعبير لدى الناس عن عواطفهم الجميلة. لم أستغرب عدم كذبهم، أو حبهم للحرية، أو تفاصيل أخرى في سلوكهم. انسجمت مع كل هذا بسهولة لأنني هكذا عشت في بيتي مع أهلي. لكن، بالمقابل، ما أهلكني لاحقاً هو موقف أمريكا

التي أعيش فيها من سوريا وحربها عليها في السر والعلن. كرهت سياسة هذا البلد. لم أطقها. شعرت بالشرخ الكبير وبالغضب حين كنت أرى تسليح الجنون، وضخ الدمار في كل بقعة فيها وعن سابق تصور وتصميم. حين كنت أستمع إليك تتحدثين في بيت (مرام)، قفز قلبي من صدري. صرت أنت كل الدنيا التي أريدها. هدأ شيء في داخلي. كنت تشبهين الحب والوطن الذي في عقلي. أحببتك في لمح البصر".

أتى اعتراف (مارك) بالحب فوق تلة جميلة من البوح الحقيقي. قالها لي في سياق طبيعي غير مزخرف ولا كلاسيكي. شعرت بالسكينة والاطمئنان والثقة بهذا الرجل أمامي. بدا كريستالياً شفافاً، وكأنه من فصيل مختلف. بأي ورق مذهب سوف أغلفه وأحمله معي إلى سوريا! أعرف توتري حين أخاف من فقدان شيء أحبه. أعرف عصبيتي الصامتة والغيرة الطفيفة غير العاقلة التي تومئ برأسها من دون داع. أعرف نفسي حين أقع في الحب. وها أنا الآن، رسمياً، أقف في وسط كل هذا الألم الوردي الموجع).

أشعلَ (مارك) أضواء سيارته الأمامية وحرك المقود باتجاه الطريق الرئيسي بعد أن انتهت الفرقة الروسية من العزف، وعلا بعدها التصفيق والصفير. تنفس الصعداء مبتسماً، ثم طلب من (أميرة) مباشرة ومن دون مقدمات الموافقة على الذهاب معه إلى منزله. قال إنه يريد أن يريها أين يعيش، وشكلَ المكان، وكذلك الكتب واللوحات التي يقتنيها. قال لها "اتركي هذا الإرث من الخوف وتعالي معي. لن يصونك أحد مثلي. مع ذلك، أنا لستُ قديساً، ولا

أدعي أنني أتحول إلى جليد أمامك، ولكني أرغب في أن تأتي معي بإرادتك". وافقت (أميرة) بهزة من رأسها وابتسامة خجولة. أمسك (مارك) يدها وقبلها بفرح كبير وقال "لا تقلقي أبداً عندما تكونين معي"، ثم انطلق فوق الطريق السريع المضاء بوهج القمر المكتمل. تركتهما بأمان وطرت إلى (عمر) الذي ما زال ينتظر تقرير مصيره في تلك القرية الحدودية الصغيرة.

الرقة: الولاية المحررة

فرّت دمعة صامتة حارقة من عين (عمر) الذي ينتظر في إحدى غرف مخفر قرية أطمة الحدودي. شعر أنه يمشي في متاهات لوحة سريالية غير مفهومة. إذ لا تكفي كلمة "الله أكبر" لكي يصبح مجاهداً في التنظيم الإسلامي. لا تكفي الأحلام، ولا الاحتلامات، ولا حتى دموع الحمية الكثيرة التي سالت من عينيه وهو يرى المجاهدين يُقتلون أو يَقتلون في لقطات سريعة، سُجلت على بعض هواتفهم الذكية. هذا الإحساس الجديد الوجودي بالدنيا ليس مألوفاً لديه، ولم يعرفه يوماً. كانت الحياة بالنسبة له إما تمر في عقله، أو أمام ناظريه. وفي كلتا الحالتين، لم يكن يملك هذا البعد التأملي لكي يرى رمزيتها أو كينونتها. قالوا له إن الحقيقة محتكرة في الكتاب الذي يقرؤه، وأن ليس عليه أن يفكر، وإنما أن يقبل وينفذ. لكن ما إن خطا فوق الأراضي السورية، حتى عرف أن الحقيقة تكمن في مكان آخر، وأن عقله كان في علبته، لم يُمَس، ما زال مغلفاً بالقطيفة والساتان.

مال المسكين برأسه مرة ثانية على الجدار وأغمض عينيه، وفي الحال شعر بالذبذبات القوية التي كانت ترددها أعمدة تدمر الأثرية إثر الافتتاحيات الحزينة لـ "باخ"، والتي لامست بتواترها جمجمته فهزتها

هزاً خفيفاً. ليس هذا كل شيء، فلبقية الحواس نصيب أحياناً من الفطنة والانتباه. وعلى عكس الموسيقا التي كانت هادئة وذات نغمة راسخة في تدمر، كانت حركة المقاتلين في الغرف البنفسجية في قلب ساحات المعارك، سريعة وعنيفة. إنها حبة "البونبون" الصغيرة قبل الصعود الأخير إلى الجنة المكتظة بما هو متاح فعلاً على الأرض، فوق الرفوف في أسواق دبي، ودمشق، والقاهرة، وباريس، ولوس أنجلس، وحتى مقديشو. أما في مناطق أخرى، فكان هناك أطفال يحملون أسلحة تفوق وزنهم بكثير يتدربون على القتال وتقوية نبض القلب بمنظر الدماء الآدمية. أما مدن الساحل المتوسطي، فكانت تقوم وتقعد على عراضات موسيقية من نوع آخر، تزف عرساناً جدداً وشهداء لن يبعثهم من جديد القرع القوي والجنائزي للطبول، حتى ولو جنت الأمهات فوق الصناديق التي تحتوي على جثثهم.

حين وصل (أبو خالد) لملاقاة مجاهدي الحافلة المنتظرين في المخفر، كان التعب قد فتك (بعمر) إلى درجة جعلته عصبياً ونزقاً. الانتظار أهلكه، ولم يعد قادراً على الجلوس في مكانه. أخذ يروح ويجيء محركاً عضلات فكه، وضاماً قبضته بقوة. انفجر في وجه الرجل حالما عرّف عن نفسه. قال له إنه مرهق من كثرة التنقل والانتظار. علا صوته في المخفر مما استدعى انتباه من في الداخل واللاجئين المنتظرين في الخارج. لكن (أبو خالد) استطاع تهدئته قليلاً واعتذر منه، ثم طلب من أحدهم أن يجلب الشاي وبعض السندويشات. بعد أن سكن الجميع، أغلق باب الغرفة عليهم، وأخذ يشرح لهم الخطوة التالية: الرقة!

قبل خمسة أشهر، كانت الرقة تعج بالفصائل المسلحة؛ "جبهة النصرة"، "أحرار الشام"، وحتى "الجيش الحر"، كل منها كان يجد لنفسه مرتعاً فيها، ويجمع حوله المريدين والعتاد والحلفاء. لكن ما إن أعلن "تنظيم الدولة الإسلامية" عن نفسه في العراق والشام، حتى عمد زعيمها إلى حل "جبهة النصرة" في الرقة، وتفكيك كل الكتائب المقاتلة فيها. لم يكن الأمر سهلاً، فتَحارُب هذه الجبهات المتغولة على بعضها البعض كان مُدمِراً ومَهولاً، والمعارك الطاحنة خلفت المدينة في حالة عجز ودمار كبيرين. في نهاية المطاف، استطاع الاغتيال والتفجير والتفخيخ أن يفتح طريقاً جراحياً مؤلماً في عمق المدينة لكي يعلن من فوق منبره مقاتلون أجانب ملتحون في لباس أفغاني وأسلحة على الظهور قيام "ولاية الرقة"، باعتبارها الولاية الأولى في دولة التنظيم. رأى (عمر) على شاشة الـ "سي إن إن" الاحتفالات النارية، والأدعية التي يطلقها في ساحات المدينة رجال انتصروا على أشباههم بأمشاط الرصاص وحياكة المؤامرات. شعرَ بنصرٍ شخصي وبِحَميةٍ لمْ يألفها مِن قبل. عرف أن الساعة قد أتت. رأى نفسه يرقص بسلاحه مع هؤلاء، ويقطف نصراً إثر قتال شرس من أجل "إعلاء كلمة الله". صار مثل المخبول يدور في غرفته لا يعرف ماذا سيفعل. فكرَ كثيراً ولليال طوال. كان السر يخنقه وكذلك الخوف. لم يكن قرار السفر إلى "هناك" سهلاً، فربما لن يعود، وربما يُقتل حتى قبل أن يستطيع أن يضع قدمه في هذه المدينة "المحررة". بحث عن قناة تجنيد على الإنترنت، وعثرَ على أكبرها بسبب مهارته في الكمبيوتر، وبسبب الجهود الحثيثة لعولمة الجهاد وتسويقه. بعد

أقل من عشر دقائق على إرسال أول "مسج" من قبله، وصله الرد، وبدأ التواصل معه لمدة أسبوع كامل، بعد أن تأكد المجندون أن (عمر) رجل من لحم ودم، ويرغب في الانضمام حقاً إلى المجاهدين. تم ترتيب كل شيء بسريةٍ تامة، حتى إنه في الأسبوع الأخير أظهرَ وداً تِجاه والدته لمْ تألفه منه، وابتسم في وجه والده مرتين. كان يصلي في غرفته من دون انقطاع، مخففاً بذلك من حدة القرار وصعوبته.

حين لفظ (أبو خالد) كلمة الرقة، هدأ (عمر) كمن سُحِب منه تيار كهربائي بقوة مليون "فولت". لم تصدق أُذناه ما تفوه به الرجل الذي كانَ يضع يده على كتفه وهو يتحدث.

- سننطلق عند الفجر باتجاه الرقة. الطريق طويل وصعب، ولكن لنا وسائلنا، وسوف نصل إلى هناك في غضون يومين إن شاء الله. الإخوان بانتظاركم، وسوف توكلون مهامكم هناك بإذن الله. لدينا أربع ساعات قبل أن ننطلق. ارتاحوا قليلاً، وسوف آتي مع سيارتين لكي نتحرك قبل طلوع الشمس.

بعد أن غادر (أبو خالد)، رقد الجميع فوق أمتعتهم القليلة على أرض الغرفة محاولين النوم. بقي (عمر) صاحياً يتطلع من النافذة التي تطل على منحدر جبلي مظلم. شمَ رائحة الصنوبر القوية من دون أن يميزها. كانت حركة اللاجئين وأحاديثهم في الخارج تصل إليه. لم يفهم اللهجات السورية المحلية التي يتحدثون بها. وصلت إليه مثل أضغاث أحلام. حتى بكاء الأطفال كان مختلفاً، يرتجف من البرد والقلق.

كنت أقف إلى جانبه عندما كان يرنو إلى خارج النافذة يفكر. تطلعتُ إلى وجهه عن قرب، فرأيته مرهقاً وراء اللحية التي طالت. بدا أكبر سناً، أكثرَ سماراً ونحولاً. عرفت أنه يفكر بنصره الشخصي، وأحلامه التي يمهد لها من عمق هذا الجهاد المر! ما يحصل فوق قدرته على المحاكمة. لقد وصل إلى هنا عن طريق "التجنيد الناعم" عبر الإنترنت، حيث يسجل المجاهدون على هواتفهم النقالة الحلم الإسلامي بأبهى صوره، ثم يُحمِّلونه على مواقع التواصل لكي يراه الضعيف وقليل الثقة بالنفس، والمتطرف، والمراهق، والشبِق. (عمر) كان يجمع القليل من كل هذا، بالإضافة إلى حقدٍ فِكري على أمريكا الكافرة، زرعته والدته في قلبه عن سابق تصور وتصميم. النوايا الحسنة وطرق جهنم تملأ سوريا من أقصاها إلى أقصاها، يقع في فخها العابرون والمقيمون والحالمون، ورجالٌ ونساءٌ مِن دون قضية. يقع فيها مراهقون عديمو الخبرة، ومغامرون زادهم الخيال.

سأبقى معهُ إلى نهاية المطاف، لن أحرك ساكناً، ولن أقف في منعطفات الطريق التي سوف يعبر بها، فإذا كان يقرر مصيره من خلال اتكاله على الله، فأنا مثله أيضاً متكلةٌ عليه. سأنتظر و"أتفرج"!

* * *

بعدَ أن اجتازت السيارتان آخرَ حاجزٍ قبلَ الدخول إلى "ولاية الرقة"، اتجهتا إلى المعسكر الشرعي في ريفها. قالَ (أبو خالد) الذي رافق المجموعة طوال اليومين السابقين وكان مرشدها، أنهم سوف يمكثون في هذا المعسكر قرابة العشرة أيام لكي يتلقوا المزيد من

دروس العقيدة الإسلامية الصحيحة "التي تشوهت على يد الشيوخ السابقين"، كما أضاف. ردَ (عمر) أنهُ لا يحتاج إلى ذلك، فما تعلمه في معسكر غازي عنتاب التركي أكثر من كاف. نظر إليه (أبو خالد) نظرةً اخترقته مثل سهم مسموم، وقال بنبرة حادة، "سوف يوضع كل هذا على المحك، وسوف تجد أن ما ستتعلمه هنا لم يسبق لك أن سمعت به في أي مكان آخر. أنت في دولة الخلافة، يا رجل!". ارتعد (عمر). عرف أن طريق العودة كان يُمسحُ أثرهُ كُلما اقتربَ من الرقة. لم يعد الأمر مجرد انتظار أو مزحة، فها هو الآن يقف في قلب ما يحدث، وسوف يصبح قريباً جزءاً من صانعيه، ولو برمي قنبلة أو إطلاق رصاصة!

بعد أن تركوه يوماً كاملاً لكي ينام ويرتاح، انضم (عمر) إلى مجموعة صغيرة من الرجال يترأسهم "شيخ" ملتحٍ بلباسٍ إسلامي. ومن جديد، عادَ يستمعُ إلى الوعظِ المكثف عن كيفية أن تكونَ مسلماً صحيحاً من دون هرطقات أو مروق. عشرة أيام قضاها يدرس ويتعلم عن "العقيدة الوسيطة"، و"أصول التفسير"، و"أصول الفقه"، و"شرح الواجبات المتحتمات"، وكلها كتبٌ صادرة عن ديوان الدعوة والأوقاف والمساجد في ولاية الرقة، ثم كتبٌ أُخرى عن "السبي"، و"كشف الشبهات" للشيخ "محمد عبد الوهاب"، و"تجارة الجهاد" للشيخ "عمر عبد الرحمن"، ومجلدات وكتيبات أخرى بعناوين أنشف من رمل الصحراء. علموه أيضاً تراتبية السلطة الإسلامية في الولاية، وطريقة التعاطي مع مختلف الدواوين فيها، ودور كل منها في الحياة العامة. داخَ (عمر) من كثرة "التأديب" العقلي الذي خضعَ له.

أصبح رجلاً جديداً في الشكل والمضمون. طالت لحيته، وبان نحوله جلياً، وترك شعره من دون قص، بينما أخذ يلبس الزي الأفغاني وقبعة الباكول[40] الصوفية المسطحة التي جعلته يبدو من عصرٍ ومكان مختلفين. إن القبعات التي من دون حواف لا تعيق السجود، على عكس القبعات الأوروبية ذات الحواف والتي هي أيضاً لا تعيق صلاة المسيحي الذي يحني رأسه ولا يسجد. وهكذا، كل قبعة تحكي قصة الشعب الذي يعتمرها؛ أفكاره، مخاوفه، وأحلامه. منها ما كان تيجاناً لملوك حَكموا بهيبتها، ومنها ما كان من أجل حُسن طلة صاحبها، ومنها ما صُنع من أجل العبادة ولقاء الله، ولزوم الجهاد والغزو.

التقى (عمر) (بأبي عبد الله الحمصي) لدى المسؤول الأمني في مدينة الرقة بعد أن انتهى من تدريبه الشرعي. كان جالساً مثله ينتظر أن يُستدعى للمقابلة. تحدثا لمدة ساعة كاملة، تعارفا فيها وثرثرا، وكأنهما يعرفان بعضهما البعض منذ دهور. بُنيت الثقة بينهما من رجل لرجل من دون مقدمات. قال له (أبو عبد الله) إنه تدرب في معسكرات مدينة "أضنة" في تركيا قبل أن يعود إلى سوريا متسللاً. "التدريب في سوريا كان مستحيلاً بسبب الضربات التي كانت تأتينا من الطيران المحلق دون انقطاع فوقنا. بعد أن اندلعت الحرب، هربت إلى تركيا من أجل لقمة العيش والبحث عن عمل لأني فقدت كل ما أملك. كانت قريتي ساحة قتال مفتوحة، وحين غادرنا لم أكن أملك ما يكفي لعيش يوم واحد. في "أضنة" عِشتُ مع

(40) القبعة الأفغانية تسمى "باكول" .

قريبٍ لي كان مسؤولاً، كما عرفت لاحقاً، في "التنظيم" فجندني وأخذني إلى المعسكر من أجل التدريب. هناك، كان عملي إقناعَ المزيد من السوريين لكي ينضموا إلينا في تركيا. كنتُ جيداً في العمل على الكمبيوتر، فسهل هذا الأمر علي واستطعت تجنيد المئات. كنت ألتقي بالمنتسبين السوريين الجدد للتنظيم، فأعمل على تدريبهم ثم بعد ذلك نرسلهم إلى مدينة "أورفة"، ومن هناك إلى الرقة. في الرقة، إما يطلبون منهم المكوث، أو يوزعونهم على بقية المناطق في سوريا. أتمنى أن يجمعني الله أنا وأنت في نفس المكان". ابتسم (عمر) بحياء لأول مرة بعد أيام من التركيز والوجوم والدراسة، ثم تمتم بغبطة "إن شاء الله".

بعد أن التقى كل من (عمر) و(أبو عبد الله) مع المسؤول الأمني على حدة لمعرفة درجة تدربهم العسكري والحاجة إلى المزيد، اتُخذ القرار ببقائهما في المدينة، والاكتفاء بما تلقياه في معسكرات غازي عنتاب وأضنة. قال لهما إنهما سُيكلفان معاً بقيادة إحدى سيارات "الحِسبة" التي تجوب "مدينة الخلافة" بعدَ أن يملأ كل منهما استمارة المجاهد الخاصة به.

منذ هذه اللحظة، بدأت حياة جديدة (لعمر)، وكذلك لوالديه اللذين فقدا أثره ولم يعرفا في أية بقعة من سوريا هو. كانت كل اتصالاتهما وتحركاتهما تحت المراقبة، لدرجة أنهما كانا يلتقيان في الحدائق العامة أحياناً، والمقاهي الصاخبة لكي يتحدثا بحرية عن ولدهما. أنهكهما التحقيق الدوري معهما والمساءلة، فلم ينفع الاسم الأمريكي الذي نسبه (سمير الحوابشة) لنفسه، ولا حتى "البيبيون"

التي اشتهر بها. أما (نانسي) فقد ظهرت بوجهها الوطني الحاد، فأخذت تضع في حديقة المنزل وحول سورها أعلاماً أمريكية صغيرة، عامدة بذلك إبداء هويتها الصافية من دون أي لبس، وهي عادة لدى البعض هنا ممن يريدون التشديد على انتمائهم وحبهم لأمريكا. مع ذلك، فُتح باب وظيفي جديد (لسام) فوق أنقاض كل ما يحدث، لتكتمل زاوية جديدة من هذه اللوحة السريالية العجيبة. ففي اليوم التالي لوصول (عمر) إلى الرقة، كان (سام) في مكتبه يعمل بصمت في ساعة مبكرة من الصباح حين سمع جلبة في بهو المركز جعلته يخرج من غرفته مسرعاً. كان اثنان من رجال الشرطة يرافقان (فاضل) بوجهه المذهول، وعينيه التي بدا عليهما الضياع الكامل. استلمت (كاثي) (فاضل) من يد أحد الشرطيين المسلحين. وقعت على أوراق كانت بحوزتهما بعد أن سمعت مذهولةً قصة عثورهما عليه ضائعاً في شارع منزله. شكرتهما ثم قادت مديرها كطفلٍ صغير إلى غرفة مكتبه.

في صباح ذلك اليوم، خرج (فاضل) من المبنى الذي يَقطن فيه متجهاً إلى المركز، ما إن جلس في سيارته حتى نسي فجأة المكان المتجه إليه، بل نسي حتى شكل الشارع الذي يعيش فيه منذ سنوات طويلة. نزل من سيارته وأخذ يدور في مكانه ويسأل المارة عن المكان الموجود فيه ، وكيف يعود إلى منزله. في اللحظة نفسها، مرَّ جارٌ لهُ مقيم في نفس المبنى. تعرف عليه واتصل بالشرطة في الحال، مقدماً لهم كل ما يعرفه عنه، وهكذا سهل عليهم الوصول إلى عنوان المركز وتسليم (فاضل) لموظفيه.

(لم أكن في المركز ذلك الصباح حين وقعت هذه الحادثة. عرفت بها لاحقاً من (سام) و(كاثي) حالما وصلت. كانا شديدي الاضطراب والأسف وهما يسردان ما حدث. لقد تركا (فاضل) في غرفة مكتبه مع اختصاصي لكي يقرر حالته، لكن (سام) أسرع بالقول إن هذه عوارض مبكرة لمرض "الزهايمر"[41]، ورُبما تكون المرحلة الثانية منه. الرجل ما زال في منتصف الستين، لكن ذاكرته فاضت إلى ما فوق طاقتها بعد أن أنهكها بالشراب والشعر والصلاة والذكريات التي لا طائل منها. خطفتني هذه الأخبار مِن السماءِ السابعة التي كنت أحلقُ بها بعيداً. فبعد أن توجهت أنا و(مارك) إلى منزله، أغلقتُ الباب ورائي على حقبةٍ نفسية طويلة لم أشأ أن أبرحها وأنا في سوريا. مُجرد قبولي الذهاب كان خرقاً للعادة بالنسبة لي، وخطوة "ثورية" رأيت نفسي أقوم بها بكل يسر وسهولة. ساعدني على ذلك فرحُ (مارك)، وعدم تصنيفه لي في أية خانة من الخانات التي تصنف بها النساء عادة في بلدنا، وذلك عند أول "زلّة" غير مقصودة. حين فتح لي باب منزله، شعرت أنني ادخل إلى بيتي بعد طول غياب. أحسستُ براحةٍ قصوى، وهدوء داخلي لم أعرفه من قبل. ما إن صعدنا الدرجتين المفضيتين إلى غرفة الجلوس، حتى طلب مني أن أدخل إلى المطبخ و أحضر لنا كوبين من الزهورات

(41) **مرض الزهايمر**: هو داء يصيب المخ ويتطور ليفقد الإنسان ذاكرته وقدرته على التركيز والتعلم، وقد يتطور ليحدث تغييرات في شخصية المريض فيصبح أكثر عصبية أو قد يصاب بالهلوسة أو بحالة من حالات الجنون المؤقت. تتضمن أعراضه، مشاكل في اللغة، والتوهان (بما في ذلك الضياع بسهولة)، وتقلب المزاج، وفقدان الدافع، وفقدان القدرة على الاعتناء بالنفس، ومشاكل سلوكية أخرى.

الشامية. قال لي إن شقيقته في اللاذقية ترسلها له مع أي قادم، وترسل معها أيضا الزعتر والفريكة، رغم إصراره على أنها موجودة هنا في المحلات العربية. المطبخ يشبهني، ألوانه وطريقة ترتيبه. من دون شك، (مارك) رجل منظم ونظيف. إذ لم أشعر أن المكان يعاني من فوضوية غياب المرأة. حين جلبت الكوبين، كان جالساً في غرفة تطل على الشرفة ينتظرني. أربكتني نظرات الراحة في عينيه، كأنه كان يقول لي هذا المكان لك، تمددي فيه وصولي وجولي. جلست في المقعد المقابل له وبدأنا بشرب الزهورات الساخنة على مهل. لم يطلب مني أن أجلس بالقرب منه، كما لم يعمد إلى ترك فترات من الصمت المربك، وإنما كان يملأ أي صمت بالكلام الودود الطبيعي. كأنه بدا لي كاملاً، أم هو الحب، والله أعلم؟ في الساعات التالية، كان (مارك) قد أراني كامل منزله زاوية زاوية، ومكتبته رفاً رفاً، وجدرانه لوحة لوحة، مستفيضاً في الشرح والحديث، ومبتسماً بسهولة لدى أي تعليق أو ملاحظة مني. ما أجمل صداقة هذا الرجل. إنني قادرةٌ على التريض معه ساعات في الجبال المشجرة، والتحدث معه ساعات في المكتبات العامة والمقاهي الصغيرة، أو حتى السفر برفقته ساعات في سيارة من دون مكيف في عز الصيف. الحياة حلوة معه وتجري مثل الماء النازل من قلب الجروف الصخرية العالية.

حين قاربت الساعة على التاسعة مساءً، فتح ستائر الواجهة الرئيسية في صالون منزله على آخرها فظهرت البيوت البعيدة فوق التلال متلألئة الأضواء. اقترب مني وقال: تطلعي إلى هناك، إلى

هذه الجهة، هل ترين هذا الخط من الأضواء الحمراء؟ هناك يوجد مطعم لا يغلق أبوابه إلا لساعة متأخرة من الليل، هيا بنا، سوف نتعشى عشاءً "مطنطناً"[42]، وبعدها سأوصلك إلى المنزل. يطير الوقت سريعاً مع (مارك) مثل عصفور يحلق بحرية في سماء صافية زرقاء، بينما أنا جالسة بخفة على أحد جناحيه الممدودتين. ضحكنا كثيراً خلال العشاء لدرجة الاختناق. لم تبق نكتة قديمة إلا وأعدنا تذكرها. أخبرني نكتاً عن التنابل كنا نتداولها في سوريا في منتصف الثمانينيات، وأخبرته نكتاً عن الفيل والنملة. ضحكنا وكأن العالم سكنَ حولنا واختفت مشاكله. ساعات جميلة فالتة من هذا الجحيم السوري الذي كان يحيط بنا مثل لهب مشتعل من كل الجهات.

أمام باب المبنى الذي أقطن فيه، تمنى لي ليلة سعيدة ثم احتضنني بقوة وقبّلني بشغف فيه صبر كل الساعات الثمانية الماضية التي قضيناها معاً ثم رحل. العالم لن يبقى كما هو من الآن وصاعداً. لقد عثرت على ضالتي وانتهى الأمر).

(42) كلمة عامية تستعمل لدى أهل الساحل لتعني عظيماً أو فخماً.

الزهايمـر

في مشفى "باركفيو" في مدينة "ريفرسايد"، خضعَ (فاضل) إلى فحوصاتٍ طبية شاملة. كانت (أميرة) و(كاثي) ترافقانه وكذلك (سام). ما حدث لم يكن متوقعاً. أتى كل هذا في منتصف تغيرات طرأت على حياة الجميع من دون استثناء، ما عدا (حمد) الذي كان يحلق في أفق آخر مع "صديقه" الأمريكي الذي أتى معه في وقت متأخر، بعد أن قام (سام) بالاتصال به حال وصوله إلى المشفى. بعد ساعات طويلة من الانتظار، تحدث طبيب (فاضل) إلى الجميع بعد أن تحلقوا حوله في نصف دائرة. قال إن الرجل بحاجة إلى عناية حقيقية من الآن وصاعداً، وإن إصابته بالزهايمر مؤكدة. سوف يحتاج إلى مرافق دائم في منزله لكي يتدبر أموره الشخصية، كما سيكون صعباً عليه أن يقوم بأي واجبات وظيفية هامة بعد الآن.

لم يكن (فاضل) يتحدث أمامنا عن أي من أفراد عائلته في العراق، بل حتى لم يكن يذكرهم ولو بشكل عابر ضمن أي سياق كلام. كأنه كان عائلة بذاته ولذاته. حتى حين كان يكثر من الشراب، كان يكتفي بالشعر القديم أو المواويل التي كان بعضها ربما

من تأليفه، حيث يتحدث فيها عن أرض بعيدة ما زالت تنبض "في حشا القلب"، كما يقول، ثم يذرف دمعتين ويغير الحديث. أصبحنا فجأة، أنا و(كاثي) و(سام) و(حمد)، كل ما لديه. تناوبنا عليه في المشفى لمدة ثلاثة أيام، ثم انتقل إلى منزله حيث كلفت سيدة تعنى بكبار السن بالمكوث عنده، والقيام بكل واجباته. كان صعباً جداً عليه أن يفهم هذا التغيير المفاجئ في حياته. بين ليلةٍ وضحاها، تحول إلى طفلٍ عاجزٍ نزق وعصبي، تعوزه اللغة، وتستعصي عليه الذاكرة، مُنهِكاً مُحدثه بسبب تكرار الأسئلة نفسها، والكلمات ذاتها عشرات المرات أحياناً في الساعة الواحدة. كان يبكي على كتفي وكتف (سام) كلما التقانا مردداً "ماذا حدث لي! لماذا أتناول كل هذه الأدوية؟ هل أتى ابني؟". لم نعرف بماذا نرد، و إنما نكتفي بالقول إن الطبيب يعتقد أن هناك مشكلةً بسيطة في الذاكرة، وسوف تصبح أفضل عندما تخلد للراحة.

لم يأت هذا المرض من غامض علمه أو بغمضة عين، وإنما لاحت عوارضه في الأفق، وكنا قد ظننا خطأ أن ذلك من صلب شخصية (فاضل). فبعد أن قرر أن "يدمج" بين شخصيتيه السرية والعلنية، وأن يصبح واحداً، ظهر عليه فجأة تعب كبير. كان يقضي ساعات في مكتبه من دون أن يشعر بمرور الوقت، يشرب خلالها من دون تفكير، ثم يفرد "المصلاية" على مكتبه فوق الملفات والأوراق، ويتربع فوقها من دون أن يعرف ماذا يفعل، ليقوم ثانية بطويها جانباً. حتى عندما كنا نفاجئه وهو في مثل هذه الوضعيات الغريبة، كان لا يبدي أي اكتراث. هذه الحوادث المتباعدة، لم نستطع

أن نفصلها عن غرابة سلوك (فاضل) بالعموم، ولم نكن ننتبه إلى أن هناك مرضاً كان يتهيأ فوق خلايا دماغه المتآكلة.

في اليوم التالي لعودته إلى منزله برفقة مساعدته الشخصية، طلب (حمد) من جميع باحثي وموظفي المركز الاجتماع به في مكتبه. كان التأثر بادياً عليه وهو يبدأ حديثه الذي كنا نعرف مقدماً فحواه. لقد أراد أن يقرر مديراً جديداً للمركز في ضوء ما حدث (لفاضل). قال إنه سوف يتكفل بعلاجه والعناية به وهو في منزله، وأنه سوف يعمل على أن يعثر على أقرباء له في أمريكا أو العراق، لكي لا يموت الرجل وحيداً في الغربة. بعد ذلك، انتقل بسرعة إلى الموضوع الذي يشغل باله؛ المدير الجديد الذي سوف يحل مكانه. من دون أي استشارات جانبية أو تصويت ديمقراطي، اقترح (حمد) تكليف (سام) بهذه المهمة بسبب السنوات الطويلة التي قضاها فيه، وبسبب نشاطه ومصداقية أبحاثه، والعلاقات العامة الواسعة التي يملكها الرجل في أمريكا وفي بعض الدول العربية، كما ذكر في خطابه أمام الجميع. لم نفاجأ بالطريقة، كما لم يعترض أحد على (سام). انتهى الاجتماع بعد نصف ساعة بتكليف رسمي، ختمه (حمد) بكلمة جعلت (سام) يشد قبضته، ويعض على طرف شفته حنقاً، "الآن أشعر بالارتياح بالنسبة لمستقبل المركز. أعرف والله إنه بأيد أمينة، أيدي صديقنا الدكتور (سام موريسون)، أبو البطل، الذي سوف يرفع لنا رؤوسنا جميعاً بإذن الله".

شعرت بغضب (سام) المكبوت حين تفوه (حمد) بعبارة "أبو البطل". كأنه لا يريد لأحد أن يلصق به هذه التهمة. قال لي حين

انفردنا في غرفة مكتبي، إنه شعرَ برغبةٍ قوية في لكم (حمد) على وجهه، وتمريغ رأسه في الأرض. قال إنه بريء مما فعل ابنه ولا يوافق عليه، "حتى (هداية) زوجتي تعلمت درسها وندمت وفهمت إن هذا خطأ كبير في تفسير الدين". أُعجبت بحميةِ (سام) وشجاعته خصوصاً حين بدأ يشرح سياسة المركز الجديدة حالما يجلس على كرسي الرئيس. "سوف أفتح الباب على مصراعيه لرؤية واقعية لما يحدث في الشرق الأوسط وسوريا تحديداً. سوف لن نختبئ بعد اليوم وراء هذا الغربال التافه ذي الثقوب الكبيرة. لقد بانت عوراتنا كاملة للآخرين من دون انتباه منا، حتى لم يبق اسم مشين إلا وأطلقوه علينا، العرب الطائفيين، العرب الكذبة، العرب الأغبياء، العرب التافهين، العرب غير المنتجين، العرب القتلة، العرب المتعصبين. تعبت من كل هذا، وتعبت الدنيا معنا!"

في اليوم التالي، وصل (سام) إلى المركز من دون "ببيون". دخل إلى غرفة الرئيس التي أصبحت غرفته، وأخذ ينظف المكان بيديه. رمى زجاجات الويسكي المخبأة تحت طاولة المكتب، واستبدلها بزجاجة واحدة ضخمة من الكونياك المعتق، وترك باب غرفته مفتوحاً من دون مواربة، بعد أن طلب من (كاثي) أن تتعاقد مع مقاول لكي يستبدل جدران المكاتب المطلة على البهو بأخرى زجاجية لزوم الشفافية. أما سجادة الصلاة خاصة (فاضل)، فقد وضعها في كيس بلاستيكي وطلب من موظف الاستقبال أن يرسلها له إلى المنزل.

خلال ساعات قليلة، تغيرت سحنة مكتبه وامتلأ بباقات الورود

والبالونات الملونة التي كانت ترد من أصدقاء ومعارف ومؤسسات. حتى (كاثي) جلبت معها "بقلاوة" من "السوبر ماركت الأرمني" القريب من بيتها، وأخذت تدور بها، على الطريقة العربية، على الجميع في مكاتبهم بابتسامتها العريضة. مع هذا التغيير، تنفس المكان بأسره من جديد، ولاح في الأفق أمل صغير.

بعد أن هدأت كل هذه الجلبة، طلبت إذناً لكي أرى (سام) قبل أن أغادر. كان منكباً على ترتيب ملفات الجوارير والرفوف وراء كرسيه حين دخلت. لم يتطلع إلي، وإنما أكمل عمله مقلباً في الأوراق التي بين يديه، بينما كان وجهه مواجهاً للمكتبة الجدارية. قال لي من دون مقدمات:

- أنا موافق.

- على ماذا؟ هل تعرف ماذا أريد!

- نعم أعرف! جامعة دمشق. أليس كذلك؟

- نعم! صحيح! هل..

استدار وقال:

- يا (أميرة)، لك مُطلق الحرية بالتعاون مع جامعة دمشق، جامعتنا معاً. افتحي خطاً تواصلياً معهم. آن لنا أن نعود!

تنفست الصعداء وكأن حجراً ثقيلاً أُزيح عن صدري. ها هي الأمور تأخذ مسارها الصحيح ولو قليلاً، إن كان في الوطن أو هنا. التغيير لن يأتي بسرعة الضوء، وإنما على مهل وبثبات، معبراً عن كل هذه الصراعات التي عشناها ونعيشها).

باتجاه جبال «سان برنادينو»

كان (مارك) بانتظار (أميرة) كعادته خارج المركز بسيارته السوداء العالية. رآها سعيدة أكثر من المعتاد. فرح للبريق الطفولي في عينيها واللهفة التي تخبئها تحت وقار مفتعل. بعد سنوات الغربة الطويلة، وتجاربه مع نساء غربيات، أصبح يعرف حالما يرى امرأة عربية كيف تحاول أن تتماسك برصانة قد لا تكون دائماً متأصلة في طبيعتها. لقد عرف نساء أمريكيات أكثر أريحية واستقلالية، وهذه الصفة الأخيرة هي التي تصيبه في مقتل، لأنها كانت تشعره بندية لا يحبها ولم يعتد عليها. أما (أميرة)، فبدت مختلفة حين كانت تلمح عن رغبتها في أن تكون "ملحقة" به عن سابق تصور وتصميم، لا كجارية وإنما كحبيبة، وذلك بكل ما تملك من معرفة وثقافة. وهذا تماماً ما أحبه فيها، وما افتقده في بعض نساء "ذاك البلد" اللواتي جننتهن الحرية، كما يقول دائماً، وجعلتهن مماحكات، ومتحصنات بحقوقهن إلى ما فوق قدرة طبيعتهن أحياناً على التعاطي مع هذه الحقوق. أما أغلب العربيات، وذلك على عكس ما يُقال، فيتعبهن الاستقلال، معتقدات أنه يعرضهن إلى ما لا يتوقعن وما لا يقدرن عليه. لقد هلكت المجتمعات المدنية العربية الجديدة تركيبة هؤلاء

المسكينات، فكن يلذن بالتبعية مرغمات وأحياناً سعيدات، بكل ما يترتب عليها من نتائج. المجتمع المفتوح، المليء برجال متطلبين بربطات عنق، والمدن الكبرى التي تعج بالحافلات والجدران التي كتب فوقها شعارات سياسية ودينية، والتي تفيض بالمجاملات والدخان، كلها تبلبل بصمت هذا الكسل الأنثوي لدى بعضهن وذلك الميل الدفين الخفي لحياة الحريم، حيث الاستلقاء الحر وسط صخب الأطفال والنساء. أما في أمريكا، فالنظام الاقتصادي يجبرهن على النهوض صباحاً والذهاب إلى العمل، وإلا فإن مصيرهن الشارع. لا حرملك في أمريكا، لا خادمات يرحن ويجئن في المنازل إلا المستأجرات لساعات قليلة، لا رفاهية الانتظار إلا لتلك التي ورثت ثروة عائلتها أو تراكمت لديها الأموال نتيجة العمل الطويل المُضني. نساؤهم مرهقات مثل نسائنا، وإن اختلفت الأسباب. عالم لا يرحم، جَعل العثور على الشريك الحقيقي مثل الحرث في الماء؛ صعب وغير مجد. لهذا حين رأى (مارك) (أميرة) تتحدث، عرف بحدسه إنها هي؛ الإبرة التي عثر عليها في كومة القش العالية. أُعجب بنبرة صوتها التي جعلتها الحرب أقوى وأكثر حكمة. النساء يتغيرن خلال الحروب. فتركيبتهن التي تميل للسلام تجد صعوبة في تصديق وفهم ما يحدث، لكن ما إن تضع الحروب أوزارها فإنهن يُستبعدن عن أي مفاوضات للسلام! الحرب يقوم بها الرجال وكذلك السلام، أما النساء، إلا إذا كن قائدات وفوق سُدة السلطة، فإن أدوارهن تزدهر في قاع المجتمع حيث هُنّ رجال ونساء في آن، وذلك متى تركن وحيدات بعد أن يستشهد رجالهن أو يحملوا السلاح من أجل القتال

ويرحلوا. المرأة تجاهد بالأرواح السبع التي تقطنها من أجل أن تجعل من تحبهم سعداء ومحميين. ليس السلاح في يد زوجها من يبني بيتها، إلا إذا كان دفاعاً عن هذا البيت، وإنما هي.

(حين جلست بالقرب من (مارك)، شعرت بارتباكه وابتسامته التي تخفي في طياتها فكراً ما. خفتُ أن يكون السبب قبولي الذهاب معه البارحة إلى منزله. ذهب تفكيري إلى أشياء كثيرة وأنا أتطلع إليه بطرف عيني. كان يتحدث من دون تركيز، بينما كان يتحسس جيب سترته كل قليل، وهو منطلق بنا إلى "جبال سان برنادينو"[43] حيث منطقة "أروهيد"[44] التي ترتفع أكثر من ألفي متر عن سطح البحر. أمسك يدي، شدّ عليها وسألني كيف كان نهاري. أخبرته بالتغييرات التي حصلت، لكن رده أتى مشتتاً وابتسامته فاقدة لتركيزها، بينما كان يدعس على مكبح السرعة أكثر فأكثر كلما ازداد صعود الطريق الجبلي المتعرج. وفجأة، مالَ بالسيارة إلى جانب الطريق، وأطفأ المحرك. وقبل أن أستفسر منه عما يحدث، أخرج علبة صغيرة من المخمل الكحلي من جيبه على عجل، وقدمها لي.

- هذه لك. افتحيها.

- لي؟

- افتحيها!)

كان في العلبة خاتم بلاتيني ترتاح فوقه ماسة صغيرة مبهرة.

---

(43) **جبال سان برنادينو**: جبال عالية تقع جنوب ولاية كاليفورنيا الأمريكية. ينتشر في هذه الجبال العديد من المنتجعات.

(44) **منطقة أروهيد**: منطقة في جبال برنادينو. فيها بحيرة تقع في قلب غابات هذه الجبال. تعتبر منتجعاً شتوياً وصيفياً. عُرفت بجمالها وشاليهاتها الجميلة المبنية على الطراز السويسري.

خفق قلبي بشدة وأنا أنتظر جواب (أميرة). أردتها أن ترغب بقوة في الارتباط (بمارك). لا أريدها أن تفكر بالنتائج، ولا بالوسائل، ولا حتى في يوم غد. أردتها أن توافق، لأن في موافقتها تطويع لهذه القوانين التي قصمت ظهورنا جميعاً. أردتها أن تقول نعم، لتكسر إرهاباً مجتمعياً طال. يجب ألا يكون الحب وحده هو الدافع لارتباط امرأة ورجل، وإنما "الموقف" أيضاً. ليكن الأمر هكذا، هكذا تماماً، وليس بهيمياً غرائزياً غبياً. لتكن كل حادثة ارتباط فريدة من نوعها. لتكن هكذا! قولي نعم يا (أميرة). غيرك قالها من قبل كثيراً ربما بدافع الحب وليس الموقف، وهكذا فإن التغيير لم يحدث مع ذلك. قولي نعم من أجل الموقف، وفي هذا التوقيت بالذات، وكوني مع أولئك في الضفة الأخرى، وردي على هذه الحرب الحقيرة التي اخترقت عقولاً تافهة واعتاشت بسببها، ردي عليها ولو بموقف "كبير" مثل هذا!

(- نعم.

- يا الله! أنا أسعد رجل في هذا العالم.

تنفس (مارك) الصعداء واحتضنني بكل قوة بابتسامة عريضة.

- ليكن زواجاً مدنياً لا دينياً! ما رأيك!

- كم "نعم" تريد أن تحصل عليها الليلة؟

ضحك (مارك) ضحكةً عاليةً صاخبةً فيها كل فرح الدنيا واحتضنني مرة ثانية.

- يا الله! سأحسب عمري من الآن. من هذه اللحظة المباركة.

- لنحسبه معاً... وسوريا هي الشاهدة على هذا الزواج).

* * *

في مساء تلك الليلة، كان (إنعام زين الدين) يقرأ في الغرفة التي يحتفظ فيها بأغراض زوجته على ضوء شمعة قلقة، بينما غطتْ (أم علاء) في سبات عميق في غرفتها جانب السلم المفضي إلى الغرف الفوقانية، وسادَ صمت روتيني في البيت الكبير، حين رنَ هاتف (إنعام) الخليوي وأضاء عتمة غرفته. من لوس أنجلس، المدينة المتضخمة بذنوبها وجناتها، امتدت إصبع (أميرة) لتعبث في مياه القيمرية الراكدة، ولتضخ في سواقيها الصغيرة ماءً صافياً نقياً. نبرة صوتها قالت كل شيء. عرف (إنعام) أن العلاقة أخذت مساراً جدياً. ها هو امتحان جديد آخر لمبادئه. هو الآخر، أريده أن يقول نعم. موافقته أكبر قيمة وأهم. إنها موافقة الأجيال التي اختمرت بتجارب الحياة وعرفت الصح من الخطأ. صحيح إنَ الشِعر نما فوق هذا القسم الحالم من شخصيته، لكن مبادئه الأخرى كانت كافية لتبقي قدميه على أرض الواقع الصلب. والواقع يقول له، كما أخبر (أميرة) بصوت خائف، أن الزواج بين الأديان المختلفة يبدأ جميلاً لينتهي مليئاً بالصراعات بسبب تضارب العادات والتقاليد لدى كل منهما، ولاحقاً بسبب الشعور بالذنب الذي يبدأ بالتنامي لدى الطرف الذي عليه أن يغير دينه لكي يجعل هذه المعادلة مقبولة. قال لها إنه لن يعترض، ولكن عليها أن تفهم ما ينتظرها، "مع ذلك، خوضي هذه التجربة، واجعليها تنجح بكل ما لديك من قدرة وحب. الزواج المدني هو الوسيلة الوحيدة لأمثالكم". تنفست الصعداء وأنا أصغي إلى (إنعام) يتحدث إلى ابنته وهو على كرسيه المتحرك. شعرت بالفخر. يا الله، ماذا تنفع القدمان حين يكون الرأس معادياً للدنيا ومعاقاً!

أصبح كل شيء جاهزاً للحظة الصفر، على الرغم من اعتراض شقيقتيّ (مارك) وحذرهما. حاول طمأنتهما باتصالات متكررة خلال يوم كامل، إلى أن استسلمتا على مضض. قال (لأميرة): "إنني أتفهم قلقهما. هما طيبتان جداً وسوف يحبانك كثيراً. يكفي أنك من لحمي ودمي".

(حكى لي (مارك) عن حياته في اللاذقية قبل أن يسافر إلى أمريكا. عن والديه وشقيقتيه، عن الكنيسة المجاورة للمنزل والتي كانت العائلة تحضر فيها قداس الأحد، عن الزواريب الضيقة الخلفية التي تصل مدرسته بمنزل جديه في "الحارة الفوقانية"[45]، والتي طالما مشى فيها وهو يشم رائحة الفطائر التي كانت تخبزها جدته وتوزع منها على الجيران، عن صديقات والدته التي كان يظن لفترة طويلة أنهن شقيقاتها، ومداعباتهن له باسم "ماركو"، وقبلاتهن الملوثة بأحمر الشفاه القاني الذي كان يعاني من إزالته دون أن يفلح تماماً، عن تلفون البيت الضخم الأسود والقديم ورقمه الرباعي الذي ما زال يذكره إلى تلك اللحظة، عن رحلة العائلة لزيارة مقام السيدة العذراء في قرية "الجوزية"[46] والتي تبعد أقل من عشرين كيلو متراً عن اللاذقية، عن الاحتفال بالميلاد والقديسة "بربارة" وتوزيع صحون "الحبوبية"[47] التي تفوح منها رائحة الشمرا واليانسون على الأهل

(45) **الحارة الفوقانية**: وهي من أقدم الحارات في مدينة اللاذقية. عرفت بهذا الاسم خلال القرن الماضي. تقع اليوم في منطقة القلعة في وسط المدينة، لكن سحنتها قد تغيرت بعد ان ارتفع حولها الكثير من البناء الجديد.

(46) **قرية الجوزية**: تقع على بعد 18 كم من مدينة اللاذقية. فيها مقام عجائبي للسيدة العذراء، يُؤم من قبل المؤمنين من كافة الطوائف.

(47) **الحبوبية**: أكلة تصنع من حبوب القمح ودبس الخرنوب واليانسون. تحضر من قبل العائلات المسيحية بمناسبة عيد القديسة بربارة.

والأصحاب، عن "حرب تشرين"[48] والطائرات التي اخترقت جدار الصوت لأول مرة في سوريا، عن دموع والده كلما سمع "أم كلثوم" تغني "أصبح عندي الآن بندقية، إلى فلسطين خذوني معكم"[49]، ودموع والدته التي كانت تذرفها في المطبخ وهي تحرك "الشيشبرك"[50]، بينما يغني "عبد الحليم" من راديو الصالون "أي دمعة حزن لا"[51]، عن أفلام الأطفال الروسية التي كانت تعرضها سينما "الكندي"[52] كل صباح جمعة، والتي كان يحضرها مع شقيقتيه وأولاد عمه، عن بقائه متأخراً في المدرسة لما بعد الدوام بساعات لكي يلعب مع رفاقه بالكرة، ليعود بعدها إلى المنزل مثل المشردين، كما كانت تقول له والدته، عن العطلة الصيفية في منتجع "أفاميا"[53]، في منتصف السبعينيات، والذي كان مشهوراً بفيلاته الصغيرة وخيمه الأنيقة وحياة مرتاديه التي كانت تتجاهل تقاليد البلد من دون أن يعترض عليهم أحد، عن يد والده الملوحة له في مطار

---

(48) **حرب تشرين**: وهي الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة، 1973، التي شنتها كل من مصر وسوريا على الجيش الإسرائيلي المحتل لسيناء وهضبة الجولان.

(49) "**أصبح عندي الآن بندقية":** أغنية للسيدة أم كلثوم. كتب كلماتها الشاعر نزار قباني تحية منه للكفاح الفلسطيني عام 1968، ولحنها محمد عبد الوهاب. غنتها أم كلثوم عام 1969.

(50) **الشيشبرك**: طعام شعبي في بلاد الشام، وهو عبارة عن عجين محشي باللحم والبصل، ومطبوخ باللبن.

(51) "**أي دمعة حزن لا** ": أغنية لعبد الحليم حافظ. كلمات الشاعر محمد حمزة وألحان بليغ حمدي.

(52) **سينما الكندي**: وهي موجودة في مدينة اللاذقية وقد تم بناؤها عام 1955 من قبل شركة فرنسية. في فترة الثمانينيات كانت تعرض أفلاماً روسية للأطفال في الفترات الصباحية أيام العطل.

(53) **منتجع أفاميا**: من أجمل المنتجعات البحرية في مدينة اللاذقية في فترة السبعينيات. عرف بجمال شاطئه الذي توزعت حوله الخيم الجميلة والشاليهات.

دمشق، وهو يغادر بحقيبتين، واحدة للمونة وأخرى فيها من الملابس الداخلية الجديدة ما يكفي لثلاثة طلاب معاً، عن الدنيا حين كانت متسامحة وبسيطة، ومن دون الكثير من النوايا العاطلة. أحضر (مارك) مدينته أمامي بكلمتين؛ سوريا الساحلية التي طالما اعتبرناها، نحن الدمشقيين، أكثر انفتاحاً ودعة للعيش، فما بالك بحياة المسيحيين فيها! أما أنا، فقدمت له دمشق مختزلة في القيمرية على طبق من ذهب. خلطنا كل ما لدينا في وعاء واحد ثم سكبنا الخليط حولنا، وصنعنا منه سياجاً متيناً وحددنا موعد الزواج، تاركين وراءنا شياطين الغبرة التي ما زالت تسعى إلى تفعيل عصاها السحرية فوق سوريا من دون جدوى).

صندوق الفرجة

لم يرَ (عمر) مدينة جهادية من قبل ولم يعش في واحدة. في لوس أنجلس، حيث ترعرع، كان يتعايش أكثر من مئتي إثنية تحت راية العلم الأمريكي وقوانين البلد المدنية. أما في الرقة، فالناس تموت من الخوف قبل ذبحها. مع ذلك، فليست لوس أنجلس أفضل حيث الموت يكون فيها أيضاً من الخوف، لا بسبب من نكران الآخر لك وتكفيرك والتواطؤ على قتلك وإنما بسبب قمع "نظامها" ذاته لأي محاولة لتغييره. فكما أن بعض الكتب تدعي أنها تحتكر الحقيقة، كذلك أي "نهج" قد يدعي هو الآخر أنه يحتكرها، مهما رُصف بالنوايا الحسنة، وهذه طبيعة الأشياء. لم يتسنّ (لعمر) أن يصل إلى قاع هذا البعد الرمزي لفهم ما يحدث حوله. رأى في أمريكا قامعاً لإيمانه كمسلم كما يريد ويشتهي أن يمارسه بتطرف. لقد بنى بينه وبين الإثنيات الأخرى جداراً من الكياسة الكاذبة والرفض الصامت. أن يولد في أمريكا، أمر لم يغير كثيراً من موقفه، إذ بقي وفياً لما تعلمه من والدته، مثله مثل "سيد قطب" الذي درس في أمريكا وعاد منها مسلماً متشدداً لم يهدأ إلا بعد أن قلب الدنيا حوله رأساً على عقب. كان التعب قد أخذ يَدقُ على رأس (عمر) بمطارقه. أنهكته

ازدواجيه حياته. أتعبته حياة سرية، وأخرى علنية كافرة أجبر عليها، كما كان يقول.

في الرقة، وصل إلى نهاية المطاف. أخيراً، سوف ترسو مراكبه فوق بحيرة التدين الساكنة، وسوف يغوص عميقاً في رحمة الله الذي لا إله إلا هو، وحوله إخوان له يشبهونه في العقيدة والأحلام. لا نساء سافرات، لا أصدقاء يتباهون بميولهم الوثنية في الأعياد، لا مشاهد لسُكارى أو لمحلات بيع الخمور على كل ناصية، لا صلبان مشرئبة على قبب الكنائس في كل شارع وزقاق تستفز غير المسيحيين، لا شيء من هذا، وإنما "جنةٌ إسلامية" بكل ما تحمله الكلمة من معنى. إذن، فليركع ركعتين قبل أن ينطلق في أولى مهامه مع صديقه (أبو عبد الله) على إحدى سيارات "الحِسبة" التي سوف تجوب كل شوارع وأزقة المدينة، مُقتَفين آثار الخروج عن الصراط المستقيم أياً كان هذا الخروج صغيراً أو عابراً. فليركع ركعتين لربِ العالمين الذي مَنَّ عليه بالوصول الآمن إلى نهاية المطاف، وأكرمه بشهادة محتملة في ساحة الجهاد وليس فوق سرير منزله في لوس أنجلس الذي اشتراه والده من محلات "آيكيا" الضخمة للمفروشات!

من وراء زجاج سيارة "هوندا ستيشن"، رأى (عمر) بانوراما النسخة "المحسنة" من الإسلام. زالت السِحنة السورية المعاصرة للمدينة في ظل حزب البعث الحاكم، واستبدلت بأخرى مقطعة الأوصال في ظل الأحزاب الجهادية وهي في أوج جماح خيالها. توقفت المصارف عن العمل، وتم إقفال المدارس، ولم يبقَ في المدينة

سوى الدكاكين والمحلات التجارية. لقد فتح "الدعويون" مُخيمات شرعية لليافعين الذين كانوا بالمئات وذلك في الريف الغربي لمدينة "الطبقة". لم يوفروا أمراً إلا وقاموا به من أجل تدريب هؤلاء الأطفال. كانوا يخطفونهم من دون موافقة عائلاتهم ويلحقونهم بمعسكرات شرعية وأخرى تدريبية لمن تجاوز فيهم السادسة عشرة. رآهم يسبحون في نهر الفرات مع مرشديهم الملتحين ويتراشقون بالمياه ويتضاحكون أمام عدسات الصحفيين الغربيين الذين أتوا يتفرجون على المدينة كمن يتأمل في متحف قديم، أو يعاين حيواناً مفترساً من وراء قضبان قفصه. أما في خيم التدريب المنهك، فيحولونهم إلى حاقدين جهاديين في هدأة ليل طويل لا ينتهي. لم يكتفوا بهذا، قال له (أبو عبد الله) وهم يجوبون المدينة بسرعة معتدلة، وإنما يدفعون رواتب لعائلاتهم "مكافأة" على السماح لأطفالهم بالانضمام للتنظيم. كان يحدثه بعيون دامعة وتأثر كبير، ثم أضاف أن أغلب الذين يفجرون أنفسهم هم من اليافعين الذين تدربوا في هذه المخيمات. بالكاد استطاع (أبو عبد الله) أن يكمل الجملة الأخيرة، إذ فاضت عيناه بدمع غزير ومال بسيارة "الحسبة" على جانب الطريق، وأخذ يبكي ويشهق مثل طفل صغير هدّه التأثر والورع الديني!

كدت ألمس كتف (عمر) وهو يصغي إلى زميله ينشج بالقرب منه لولا هذا الخاطر السريع؛ "دعيه يا فاقدة الصبر يذهب برحلته إلى آخر المطاف، فإذا لم يرَ بعينيه هو ما عليه أن يرى، إذن، لن يستطيع أي مخلوق على هذه الأرض أن يجعله يرى!".

طبطب (عمر) على كتف زميله وتمتم بمديح شخصي ودعوات

وآيات قليلة، ثم انطلقا مرة ثانية بنفس السرعة البطيئة. كان (أبو عبد الله) قد وصل إلى ذروة لذة التأثر الورع وقذف سريعاً وارتاح من دون انتباه منه. كان علي أن أغلق عيني وأنا أشهد كل هذا من المقعد الخلفي، حيث أكابد بصبر أيوب انتظاراً بدا وكأنه بلا آخر؛ انتظار آخر النفق الذي أعرف أنه قريب.

فتح منظر الأطفال اللاهين في مياه الفرات، وقيادة سيارة "الحسبة" في أول "ولاية إسلامية" في العصر الحديث، شهية (أبو عبد الله) للحديث. حين مرا في أحد الشوارع الكبرى للمدينة، قال (لعمر) إن التنظيم يحسن معاملة الأجانب أو العرب من أصل أجنبي. مد يده خارج زجاج السيارة، وأخذ يشير إلى المنازل الجميلة التي تركها المسلمون والمسيحيون وراءهم وفروا، والتي قُدمت لهؤلاء على طبق من ذهب. "ليس هذا فقط، قال (أبو عبد الله)، وإنما هناك مجموعة نسائية أخرى من المهاجرات تابعة للتنظيم، تقوم بترتيب الزيجات للمقاتلين الأجانب وكذلك يقمن، بارك الله فيهن، بدور استخباراتي من أجل أغراض جهادية أخرى. خلال أيام، سوف تكون مستقراً في أحد هذه المنازل الجميلة مع زوجة في كنفك، وسيكون لي مثلك أيضاً".

من أين تأتي هذه الفصاحة اللغوية المطعمة بالآيات والأدعية والكلام الذي يَلوح مثل الأختام الملكية والصكوك الغفرانية! من أين تأتي هذه القدرة على تجميل العمى والإقناع! حين يرافقُ كلَّ هذا وجهٌ جميل ملتحٍ وشعر طويل وعيون براقة واسعة وابتسامة بيضاء عريضة، يصبح الفكاك من هذه التعاويذ أمراً شبه مستحيل. الحب قتّال وكذلك الشغف الديني، اسألوا المتصوفة، اسألوا رهبان المحابس

على رؤوس الجبال، اسألوا من "لحستهم" لوثات العقائد السرية وأعطوا ذواتهم إليها. اللذة لا تستجلبها فقط الأجساد النابضة بالفتوة والقوة والجاذبية، وإنما "الفكرة" بذاتها أيضاً، حتى لو كانت تحمل التدمير في تضاعيفها. رأيت كل هذا وأكثر وأنا أتنقل مع (عمر) في رحلة حقول الألغام هذه التي تمالكت فيها نفسي عدة مرات، فلا أدفع (عمر) عنوة إلى التطلع والتأمل، عارفة أنه قريباً سوف ينفجر هذا الذي بدأ يتراكم في داخله منذ أول يوم وضع قدمه فيها في مدينة غازي عنتاب. بدا "استواؤه" لي قاب قوسين أو أدنى، بينما الدنيا الحقيقية بعيدة عن مرمى انتباهه، تستمر خلسة من دون منغصات وبرتابة لذيذة، هناك، في زاوية ما من هذا العالم، حيث منازل صغيرة مُضاءة فوق تلال خضراء ترن فيها أصوات أطفال يلهون بألعابهم الصغيرة، ومطابخ امتلأت بأطباق الطعام الساخن الذي أخرج من الأفران للتو، وأمهات وآباء يتبادلون أحاديث عابرة مسلية. أما هنا، فالحياة تشبه صراع عملاقين معدنيين في أحد أفلام هوليوود الخيالية، لا يموت أحدهما إلا بعد أن يبيد الأخضر واليابس.

أصبح (عمر) و(أبو عبد الله) يخرجان كل يوم في دورتهما الاعتيادية في شوارع المدينة. حتى منظر بعض المنقبات اللواتي يجبن المدينة مع أزواجهن و"أسلحة الكلاشنكوف" معلقة على أكتافهن، أصبح أمراً طبيعياً بل يدعو للفخر. "مغرية هي حتى في حجابها، هذه الفتنة"، قال (أبو عبد الله) في إحدى أُمسياته مع بقية الإخوة، وذلك بعد ما لعبت كأس اليانسون الثالثة في رأسه مما دفع (عمر) على الابتسام خجلاً. في نهاية المطاف، حين تحط الحرب

أوزارها فليس هناك سوى المرأة بجسدها الخطير مكافأة "لشهيد" قضى في ساحة الجهاد، أو "لمجاهد" سابق باقٍ على قيد الحياة، أكرمه الله بالسبايا والزوجات. الرايات السوداء التي تعم المدينة ترسم الخطوط اللامرئية للمسموح واللامسموح، يساعدها على ذلك الحواسيب الصغيرة التي جهزت سيارات "الحسبة" بها، والتي يُخزن فيها تاريخ كل شخص في المدينة، وكان التنظيم قد حصل عليها من مقار المخابرات التي استولى عليها بمساعدة بعض الضباط. لا يترك هؤلاء "الحالمون" مكاناً للمصادفة، يدققون في البطاقات الشخصية، والأوراق الثبوتية، والهويات، ويسألون أدق وأغرب الأسئلة، وهم يقلبون نظراتهم الفاحصة لعلهم يعثرون على ذقن حليقة، أو نفس متأففة ترنو إلى الحياة، أو هاتف نقال برنة موسيقية مائعة. هم رجال لا يمزحون، إذ يملكون محاكمهم الشرعية، وقانون عقوباتهم الخاصة. يرمون المخالف بحجر حتى الموت ويبترون يد السارق، أما الشاذ جنسياً، فيلقونه من أبنية عالية ليموت غريقاً في دمائه، بينما يقطعون رأس كل مخالف للعقيدة. لقد رأى (عمر) بعين أتعبها الكذب تجاوزات القابضين على أرواح الآخرين، وميزات الظانين بأنهم يضعون قطار البشر على سكة الصراط المستقيم. رأى أيضاً المصلوبين على سياج الحدائق العامة عقاباً على نشوز اعتبره "الإخوة" مخالفة للشرع والشريعة. شعر بالهلع وقطب جبينهُ دلالة سوء الفهم والاعتراض المكبوت. قال له (أبو عبد الله) إن الدروس تعطى مرة واحدة في الرقة، بعدها يلتزم الكل حده وينكس رأسه. لا مكان للمزاح أو الهزل. طلب من (عمر) أن يشدَ من أزرهِ، وأن يغير سحنته في الحال، فهذا كفرٌ بشرعِ الله ورفضٌ لإرساء

قواعده. هزَّ (عمر) رأسه بالموافقة الظاهرة، بينما كانت السيارة تنعطف بسرعتها القليلة لتدخل إلى أحد الأسواق التجارية في المدينة، حيث ما زالت بعض الرفوف في الدكاكين تنوء بالبضائع القديمة التي دخلت المدينة قبل قدوم التنظيم إليها. وما هي إلا دقائق، حتى مال (أبو عبد الله) بالسيارة على جانب الطريق، ثم نزل مسرعاً وهو يوحد ويتمتم ببعض الآيات وفي يده عصاه. كانت بعضُ علبِ أصباغِ الشعرِ النسائية قد رُصفت فوق رفٍ خارجي أمام باب أحد الدكاكين، بينما طُبع عليها صور لنساء جميلات سافرات. طلب (أبو عبد الله) من البائع أن يغطي في الحال بحبرٍ ثخين أسود وجوه النساء على العلب، الأمر الذي استدعى من هذا الأخير هزة رأس خفيفة وابتسامة ساخرة ميتة. شعر (عمر) بتطرف هذا الطلب. ضاق صدره. كل التدين الذي كان يضخهُ في عقله شيخ الجامع في لوس أنجلس لم يلامس هذه الحدود المضحكة من فهم الشرع! أخذ العرق يتصبب من جبينه وأحس بالاختناق، لا بسبب حرِ الرقة القائظ، وإنما بسبب هذه الرايات السوداء الحريرية التي أخذت تلف حول عنقه مثل حبل المشنقة. كل يوم، كان (عمر) يرى تعب الناس وتأففها الأخرس، يرى العراضات الحجازية بعد كل انتصار صغير في معركة أصغر، حيث يتجمع الجهاديون في إحدى الساحات ملوحين بأسلحتهم، ومعصبين رؤوسهم، ومطلقين العنان لفرح مؤقت، ولذقون طالت لزوم الكاريزما الجهادية والفحولة المتدينة. الجهادي مفتول العضلات يشبه "سوبر مان"، يتحمل المشقات ويصبر على التعب، ليتحول إلى رمز جنسي إباحي في تدينه. بعض المستعدات للنكاح جهاداً، تجاوزنَ النص إلى الفتنة

القصوى في جسد رجولي أكسبه الصراع رهبته، وكذلك فتنة هذه المساحة من الحرية الخالية من أي قانون يُحرم أو يُحلل. الجميع يقفون على أرض البداية، فوق رمال ذات رائحة نفاذة، يستخرجون لذة المخالفة لكل قانون مدني، كما يستخرجون النفط من عمق باطن الأرض في الحقول المنهوبة. توليفة مشربكة من اللامعقول ولدتها حروب مقدسة لم تبقي ولم تذر.

بعد فترة من وصول (عمر) إلى الرقة، أعطوهُ منزلاً جميلاً وعقدوا بسرعة قرانه على فتاة اسمها (سلمى) كان التنظيم قد اختطفها من مدينة الموصل. بارك (أبو عبد الله) (لعمر)، وقال إنه "أمر بزوجة" لنفسه من مكتب التنظيم في حلب الذي يستقبل طلبات من عازبات وأرامل للزواج من المجاهدين، بعد أن وقع في هوى إحداهن حين رأى صورتها وبياناتها الشخصية على الإنترنت. قال له بابتسامة خبيثة، "إن الشحن سيكون قريباً إن شاء الله وسأكمل نصف ديني مثلك يا (عمر)".

صندوق الفرجة الذي ركزت عيني على إحدى عدساته المكبرة كاد أن يصيبني بلوثة. لستُ في البلاد العجائبية لـ "أليس"[54] حيث الحيوانات تتحدث والسحر يحرك الجماد من مكانه، وإنما في مدينة الرقة السورية التي كانت في يومٍ ما تستضيف مهرجانات دولية للفن والشعر.

---

(54) **مغامرات أليس في بلاد العجائب**: هي رواية للأطفال كتبها الكاتب وعالم الرياضيات الإنجليزي تشارلز دودجسون تحت اسمه المستعار لويسكار ولفي 1865. وهي تحكي عن فتاة اسمها أليس سقطت في جحر أرنب لتنتقل منه إلى عالم خيالي يدعى بلاد العجائب .

لمْ يدخل (عمر) على زوجته إلا في اليوم الثاني، حيث تطلب الأمر قليلاً من التعارف، وهد حاجز الخجل والتوتر لدى المسكينة. جعلها منظر (عمر) الملتحي في جلبابه الرمادي الطويل تنكمش من الخوف. حاول التحدث معها بلطف وبصوت منخفض محبب. قال لها إنه أيضاً يخجل من الزواج من دون مقدمات، وإنه سوف يصونها إن شاء الله، وإنه لن يفعل شيئاً من دون رضاها. لم تصدق المرأة ما سمعت. رفعت رأسها ودققت النظر فيه بطرف عينها، وكأنها تستغرب حديثه. تشجعت وسمحت لدموع ساخنة بالنزول بصمت وهدوء. كأنه صديقاً قد وُلد لها بعد طول شقاء. كأن ليس كل الرجال سواسية؛ خاطرٌ مرَّ سريعاً في عقلها المتعب. حين أخذ (عمر) حقه بهدوء كزوج، عرف أنها ليست المرة الأولى رغم صغر سنها. حكت (سلمى) قصتها وهي في سريره، مثل كل الاعترافات التي تلي ممارسة الحب، قصة دخول التنظيم إلى الموصل وقتل رجال العائلة واختطافها وجلبها إلى الرقة لمساعدة المجاهدين على "تحمل" المعارك. "فعلوها بي عشرات المرات"، قالت (لعمر) بصوت مكسور وعيون تتطلع إلى السقف". حين دخلوا إلى المنزل، كان شكلهم بشعاً والأسلحة محمولة على ظهورهم وفي أيديهم. كانوا يتحدثون بلغات ولهجات لم أفهمها. قام أحدهم بضربي على جسمي ووجهي بالسلاح أنا وزوجة أخي. غِبتُ عن الوعي في الحال، لكن بعد قليل استيقظت على صراخ امرأة تقطن في الجوار، بينما كان شخص من بينهم يداعب شعري بعد أن حل حجابي، على حين كانت يده الأخرى تتحسس باقي جسدي. أرجوك يا (عمر)، إذا ما

أرسلك التنظيم في مهمة ما، لا تسمح لإخوانك بالاقتراب مني. قل لهم إنك تعارض. أرجوك، اجعلني زوجتك إلى الأبد واحميني منهم، وأنا خادمتك المطيعة منذ الآن! أرجوك!".

جُنَّ (عمر)، سقطت ورقة التوت الأخيرة. لم يعد يستطيع أن يكابر على هذا التيه الذي أخذ يشبه الطوفان. تطلع في (سلمى) بحزم وقال لها اصبري، اصبري ولك ولي الفرج القريب. طلب منها أن تلوذ بالمنزل وأن لا تتواصل مع أحد. فهمت بلمح البصر إلى ما يرمي إليه. لربما عرفت هذه المرأة الفرح فيما مضى، ولكن غبطة هذه اللحظة تشبه العودة للحياة التي لا توازيها غبطة. قبلت يد (عمر) بشدة واحتفظت بها، ثم تكورت في حضنه من دون كلمات. أدرك أنهما سيكونان معاً من الآن فصاعداً. لن يتخلى عنها، هذه التي عرفها فقط منذ يومين في مشهد اللامعقول هذا. الأحلام الجهادية أخذت تتساقط حوله مثل ورق الخريف، وبدلاً من أن يتلهى خياله في حياكة مشهد استقباله في الجنة، أصبح يخطط للخروج إلى عالمٍ طلّقه في يوم من الأيام بالثلاثة! عرف (عمر) أن عقيدته لا تواجه حرباً، وإنما هي تتآكل من الداخل بفعل التسمم الذاتي. أما هذا التوحش المثالي المقدس فقد لاح هو أيضاً كأحد أسباب هذا التسمم بالذات.

الآن، اطمأن قلبي. بدا (عمر) لي كوليد جديد بعيون مفتوحة على سعتها. لم يكن علي أن أبقى معه خوفاً من انزلاق قدمه في وحل هذه الأفلاطونية الدينية المثيرة للشفقة، وذلك لأنها هي بذاتها من غرز فيه نصلَ اليقظة المدبب.

الزواج الثوري

تزوج (مارك) و(أميرة) زواجاً مدنياً في مدينة لاس فيغاس، وهذه عادة "يرتكبها" هنا من يريد أن يعقد قراناً حراً، مختلفاً، وسريعاً في آن. تقع "فيغاس" في ولاية "نيفادا" المحاذية لحدود" كاليفورنيا"، حيث تبعد نصف ساعة بالطائرة عن لوس أنجلس. إنها عاصمة الزواج في العالم، فيها يقع فندق "سيزر بالاس" ذو البناء الإمبراطوري الشاهق الذي اختاره (مارك) لكي يعقد فيه قرانه على (أميرة). في هذا الفندق العجيب، مثل أغلب فنادق المدينة ومنتجعاتها، تتوفر خدمة كاملة للأعراس حيث يأتي الحبيبان بما عليهما من ملابس، ليتم تأمين المكان ولباس العرس وكل ملحقاته لهما، علاوة على أن قوانين الولاية، وذلك على عكس أغلبية الولايات الأخرى، لا تتطلب وقتاً إلزامياً بين حفل الزواج نفسه وصدور الوثيقة، وكذلك لا تتطلب معرفة مكان إقامة الزوجين، أو تقديم تقارير طبية عن فحص الدم.

في تلك الليلة، وقفت (أميرة) بفستان أبيض قصير بسيط بالقرب من (مارك) الذي بدا مثل شابٍ في مقتبل العمر يتزوج للمرة الأولى. لم يكن هناك رجل دين، وإنما دعا (مارك) صديقه (جون)، القاضي

في إحدى محاكم لوس أنجلس لكي يتمم زواجهما. الدهشة علت وجه (أميرة) حين استمعت إلى هذا الفهم الاستثنائي للقاضي بالنسبة لما يحدث في سوريا، وذلك خلال حديثهما قبل مراسم العرس. عندما عرف أنها سورية، أخذ يتدفق في الكلام، وكأن أحداً ما قد فتح صنبوراً حُبسَ ماء المحيط في داخله. قدم لها اعتذاره عن "السفالة"، على حد تعبيره، التي تمارسها أمريكا في سوريا، وقال لها إنه كان معارضاً شرساً لكل الحروب التي "دخلنا فيها واعتبرناها مقدسة، مخلفين وراءنا ملايين البائسين حول العالم".

خلال المراسم، التقت عدة مرات نظرات (أميرة) و(مارك) بنظرات القاضي. شعرت بالألفة الكبيرة تجاهه، كما ارتاح قلب (مارك) لهذا التواطؤ المحبب بينهم جميعاً. من هو أفضل منه لكي يعقد قرانهما على التراب الأمريكي! قراناً مدنياً لا يخضع أيٌّ منهما فيه لطقوس الآخر الدينية، ولا يشعر أي منهما بالغبن، وإنما بالمساواة التي قبلاها بفرحٍ وطيبِ خاطر. لقد وحدهما هذا الزواج أمام بركة القانون، وجعلهما زوجاً وزوجة بالحلال.

حين انتهت المراسم، قبّل (مارك) (أميرة) من جبهتها ويديها. لقد راعى خجلها وتفهم حياءها. أما القاضي فقد ضمهما معاً إليه في حضن واحد قائلاً:

- هذا الزواج المبارك هو من أجمل وأهم ما قمت به في حياتي. اذهبا الآن وكونا واحداً. أنا لست رجل دين، ولكن تمنياتي لكما تخرج من قلبي. إنني أتطلع لكي يعمَ السلامُ في بلدكم، وأن يعود بلدي الذي أحبه إلى رشده.

قالوا عن لاس فيغاس إنها مدينة الخطيئة لكثرة اللهو الذي تقدمه لزوارها، والذي يفوق كل حد أحياناً. يقولون هنا إن ما يحصل في هذه المدينة يبقى فيها، فالناس تأتي إليها لأيام قليلة تتحرر فيها من روتين العمل والحياة القاتلين لدرجة يفقد البعض توازنهم من كثرة الشرب، وقلة النوم، والوقوف ساعات طويلة أمام آلات القمار التي لا تتوقف عن الرنين، وكأن بركاناً من النقود الذهبية انفجر فيها. لهذا، قبل مغادرتها، ينفض الكلُ غبارَ نعليه، وينطلق مجدداً في حياته، إلا من ذكريات لا تنسى!

لم ترَ (أميرة) مكاناً مثل هذا من قبل. كانت تتطلع مبهورة حولها وهي تمسك بيد (مارك) الذي أخذ يدور بها في أرجاء الفندق قبل أن يصعدا إلى غرفتهما الملكية. هناك، من أعلى طابق في المبنى الفخم، تفرجت (أميرة) على الدنيا في الأسفل، وكأنها تتطلع إلى الأرض من نافذة طائرة محلقة. لقد بدا المشهد من فوق، وكأنه قطعة من الجنة؛ حوض السباحة بمياهه الفيروزية اللامعة تحت الشمس، المستلقون على كراسيهم الطويلة حوله، والنادلون يروحون ويجيئون بصواني الكؤوس الممتلئة، ثم أصوات السابحين التي تتناهى إليها تحمل رذاذ اللهو وفرح الإجازات القصيرة، وكل هذا محاط بتماثيل وأعمدة رومانية ضخمة مبهرة.

التفتت إلى (مارك) فرأته يتطلع إليها بحنان ونشوة. هذا الزواج ليس فقط انتصاراً شخصياً لحبه، وإنما في تضاعيفه يكمن معنىً خلاب ما لا يفهمه أحد سواه. ليسا مستعجلين، فلن يضيعا بعضهما البعض بعد الآن، ولن يمنع أي اعتبار مهما كان هذا الارتباط الذي

بدأ بحب صاعق وأكمل سيره بصداقة كبيرة هادئة.

لو كان (مارك) مجاهداً، لاكتفى بهذا الأسبوع على الأرض مقابل كل فراشات الجنة العذراوات. لو كان مهندساً للجنة نفسها، وكاتباً للاهوتها، لتجاوزت فانتازيا هذا الأسبوع مع (أميرة) كل حدود الخيال. ليس الجنس اليومي، وإبهار المكان، والخدمة الملكية التي حظيا بها كعروسين ما رسم هذا المشهد المبهر الفتان، وإنما الحب.

بعد أسبوع، عادا بسيارة مستأجرة إلى لوس أنجلس، مخترقين صحراء نيفادا اللاهبة ذات الرمال البنية وأصص الصبار القليلة النابتة فيها هنا وهناك. كانا يتحدثان من دون توقف، ويضحكان في مناخ السيارة المبرد وكأن الدنيا لا تعنيهما. كانت (أميرة) قد أعادت مفتاح شقتها إلى المركز بعد أن أفرغتها من أمتعتها وأغراضها ونقلتها إلى منزل (مارك) قبل أن ينطلقا إلى لاس فيغاس. حين وصلا، كان المنزل ممتلئاً بباقات الورد التي أرسلت من زملائها، يباركون لهما هذا "الزواج الثوري" كما أسماه (سام)، مستعيراً مصطلحاً آخر من المصطلحات التي يدور في فلكها تلك الأيام، والتي قضّت مضجعه. أما بطاقة (حمد)، فقد وصلت مع باقة ورد "استعراضية" ضخمة، ذيّلها بتمنياته وبعبارة جعلت (أميرة) ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها، "بتحرير سوريا الكامل ونصرها على الكفار". قال لها (مارك) إن الإناء ينضح بما فيه، وأن عليها أن تقبل الاختلاف أكثر مما تفعل الآن، وذلك فقط من أجل قبول الاختلاف، لأن هذا القبول هو عقيدة إيجابية بحد ذاتها، وذلك بغض النظر عن خطورة تفكير الآخر. لم تقتنع (أميرة)، ولكنها هزت رأسها

بالموافقة. تركها (مارك) ليحضّر شراباً لكليهما، بينما أخذت تتطلع إلى العالم من وراء الجدار الزجاجي للمنزل المطل على المدينة.

(لقد مرَّ أكثر من خمسة أعوام ونيّف على هذه الحرب الخرقاء على سوريا. لولا خط الإنترنت العجيب الذي يتحرك بسرعة البرق بين أرجاء الدنيا لربما انتهت الحروب في مهدها، ولربما حُجبت عن أعيننا الويلات التي تحدث هنا وهناك، والتي تذبحنا كلما فتحنا هذه الأجهزة الصغيرة التي بين أيدينا كل صباح. أصبحتُ أخافُ من أن تلمس أصابعي أي زرٍ فيها. الله وحده يعلم طوفان الكرب الذي يتدفق منها. لولا أصوات وصور من أحبهم لما دفعت هذه الضريبة الكبيرة).

لكن على الزجاج البسيط أمامها، كان شريط متواتر من الأحداث يمر. ولو استدارت، فستراه هو نفسه على مرآة بهو المنزل، وحتى على مرآة الحمام. شريط غير مكهرب، ولا ممغنط، ولا موصول بالشبكة الإلكترونية، ولكنه هناك يعكسُ أحداث الدنيا على مرايا المنزل من دون توقف. خرج هذا الأمر عن نطاق سيطرتها وسيطرة أي كان. إنه أكثر أنواع الإرهاب الصامت أذيةً ذلك الذي يحدث باستمرار ومن دون انتباه أحد، حيث يعلن عن نفسه على الجدران؛ جدران المدن، جدران الحافلات المتنقلة، جدران لوحات الإعلانات الطرقية، جدران المعابد والقصور القديمة والمقابر، وكذلك جدران "الفيسبوك" و"التويتر" وكل تفرعاتهما. والكتابة على الجدران، أكانت إعلانية أم سياسية، أو عبارة عن ملصقات فنية، أو مجرد خاطر ثوري يكتب بالبخاخ الأسود على عجل وخوف أثناء الليل، هي في النهاية مقولات تُفرض فرضاً على هذا العقل المتعب، فتفككه

وتعيد تركيب أجزائه من جديد. تقتحم عربات المترو والحافلات الموشومة بالكتابات المختلفة قلب المدن، تماماً كما اقتحمت طائرات مدججة بركابها أبراج الدولة الأقوى في العالم. إرهاب ناعم، ينساب خفيفاً مثل جسد ثعبان ويلتف بدهاء حول الفريسة ويبتلعها بثقة. الشعوب أيضاً هي ضحية "جدرانها" وما يكتب عليها. كتابات، ظُنّ أنه بليبرالية شعاراتها، إنما تبحث لكي تزيل كل حد بين الحكومات والناس، فإذا بها تفلقُ الدنيا إلى نصفين واضحين: أمريكا والعالم البربري في الخارج!

على شريط مرايا منزل (مارك)، رأت (أميرة) النسخة الجدرانية من فيلم الوطن؛ جنود يستعيدون الموصل من "داعش"، الجيش السوري يسترد آخر موقع في شرق حلب، الكاتب الأردني "ناهض حتر" مضرج بدمائه بعد أن أُردي قتيلاً بثلاث طلقات، انفجار الكنيسة البطرسية في قلب القاهرة، وصول "ميشيل عون" أخيراً إلى سُدّة الرئاسة في لبنان بعد ستة وأربعين محاولة لانتخاب رئيس للبلاد، حلّ مجلس الأمة في الكويت، وصول اليمن إلى مشارف الكارثة الإنسانية بسبب الحرب، خطة التقشف في السعودية، محاولة انقلاب فاشلة في تركيا، تفجير بروكسل، هجوم نيس، وفاة "فيدل كاسترو" آخر قائد شيوعي في العالم، تعويم الجنيه المصري لأول مرة في تاريخه، خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، ثم كسر لعبة "بوكيمون جو" للرقم القياسي في تحقيق الإيرادات...إلخ.

لم توقف قبلة (مارك) على خدها وهو يحمل كأسي الشراب من تدفق هذا الشريط، وإنما خفضت صوته.

- بماذا تفكرين!

- لم أعد أفكر!

جميل هذا الحب الذي يكتفي بكلمة. يفهم الحبيبان المقصود بلمح البصر. يُرجعان كل لفظة إلى شخصيهما وحالة الحب التي يعيشانها. في بؤبؤ العين، يعثر كل منهما على المعنى الذي يريده، على جدار بؤبؤ العين بالذات. لا يحدث هذا فقط مع المحبين، وإنما مع كل قريب نشعر بالألفة تجاهه وجمعتنا به سنوات عيش طويلة.

حين انتهت مراسم الزواج قبل يومين، اتصلت (أميرة) بوالدها بلهفة وسعادة. قال لها إن صوتها يشبه زقزقة العصافير وكأنها عادت ابنة ثلاث سنوات. فرح لها. تحدث مع (مارك) مطولاً كأب مسؤول وأوصاه بها. قال له إنه تزوج الجوهرة الوحيدة التي يملك في هذه الدنيا، والتي يأتي الشعر بعدها بعشر درجات. تمنى عليهما أن يزورا الشام في أقرب فرصة متاحه لهما. انتهى الاتصال بغبطة كبيرة. ارتاحت (أميرة). موافقة والدها كلّلت هذا الحب في داخلها باليقين والرسوخ؛ الأمرين الأكثر تطلباً من أجل أن يعيش أي زواج.

بعد عشرة أيام على عودتها من فيغاس، رن هاتفها الخليوي بالقرب منها بينما هي منكبة على عملها في المركز. الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل في دمشق، وهو ليس التوقيت المعتاد لهاتف والدها. ردت بسرعة وصمتت.

* * *

في تلك الليلة، أطفأ سكان حي القيمرية الدمشقي أضواء منازلهم وناموا على سكون نادر لم تقلقه أصوات الصواريخ أو أزيز

الرصاص. أغلقت (أم علاء) باب المطبخ المفضي إلى "أرض الديار" ومشت الهوينى متجهة إلى غرفتها تحت شجرة الياسمين المعربشة القريبة من السلم الواصل لغرف الطابق الثاني. لم ترَ نوراً مضاءً آتياً من غرفة (إنعام) فعرفت أنه نام. وضعت كأساً من الماء بالقرب من سريره، ثم أغلقت الباب وخرجت تتمتم بصلاة قصيرة بصوت شبه مسموع.

بعد ساعة من الرقاد العميق جفلت (أم علاء) من نومها، وكأن أحدهم وخزها بإبرة مدببة. أرادت الخروج إلى الحمام الذي يقع بالقرب من غرفة أغراض والدة (أميرة) تحت السلم. رأت النور مضاءً فيها، فاقتربت من النافذة المُفضية إلى باحة المنزل وتطلعت بعيون ناعسة إلى الداخل. كان (إنعام) جالساً على كرسيه المتحرك بينما تدلى رأسه جانباً. دخلت مسرعة. حاولت إيقاظه فلم يرد. خفق قلبها بشدة. دارت حول نفسها خائفة. عادت لإيقاظه مرة ثانية. سقط بين يديها. عرفتْ أنهُ لنْ يسمع صوتها مرة ثانية. مات الرجل بين ثياب زوجته القديمة المعطرة بـ "اللافندر" الطبيعي، وقمصان نومها، وصور لمْ يملَ يوماً من التطلع إليها!

الهروب الكبير

ما إن قال (عمر) كلمة موافق على طلب تجنيده قبل أشهر، حتى عثر على سلاحٍ قاتلٍ بين يديه. قالوا له إن في سوريا فقراً وفساداً وحكماً نصيرياً لا يتزعزع. قالوا له إن النساء وصلن إلى حدود الفسق في هذه الدولة، وإن شباب المسلمين فيها أخذوا يحيدون عن دينهم في وسط يشجع على العلمانية، ويرتخي أمام التجديد. قالوا له أشياء كثيرة، ثم حشروه في صف الدين، ودربوه على أكثر الأسلحة فتكاً وتعقيداً تحسباً للقادم.

لم يقرأ (عمر) ما كتبه الرحالة الذين زاروا الرقة بعد الفتح الإسلامي لها، والذي أبقى على معتقدات أهلها وكنائسهم. لم يقرأ عن دمارها المغولي، ولا عن تاريخها الأموي أو العباسي، ولا عن آثارها الدينية التي دمرها التتار، ولا حتى عن مقامات الصحابة على التلال المحيطة بالفرات والتي دمرتها الدولة التي شغلت أحلامه، وقطع نصف الكرة الأرضية ليصل إليها ويدافع عنها.

مع ذلك، ما رآه كان كافياً لكي يهرب، تاركاً وراءه مدينة منعت لبس البنطال، والتبرج، والعطور، وسماع الأغاني وإقامة حفلات الأعراس والنارجيلة، وانشغلت عن الحياة الحقيقية بأتفه ما اخترع

الإنسان. لقد هرب من مدينة صممت هندستها بحسب الفانتازيا الإسلامية المتطرفة، مبعداً بيده غلالات الحرير السوداء الرخيصة وأدعية كثيرة ضلت طريقها لفّت لأشهر أيامه مثل حزام ناسف على وشك الانفجار. ترك وراءه مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية التي جعلها الفتح تحتضر حين توقفت مياه دفاقة كانت تسقيها وتضخها بمعدات ضخمة للري الحكومي، سرقها مسلحو الفصائل الكثيرة المتحاربة التي كانت تزدحم منتظرة أمام الجنة.

إذن، انفض غبار نعليك أنت و(سلمى) لا عن الرقة، وإنما "عنهم"، واذهب في طريقك إلى حيث أتيت، فإن قُتلت، فموتك سيكون ثمناً باهظاً لهذه الغلطة التي ارتكبتها، وإن كُتب لك العيش، فاقضِ الباقي من عمرك في إصلاحها.

الرقة سجن كبير، والخروج منها، بعد أن احتلها التنظيم، غدا صعباً، إذ يجب تقديم كل مبررات الدنيا وحججها لكي يستطيع المرء أن يغادرها. لقد منعوا السفر إلى أي مكان ما عدا إلى أريافها ومدينة الموصل التي هي الأخرى تحت إمرتهم. أما بالنسبة (لعمر)، فالوضع أصعب، لأنه يحمل "رتبة" مجاهد، وهروبه يعني الكثير إذ قد يؤدي إلى موته الفوري، إذا ما انكشف أمره.

في هدأة الفجر الداكن، حلق (عمر) ذقنه، وقص شعره، وخلع جلبابه، وخرج هو و(سلمى) من المبنى الذي يقطنان فيه باتجاه حافلة صغيرة كانت تنتظرهما في شارع ضيق جانبي. فيما مضى، كانت المعابر مع تركيا والعراق في حالة نشاط لا يتوقف، يُهرّب عبرها الدخان والكحول ومواد ممنوعة أخرى. أما اليوم، فيتم تهريب

البشر ذوي الكلفة الباهظة، والتي قد تصل إلى المليون ليرة عن الفرد الواحد.

انطلقت الحافلة (بعمر) و(سلمى) مع عائلة أخرى باتجاه ريف الرقة، عابرين العديد من حواجز التنظيم الذي لا يمنع السفر إليها. في الحافلة المعدة للتهريب، هناك مكان خفي يمكن أن يستوعب اختباء رجل واحد. قبع (عمر) فيه بينما لاذت (سلمى) بالعائلة وكأنها فرد منهم. بعد أن اجتازوا آخر حاجز، قال لهم السائق المهرب إنهم سينطلقون باتجاه طريق فرعية، ولكنه ينتظر إشارة من مخبرين يثق بهم، منتشرين على الطرقات. حين وصلت أول إشارة انطلقت الحافلة، ثم ما لبثت أن ركنت جانب الطريق بعد أن قطعت بضعة كيلومترات، بانتظار الإشارة الثانية. بقيت الحافلة تسير على هذا الشكل المتقطع، بحسب الإشارات التي تأتي للسائق، تعلمه إن كان الطريق أمامه سالكاً وآمناً.

خرج (عمر) من مخبئه حالما أخذت الحافلة الطريق الفرعي. جلس بالقرب من (سلمى) وأمسكَ يدها وشدّ بقوة عليها. عرف السائق (عمر) منذ أول لحظة رآه فيها. كان يلمحه دائماً يجوب في سيارة "الحسبة" مع (أبو عبد الله). ابتسم له. هو لن يذيع سره. المليون ليرة التي قبضها منه في جيبه، وهو غير معني بأي شيء آخر.

ظلت الحافلة تسير ثم تتوقف بحسب إشارات المخبرين، إلى أن وصلت إلى نقطة طلب السائق فيها من الجميع أن يكملوا سيرهم على الأقدام. وقبل أن يتفوه (عمر) بأي كلمة معترضاً، أخذه السائق من يده جانباً وقال له:

- حالما تصل إلى مدينة حلب، سوف يكون هناك أحد بانتظارك. لا تقلق سيوصلك الرجل إلى خارج الحدود.

أعطاه اسم الرجل ورقم هاتفه، ثم ربّت على كتفه وانطلق عائداً إلى حافلته. سلك (عمر) و(سلمى) مع العائلة المؤلفة من رجل وامرأة وطفلين طريقاً تجاوز العشرين كيلومتراً متجهاً إلى حلب، عبر مدينة "الباب" التي تنوء تلالها بقطع الفخار واللقى الأثرية الحثية والآرامية. وصلوا منهكي القوى، لكنهمتناولوا طعاماً سريعاً فيها ثم انطلقوا منها في الحال إلى حلب.

حينما وصلوا إلى أطراف المدينة، ودعت العائلة (عمر) و(سلمى) وانطلقوا مع قريب لهم كان بانتظارهم. كان (عمر)راغباً أن يسافر في الليلة نفسها إلى اللاذقية ومنها إلى الحدود التركية. قال (لسلمى) أنه لم يعد يطيق الانتظار دقيقة واحدة. أخرج الورقة التي أعطاه إُياها السائق واتصل بالرقم المدون عليها. في الحال، رد على الطرف الآخر رجل ذو لكنة حلبية ثقيلة. قال (لعمر) إنه كان ينتظر اتصاله. طلب منه البقاء ليوم واحد آخر في حلب لأن الانطلاق سيكون فجر اليوم التالي. من أجل ذلك، رتب الرجل مكاناً لإقامة الزوجين في منزل أحد أقربائه كان المكان فارغاً حين دخلاه. لربما كان يستعمله لمثل هذه الأغراض أو لأغراض أخرى، الله أعلم. بعد أن ذهب وأغلق الباب وراءه، أمكن لهما، أخيراً ، أن يتطلعا في وجهّي بعضهما البعض. احتضن (عمر) (سلمى) وابتسما ابتسامة كبيرة على وجهه المتعب، بعد طول شقاء. طلب منها أن تخلع

الشادر الأسود وتكتفي بحجاب للرأس مثل الذي تلبسه بعض نساء حلب. ناما تلك الليلة مثل القتلى. لم يكن هناك فسحة للحب أو لغيره. قام الحنان المتعب بالواجب بدلاً منه.

في اليوم التالي، انطلق الرجل الحلبي بهما في سيارته الخاصة متجهاً إلى اللاذقية. قال لهما إن الطريق شبه آمن الآن بعد أن تم إزالة حواجز قطاع الطرق عنه. لم يعرف (عمر) ميول الرجل السياسية. كان يقود سيارته صامتاً لا يتفوه إلا بالكلام المطلوب، وكان غالباً ما يستعيض عن الشرح الصوتي بإشارات من يده. بدا (لعمر) مدنياً جداً بهندامه المرتب، وذقنه الحليقة، وشعره الذي أكثر من الزيوت عليه.

حين اخترقت السيارة بعد ظهر ذلك اليوم شوارع اللاذقية، رأى (عمر) من وراء الزجاج دنيا أخرى. كأنه سافر من كوكب إلى آخر. عرف بلمحة أن الناس في تلك المدينة يقاومون لكي يحتفظوا بحياتهم كما هي. نساء سافرات وأخريات محجبات يسرن جنباً إلى جنب. زحمة كبرى للمراكب والناس على الطرقات. مبانٍ خلابة ومطاعم جميلة، وطلاب المدارس المختلطة يخرجون بتدفق من البوابات باتجاه منازلهم. الدنيا تبدو بخير هنا رغم شراسة الحرب، "وهي حتماً كذلك في أغلب المناطق التي لا نضع أيدينا عليها"، هكذا فكر (عمر) وهو يتطلع بعيون حزينة حوله، عاضاً على شفته ندماً. قالت له (سلمى) "كأني في الموصل يا (عمر)!"

قبل أن تنطلق السيارة باتجاه منطقة كسب الجبلية بالقرب من الحدود التركية، قال لهما السائق إن هروبهما كان معجزة، إذ أن

أغلب الهاربين المطلوبين يتم إلقاء القبض عليهم. ارتاع (عمر) عندما سمع عبارة "الهاربين المطلوبين". أدركَ أن المهرب في الرقة قد أعلم السائق بكل شيء. صمت وبلع ريقه، لكن الرجل طمأنه بأن ليس عليه أن يقلق، إذ هناك دائماً طريقة للهروب. مد (عمر) يده إلى جيبه وأعطاه مبلغاً من المال جعله يبتسم قائلاً:

- لن أترككما قبل أن تنطلق بكما حافلة من الجانب التركي للحدود.

تنفس (عمر) الصعداء.

وفى الرجل بوعده. لم يدخل (عمر) وزوجته بالطريقة الطبيعية كلاجئين، وإنما عمد الرجل إلى تهريبهما عبر الجبال مشياً على الأقدام. فعلى طول الحدود الممتدة إلى أكثر من 700 كم، هناك العديد من المنافذ للهروب والتسلل. عثر (عمر) و(سلمى) على حافلة منطلقة إلى غازي عنتاب، ومن هناك سافرا بسيارة أجرة إلى إسطنبول المزدحمة. في إحدى الفنادق الصغيرة للمدينة، ألقى (عمر) و(سلمى) جسديهما على سرير نظيف منشى بالبوطاس الرخيص، وناما بثيابهما مثل جثتين نافقتين.

في اليوم التالي، طار غراب كبير أسود فوق رأس (سلمى) بينما أخذ (عمر) يشرح لها خطته القادمة:

- ستبقين هنا في إسطنبول ريثما أعود إلى لوس أنجلس سالماً. سأعملُ على أن تلحقي بي في أقرب وقت ممكن. سأشتري لك خطاً خليوياً تركياً نتواصل من خلاله. غداً سأستأجر لك شقة صغيرة وسأترك معك مبلغاً من المال يعينك ريثما نجتمع مرة ثانية.

لا تخافي ولا تبكي. علي أن أسوي ما خربت. والداي ينتظراني ولا يعرفان إلى هذه اللحظة أين أكون. لا أستطيع الاتصال بهما بالطرق المعتادة. غداً، سأتوجه إلى مكتب للطيران ومن هناك أسافر.

مسح (عمر) على شعر (سلمى) وتطلع إليها بنظرة تقول "ثقي بي". ليس لدى المسكينة أي خطط بديلة، ولا حتى مجرد تصورات أو اقتراحات. تعرف أنهما وصلا إلى إسطنبول بأعجوبة وأن حياتها مفتوحة بعد الآن على كل الاحتمالات.

تطلعت موظفة شركة الطيران في جواز السفر الأمريكي (لعمر) مطولاً، ثم ناولته إياه بعد أن صورته. انتظر دهراً قبل أن تسلمه بطاقة السفر. قالت له إن الطائرة المغادرة إلى لوس أنجلس ستنطلق في السابعة مساءً.

مرَّ كل شيء طبيعياً من دون مشاكل تذكر. جلس (عمر) على كرسيه في الطائرة متنفساً الصعداء. أرجع رأسه إلى الوراء وأخذ يفكر في اللقاء القريب مع والديه. سوف يعتذر كثيراً، وسوف يقبّل أيديهم ويبكي كما لم يفعل مرة في حياته. سوف يخبرهما عن كل شيء؛ تجنيده، ضعفه، أحلامه، جهاده العقيم وهروبه الكبير. سوف يخبرهما عن زواجه ورغبته في العودة إلى الحياة الطبيعية، وعن ندمه. سوف يغض الطرف عن زلات والده الصغيرة، وسوف يترك بابه مواربا لرياح الاعتدال، مزيلاً عن وجهه سحنة التطرف والعبوس الذي لا طائل منه. لقد رأى الدنيا مقلوبة على قفاها في الرقة. داخ من كثرة النشاز. ماتت الدنيا في عينه وأماتته معها.

سيناريوهات كثيرة ألهته في الطائرة عن الساعات الطويلة المملة. مرت (سلمى) كثيراً في خاطره. مرت حياته في معسكرات التدريب، وخيم دروس الدين، والرعب الذي رآه في شوارع الرقة إثر تطبيق "شرع الله"، مرت الأشهر القليلة الماضية كلها بتفاصيلها الموجعة وعلامات استفهامها الكبرى مثل شريط سينمائي ركيك.

في البهو الموصل إلى مكتب الهجرة والجوازات في مطار لوس أنجلس، خفق قلب (عمر) بشدة حتى كاد أن ينخلع. حين أتى دوره، ابتسم للضابط مقدماً جوازه. تطلع هذا الأخير إليه، ثم أخذ يضرب على حاسوب أمامه. بدا وجه الضابط عادياً بتعابيره حتى أنه تطلع إلى (عمر) لثانية مبتسماً.

خلال أخذٍ وردٍ بسيطين روتينيّن بين (عمر) والضابط، اعتقل شرطيان مدججان (عمر) من الخلف وسحباه من دون أن يجد الفرصة لكي يعترض. كان اسمه في نظام الكمبيوتر الخاص بأمن المطار مع كثيرين هدّتهم الفانتازيا الإسلاموية وأصابت منهم مقتلاً.

هناك، في إحدى غرف التحقيق، قلبوا (عمر) على قفاه من كثرة الاستجواب والأسئلة. أنهكوه لدرجة انهار باكياً عدة مرات، مردداً بإنكليزية من دون لكنة:

I am so sorry!!!

في الثقافة الأمريكية، قد تحل هذه العبارة مشاكل كثيرة، لكن ها هنا، تسقط أمام أقدام المحققين متكسرة وتنطحن.

* * *

ربما مات (عمر) في معتقله وتعفن، أو ربما استطاع أن يؤمن وصول زوجته من تركيا إلى أمريكا بعد الخروج من سجنه!

ربما عاد (سام) للعيش مع (هداية) رسمياً، أو ربما اكتفى بالحنان والمصير المشترك.

ربما عادت (أميرة) و(مارك) ليقيما في سوريا، أو ربما اكتفيا بالزيارة.

ربما استطاع (فاضل) أن يعثر على عائلته في العراق، أو ربما مات مقهوراً في شقته في لوس أنجلس بين شرائط مطربي العراق القدماء ونسخة قديمة من القرآن وزجاجات ويسكي فارغة.

ربما تمكن الله من تغيير ما في نفس وعقل (حمد)، أو ربما أكمل الرجل طريق هواه على هواه.

ربما قررت أمريكا أن تغير نظام حربها، فلا تغزو كل عام بلداً آمناً ثم تدعي أن إرهاباً جديداً يومئ برأسه غيرةً وحقداً، أو ربما لم تأبه وأكملت طريق جهنم بمفردها.

ربما حدث كل هذا وأكثر، أو ربما لم يحدث أي شيء منه على الإطلاق. لكن الحروب المقدسة، مع ذلك لم تنته، وإلى أن نراها تضع أوزارها أو تتوقف مرة واحدة وإلى الأبد، سوف يتذابح الكثير من الشعوب بسبب سوء الفهم، جارين حضاراتهم إلى البلاليع.

الفهرس

الرحيل عن القيمرية 5
مدينة الملائكة 17
عمود نير الجواميس 29
فاضل الهاشمي 33
الهويات 41
إمام الإسكندراني 49
صرة واحدة مزركشة 55
سام موريسون 63
Who are you? 67
نساء كوجو سنجار 73
شيء من الواقعية يا عزيزتي..! 79
عُمَر «ابن سام» 85
سوق الفاتح 91
أمريكي ابن أمريكي 97
أحمد برجكلي 103

«مثل درويش مطروب بذكر الله» 109
تحت شمس فضّاحة..... 121
زنوبيا وحمد..... 127
معسكر غازي عنتاب..... 133
مارد القهر الغافي 147
المدن المتعالية..... 155
مارغو وأمينة..... 163
ابن البلاد..... 171
قصر مرام 175
الطريق إلى الشام ومصر 181
مارك عبدالله..... 189
معبر «باب الهوى» 201
باخ في تدمر 211
الرقة: الولاية المحررة 221
الزهايمر 233
باتجاه جبال «سان برنادينو»..... 239
صندوق الفرجة 247
الزواج الثوري 257
الهروب الكبير 265